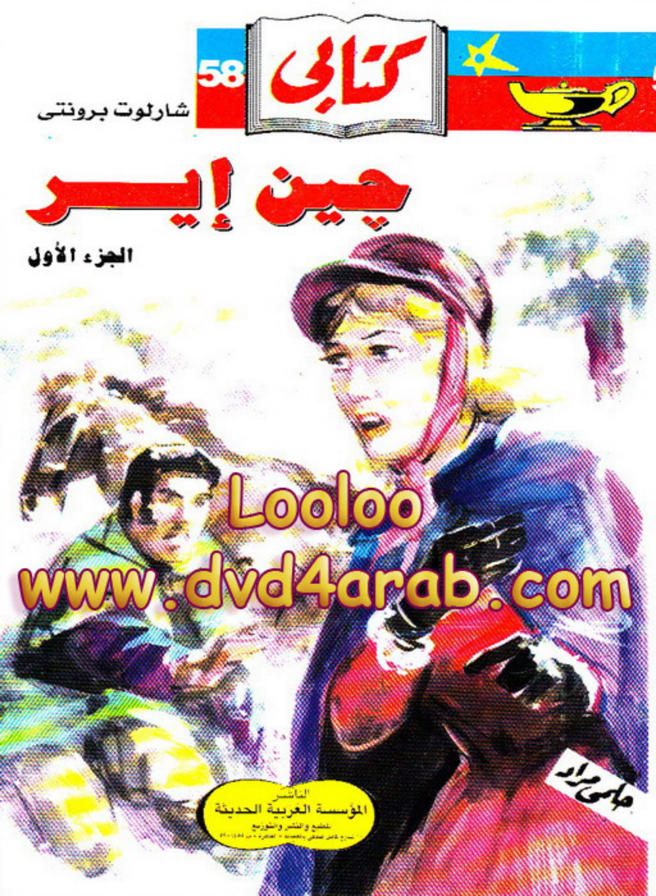

كتابي
58
شارلوت برونتى
جين إير
الجزء الأول
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

عزيزى القارئ :

● أحببت فى هذه المرة ، أن أرتد بك عبر الزمن قرناً كاملا وعقداً ، أى مائة عام وعشرة أعوام .. وأن أرتاد بك أفق الأدب الإنجليزى ، لتصل إلى إحدى شوامخه الراسخة ، الباقية ::

● ففى سنة ١٨٤٧ ، اهتمت الأوساط الأدبية فى إنجلترا ، بكتاب ظهر لمؤلف مغمور ، مجهول ، خرق ما جرى عليه الأدباء من تقاليد ، وتجاوز ما كانوا يتقيدون به من عرف فى تأليف القصص الغرامية .. وإن هى إلا أيام حتى أصبح الكتاب حديث الصالونات والمجتمعات ، وراح الرأى العام يتساءل عن ذلك المؤلف الجرىء .. وقبل أن يكتمل العام على ظهور الكتاب ، كان قد طبع مرة ثانية ، فمرة ثالثة ! .. وأدرك الرأى العام فى تلك الأثناء أن المؤلف الجرىء لم يكن (رجلا) على الإطلاق ، وإنما كان .. امرأة ؟.. بل عذراء ، فى التاسعة والعشرين من عمرها ، نشأت فى أحضان أب كان من رجال الدين (البيوريتان) ، وكان يحرص على أن يربى أولاده على الزهد ، والتقشف ، والتقوى ، واعتزال الناس !

ومن وراء الاسم المستعار الذى انتحلته المؤلفة فى الطبعة الأولى من كتابها — وهو اسم (كورر بيل) — بزغ اسم (شارلوت برونتى) ليتألق ويظل براقاً على مر الزمن .. وعرف الناس أنها إحدى أخوات ثلاث ، نشأن فى عزلة موحشة ، وليس لهن من أنيس سوى القلم والورق .. ولم يجدن ما يملأن به فراغ حياتهن منذ الصغر ، سوى الأدب ومحاولة قرض الشعر وتأليف القصص التى كن يتوخينها من صميم

حياتهن ، ومن أحلام اليقظة التى كن يعوضن بها ما حرمن منه فى حياتهن الواقعية !

واستطاعت صغرى الأخوات الثلاث — وهى (آن برونتى) — أن تخلد اسمها بقصة : (آجنس جراى) .. وكانت وسطاهن أكثر توفيقاً بقصتها : (مرتفعات وذرنج) ، وإن كان صيت هذا التوفيق واتاها متأخراً ، بعد أن ماتت .. فقد أعيد طبع القصة مراراً ، واقتبس موضوعها لأفلام سينمائية أمريكية ، وإنجليزية ، ومصرية ! .. بيد أن الفتاتين لم تصيبا من المجد والشهرة ما أصابته كبراهن (شارلوت برونتى) ، عندما وضعت الرواية التى اخترتها لك اليوم .. (جين إير) .

على أن (شارلوت) فاقت أختيها فى ناحية أخرى أيضاً .. فى تحمل العناء والآلام والأسى فى هذه الحياة ! .. لقد عاشت أربعين عاماً فى ظلام الحزن والشجن والحرمان العاطفى .. وكان الحب الوحيد الذى خفق به قلبها، حباً مقضياً عليه بالفشل من بدايته.. وأخلدت بعد يأسها منه إلى العزلة ، وليس من أنيس لها — بعد موت أختيها وأخيها — سوى قلمها .. وفى نهاية الأربعين عاماً التى عاشتها ، لاحت طلائع فجر الفرح فى حياتها ، ولكن .. ولكن القدر لم يشأ أن يمهلها حتى يطلع الفجر !

لقد كانت حياة (شارلوت) مأساة ، لا تقل روعة عن مأساة (جين) .. وقد تستطيع أن تلمس أوجه شبه بين الاثنتين ، عندما تقرأ قصتيهما ، فلأدعك لها ، ولا أشغلك عنهما أكثر مما شغلتك .

ولك تحياتى ؟ حلمى مراد

قصة حياة المؤلفة : (شارلوت برونتى)

● كانت قرية (هاورث) تقوم على رأس سفح مرتفع — فى مقاطعة يوركشاير — يمعن فى الارتفاع حتى ليحسبه المرء مشرئباً يمس السماء .. وخلف الكنيسة ، كانت دار القس تلوح خلال أفواف الضباب والمطر ، كأنها صرح عتيق مهجور ، ترين عليه الجهامة والاكتئاب ، فلا تكاد تنبعث منه ضحكة .. وكأنما خلعت المقبرة التى قامت فى حديقة الكنيسة ، شيئاً من صمتها الساجى ، ورهبتها الخاشعة ، على راعيها وأسرته وداره .. وفى حجرات تلك الدار ، التى حفت بها المقبرة من أمام ، والمستنقعات من خلف ، ولد للقس ستة أبناء ، تجرى فى عروقهم الدماء الإيرلندية ، ولا يقلون جهامة وغرابة عن هذا الوسط الذى تلقاهم وأحاط بهم .. خمس بنات ، وولد !

فى عزلة مع الحزن والكآبة

● وقدر للأطفال أن يفقدوا أمهم ولما تتجاوز كبراهم الثامنة من عمرها ، بينما كانت صغراهم (آن) تحبو فى ثانى أعوام حياتها .. وإذ كان الأب من أتباع مذهب (كالفن) ، فقد كتب على الأولاد أن يعيشوا فى زهد وتقشف ، حتى لقد حرموا مذاق اللحم ، لأن اللحم — فى مذهب الأب — من مظاهر الترف ! .. بل إن اللعب كان ضرباً من الرفاهية لايليق بهم . ومن ثم طبعت حياتهم بالحزن والكآبة والشعور بالمسئولية .. فقد كان حتماً عليهم أن يتلقوا عن أبيهم دروساً فى الموت والحياة الأخرى ، وهم بعد يمتصون أصابعهم .. ويحملقون فيما حولهم ،

يحاولون التعرف على الحياة الدنيا ! .. وكيف كان لهم أن يعرفوا هذه الحياة وهم الذين لم يكونوا يلقون من الناس أحداً سوى أهل بيتهم ، ولا كانت أبصارهم تقع — خلال نوافذ حجرة الأطفال بالدار — على غير المقبرة الحزينة ، والمستنقعات الكئيبة ؟! وفى الصمت الواجم الذى كان يرين على عالمهم هذا ، كان الموت والشيطان لايكفان عن الصراع : أولهما يبغى الاستيلاء على أجسادهم ، وثانيهما يسعى للظفر بنفوسهم ! .. وكان الأب القس طرفاً ثالثاً فى الصراع ، يمثل الله ويشرف على تنفيذ تعاليمه . فكان الأب (برونتى) يدعو أولاده إلى مكتبه مرة فى كل أسبوع ، ليختبرهم فيما تكون أخته — العمة (برانويل) — قد لقنتهم من دروس .. وكان الأطفال يقفون أمامه فى أدب وخضوع ، شأن الصغار أمام أبيهم ، فيسألهم بالدور :

— ما الذى يعوز الإنسان إذا ما كان فى مثل سنك يا آن ؟

وتجيب (آن) ذات العينين الزرقاوين ، التى لم تتجاوز الرابعة : « التجربة والخبرة يا أبت ! » :

— وما الذى ينبغى أن أفعله بأخيك (برانويل) إذا ماكان مشاكساً يا إميلى ؟

وتجيب (إميلى) ، التى كانت فى الخامسة من عمرها : « تجادله بالتى هى أحسن ، فإذا لم يرعوِ لصوت العقل ، تضربه بالسوط ! » .

(شارلوت) فى الثامنة من عمرها

● وتثلج الإجابتان صدره ، فهكذا ينبغى أن تكون أخلاق المتطهرين — (البيوريتان) — فى رأيه . ولا يلبث أن يلتفت إلى (شارلوت) التى لم تتجاوز الثامنة من عمرها ، والتى لم تؤت قبساً من الجمال ، بل كانت ذات فم واسع معوج ، وعينين حالمتين ، فيسألها : «ما هو أفضل كتاب فى الدنيا ! » .

— التوراة .. والطبيعة يا أبت !

ويتحول الأب إلى (ماريا) ، كبرى البنات ، فيسألها . « خبرينى يا ابنتى ، ما أفضل الطرق للإفادة من الوقت ؟ » .. وتجيب ابنة الربيع العاشر من العمر : « أعتقد أن خير طريقة للإفادة من الوقت ، هى فى تكريسه للاستعداد للحياة الأخرى ! » .

ويحين دور (برانويل) ، الابن الذى عقد عليه الأب (برونتى) آماله ، وكان — إذ ذاك — صبياً مشاكساً ، شرساً ، فى السابعة من عمره : فيسأله : « ما أفضل الوسائل لمعرفة الفوارق بين ذكاء الرجال ومدارك النساء ؟ » .

ويقطب (برانويل) ، ثم يقول : « مراعاة الفارق بينهم فى الجسم ياسيدى ! » ... ويبهت مستر (برونتى) لهذا الجواب !

وينتهى الاختبار ، فيسمح الأب لأولاده الستة بأن يخرجوا للنزهة مع كلبهم ، مكافأة لهم ، فينطلقوا فى الأرض المعشوشبة التى تتخللها المستنقعات .. وفى تلك السويعات القلائل ، كانت يد خفية عجيبة

تربط بين الأطفال الذين كانوا يعيشون فى عزلة ، وكأنما غفل عنهم البشر ، وبين المنطقة المعشوشبة — الحمأة — التى كانت تبدو وكأنما نبذها الله وأهملها .. وما أشد ما كان الشبه بين الفريقين .. الأولاد اليتامى الذين فقدوا الأم ورعايتها ، والمنطقة المهملة اليتيمة التى فقدت رعاية المصلح !

عالم من نسج الخيال !

● وأرسل الأب (برونتى) بناته إلى مدرسة بقرب (برادفورد) . ولكن نقص التغذية ، وشظف الحياة ، لم يلبثا أن قصفا عمرى (ماريا) و (اليزابيث) ، الابنتين الكبريين . وعادت (شارلوت) و (إميلى) و (آن) إلى دار القس فى (هاورث) . وإذ أصبحت (شارلوت) كبرى أخواتها ، فإنها لا تلبث أن تنصب نفسها أماً لهم ، تنظم شئونهم ، وترعاهم ، وتعلمهم ، وتقرأ صحيفة الصباح على أبيها وهو يحتسى قهوته .. وتتزعم الأطفال فى الإلحاف على (تابى) الخادم ، كى تروى لهم قصص الجان و (العفاريت) .. وتسترسل فى الأحلام التى كانت ترى فيها نفسها مع دوق (ولينجتون) — بطلها المحبوب — فى جزيرة خلت إلا منهما !

وكان لابد لمن يقيمون فى دار قس (هاورث) من أن يلتمسوا الزمالة والحياة الاجتماعية فى الخيال ، فقل من كان ينشد زمالتهم أو ينفذ إلى حياتهم . ومن ثم فإن التاريخ لم يعرف إخوة أوتوا من الخيال المشحوذ ، المرهف ، ما أوتيه أبناء القس (برونتى) .. البنات الثلاث والولد : فقد راحوا يسودون المذكرات بمغامرات خيالية ، واجتماعات

موهومة ، وأقاصيص تصور نفوسهم فى آلاف من مرايا الفكر والوهم.. وكانوا بهذا يخلقون لأنفسهم عالماً خاصاً بهم ، عز الوشائج بينهم .

وتقول شارلوت عن هذه الحقبة : « كنا نعتمد كل الاعتماد على أنفسنا ، ويركن كل منا إلى الآخر ، وإلى الكتب ، وإلى الدروس ، نلتمس فيها ما يملأ حياتنا من لهو وشغل » . وهى تذكر أن محاولة الكتابة الأدبية كانت أشد ما يستأثر بشغفهم ، وما يبعث السرور فى نفوسهم .

(شارلوت) فى المدرسة

● على أن الأب لم يلبث أن قرر أن من الخليق بشارلوت — وكانت قد بلغت الرابعة عشرة — أن تنال نصيباً من الدراسة النظامية ، فأرسلها إلى مدرسة للبنات .. وعندما وقفت فى اليوم الأول بين الطالبات ، بدت منكمشة ، وراحت عيناها تطرفان وتختلجان فى الضوء ، مما أثار إشفاق البنات الأخريات ، وجزعهن ، بل منهن من كدن يبكين .. فقد كانت هزيلة ، ضئيلة ، يكاد من يراها يحسبها لم تتجاوز العاشرة .. وكان بصرها كليلا ، قصير المدى ، مما كان يجعل عينيها تبدوان كعينى الضفدعة ، إذا واجهت بغتة ضوءاً قوياً .. وكان شعرها مضفوراً ، وقد ارتدت ثوباً من الصوف الأخضر ، ارتدته عمتها قبل ذلك بجيل !.. وكانت حركاتها أشبه بحركات حيوان صغير خائف !

واختبرتها مس (وولر) — المدرسة — فألفتها متخلفة فى أبسط مبادئ الحساب والجغرافيا والنحو ، فلما حاولت أن تعرف مقدرتها على الكتابة ، أمسكت الصبية العجيبة بالقلم ، وانحنت حتى كاد أنفها يلاصق

الورق ، وراحت تكتب صفحة إثر أخرى ، فى أسلوب راق .. حتى إذا أبدت المعلمة دهشتها ، قالت الفتاة فى بساطة : « لقد كتبت ملء اثنتين وعشرين كراسة من القصص ، فى دارنا ، يا سيدتى ! » .

وفكت مس (وولر) ضفائر التلميذة الجديدة ، فإذا شعرها ينساب جميلا على كتفيها . وخصتها المدرسة بنظام خاص للتغذية ، أتاح للفتاة أن تتناول — لأول مرة فى حياتها — اللحم والحساء و (الصلصة) . وسرعان ما اكتسب جسمها الهزيل التفافاً أضفى عليه جمالا .

تحلل الشخصيات وهى فى الخامسة !

● وما لبثت أن تغلبت على حيائها وانطوائها ، حتى لقد صارت تستبقى زميلاتها مستيقظات — فى عنبر النوم — إلى ساعة متأخرة من الليل ، بما كانت ترويه لهن من قصص أراضى المستنقعات ! .. وكان الحماس يستولى عليها ، فتتألق عيناها ، ويتضرج وجهها ، وهى تستسلم لأجنحة الخيال تحلق عليها فى مغامرات مثيرة . وقد كتبت إحدى زميلاتها يوماً تقول :

« أثارت شارلوت الذعر فى نفوسنا ذات مساء بما راحت ترويه عن مغامرات فتاة اعتادت أن تسير أثناء نومها .. لقد جمعت فى قصتها كل ما كان فى متناول خيالها من أهوال .. فمن بحر متلاطم الأمواج ، إلى قلعة منيعة الجدران ، إلى ذرى عالية تشرف على وهاد سحيقة .. وندت صرخة واجفة من إحدى المستمعات ، وكانت مريضة حديثة النقاهة .. وإذا ذاك ، توقفت شارلوت عن الرواية .. وما لبثت أن انبعثت منها

صيحة ألم مكتومة ، ثم هتفت تنشد العون ، بصوت مرتجف .. وإذا بها غارقة فى الدموع والأسى .. ومكثنا عدة أسابيع لا نجرؤ على أن نسألها أن تستأنف القصص ! » .

هكذا كانت عواطفها تنساق لخيالها إذا روت إحدى قصصها ..

وكانت إذا تحدثت عن أختيها اللتين ماتتا ، تملكها الألم . فإذا أبدى أحد عجبه من دقة وصفها لأطوارهما ، وقد كانت صغيرة حين ماتتا ، قالت : « لقد تعودت أن أحلل الشخصيات مذ كنت فى الخامسة من عمرى ! » .

وبقدر نشاط قريحتها ، كان خمول جسدها : فكانت إذا ما اشتركت زميلاتها فى اللعب ، تلجأ إلى كتاب عازفة عنهن .. ولعل ضعف بصرها كان من أهم أسباب عزوفها عن اللعب .. كان بصرها ضعيفاً ، فى الوقت الذى كانت بصيرتها فيه حادة ، ثاقبة !

خلقوا من غير طينة البشر ؟

● وانتهى الأمر بشارلوت إلى أن أصبحت مدرسة فى المدرسة التى تعلمت فيها . بيد أنها لم تكن تميل إلى التدريس : فأرسلت بعض أشعارها إلى الشاعر (روبرت ساوذى) تلتمس تشجيعه ، ولكنه أرسل لها يقول : « ليس من الممكن للأدب أن يكون حرفة امرأة .. ولا ينبغى ! » . وبعثت بشطر من رواية إلى (وردسويرث) — وكان من فطاحل الشعراء إذ ذاك — ولكنه كتب لها زاعماً أنه لم يستطع أن يتبين : « ما إذا كانت المؤلفة كاتبة لدى موثق للعقود ، أو حائكة ناقصة العقل ! » .

وصدتها المحاولتان عن الاتجاه إلى احتراف الأدب ، فقبلت العمل كمربية لدى أسرة لندنية من الطبقة الوسطى . ولكنها لم تستشعر فى حياتها الجديدة سعادة ولا هناء . فقد كان رب الأسرة يعاملها كما لو كانت خادماً .. وكان الأطفال « يسكبون اللبن على المائدة ، ويدس كل منهم إصبعه فى قدح أخيه ، ويمسحون أفواههم بأيديهم ، أو بأطراف ثوب أمهم .. ويتجشأون كالعجول ، ويبصق كل منهم فى وجه أخيه ، أو فى حقيبة المربية ! » .

ومن ثم لم تلبث أن هجرت عملها فى استياء ، وقد ضاعف إخفاقها فيه من شعورها بالنقص . ولكن .. ما الذى ينبغى لها أن تفعل إذن .. ؟ أتتزوج ؟ .. كان الزواج أبعد الأمـور عن ذهنها ، إذ من ذا الذى يتزوج من فتاة (بلا مال ولا جمال) ؟

وهكذا لم تكن (شارلوت) سعيدة فى حياتها .. ولا كان أحد من آل (برونتى) سعيداً ، فكأنما خلقوا من طينة غير طينة البشر ودنياهم .. إذ كانت (آن) لا تقوى على الظهور أمام أغراب عنها ، وكانت تعسة فى عملها كمربية للأطفال . وكانت (إميلى) تأبى العمل بعيداً عن قريتها ومفارقة مستنقعاتها . أما (برانويل) – أمل أبيه – فقد ارتمى بعد محاولات فاشلة لبيع قصصه ، فى أحضان المواخير ، حيث كان يجد جمهوراً يقدر تلك القصص ، ويقدر براعته ، إذ كان يستطيع أن يكتب خطابين ، بيديه الاثنتين ، فى آن واحد ! .. كما كان يحذق رواية النكات الإيرلندية اللاذعة !

تهوى أستاذاً دميماً .. متزوجاً !

● وكان لابد من عمل لإصلاح حال الأسرة ، فآلت (شارلوت) على نفسها أن تضطلع بهذا العبء . وسنحت لها الفرصة حين تلقت يوماً رسالة من إحدى زميلات الدراسة ، وكانت تدرس فى مدرسة داخلية فى (بروكسل) ، فقررت أن تصحب (إميلى) إلى بلجيكا ، حيث تدرسان لعام كيف تدار المدارس ، ثم تعودان فتنشئان فى (هوارث) مدرسة راقية للبنات .

وهكذا رحلت وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ، فالتحقت بمدرسة داخلية يديرها زوجان .. مسيو ومدام (هيجير) . وسرعان ما تعلقت بالرجل برغم أنه كان أباً لخمسة أبناء ، وبرغم أنه كان « أبشع رجل فى العالم .. كان قصير الساقين ، بارز سقف الجمجمة ، ذا شعر أسود غزير قصير ، ونظارة تنحدر على أنفه ، وتتألق خلفها عينان كجذوتين من نار .. كان مخلوقاً ضئيل الجسم ، أسمر البشرة ، ذا وجه لا تستقر ملامحه ، فهو تارة يستعير قسمات قط برى مسعور ، وطوراً قسمات ضبع محموم ! » .. وكان على النقيض منها تماماً : فى السن ، والميول ، والطباع . ولكنه كان أول رجل مرهف الذكاء صادفته !

واصطفاها الرجل من بين تلميذاته ، ليؤثرها بدروس خاصة ، جعلت من ذهنها الطفل الساذج « ذهناً قوياً فيه صفات تفكير الرجولة » . إذ كشف لها عن دنيا الفلسفة ، والعلم ، والفن ، وقادها إلى آفاق جديدة من خبرة البشر .. وأحست الفتاة إلى جواره ، ببوادر يقظة العاطفة . حتى إذا استكملت عامها ، وعادت إلى (هاورث) ، كتب الرجل

إلى أبيها يرجو أن تعود إليه تلميذته الفذة ! .. وعادت (شارلوت) إلى بروكسل ، « تجتذبها قوة لا قبل لها بمقاومتها ! » . وشد ما كانت غبطتها حين سألها مسيو (هيجير) أن تعلمه الإنجليزية ، فأتاح لها بذلك الفرص كى تخلو إلى الرجل الذى أصبح .. كل شىء فى دنياها !

تحتفظ بأعقاب سيجار حبيبها !

● وكانت مدام (هيجير) تلاحظ هذه الأعراض بأعصاب باردة .. كانت الإنجليزية الشابة الخجول لا تكلم أحداً ، ولا تبسم لأحد سوى زوجها .. وكانت إذا جلست إليه : « أشرق وجهها ، واكتسب جمالا لم تكن تفطن إليه ! » .. كانت معه تتحول إلى امرأة مشتهاة ! .. ومن ثم لعبت مدام (هيجير) دورها بدهاء المرأة المجربة ، فتعمدت — فى لباقة — أن تعدل جدول دروس زوجها ، بحيث لا تتفق أوقات فراغه مع أوقات فراغ تلميذته . وصدت (شارلوت) — فى براعة — عن أن ترتاد غرفة جلوس الأسرة وكأنها من أفراد هذه الأسرة . على أنه ما كان ينبغى لمدام (هيجير) أن تخشى هذه الفتاة الساذجة . فإن (شارلوت) لم تكن ترى الحب قبلات وعناقاً ، وإنما كان : « الحب ، كما أفهمه ، ليس بالشىء الذى يجانب الصواب ، والنبل ، والإخلاص » .. ولم تكن تبغى من وراء غرامها ، سوى أن تكون مع ذاك الذى أحبته .. أن تحظى بنظرة منه ، وأن تنصت ساعة إلى جرس صوته ، وأن تجمع السيجار الذى كان ينساه وراءه ولما يدخن سوى نصفه ..

لم تكن تبغى سوى هذا .. ولكنها حرمت من هذه البسائط ، على قلتها وتواضعها !

وهو ؟ ! .. إنه لم يكن يعى ما يساورها .. لم يفطن إلى وجدها ، ولم يشعر بحبها ، خلال العامين اللذين قضتهما فى (بروكسل) فى هذه المرة .. كان يحدثها عن العواطف وكأنها أفكار وآراء عقلية مجردة ، فى الوقت الذى كانت هى فيه تكتوى بنيران الجوى .. عامان قضتهما فى ظلام ، تتخبط بلا رفيق ولا نصير . ثم عثرت ذات يوم على صديق .. وكان ذلك الصديق : كنيسة ! .. كنيسة القديسة (جوديل) .. ووقفت لحظة تسرح بصرها خلال أبواب هذه الكنيسة ، تحملق فى الشموع الموقدة ، ثم أقدمت على ما لم يقدر لأبيها وأختيها أن يدركوه أبداً .. سارت إلى داخل الكنيسة ، لتلقى بنفسها فى أحضان المذهب الكاثوليكى .. وركعت عند المذبح لكى تعترف ، وتفضفض بما كان يضنيها .. بقصة حبها ! .. وروت آلامها ، كما يروى الطفل شكاته لأمه ، ثم بارحت الكنيسة ، فحزمت أمتعتها ، ورحلت لفورها إلى (هوارث) !

(شارلوت) العاشقة تكتب خطابات متأججة

● وهناك أمسكت بالقلم ، لتكتب له أروع الرسائل وأحفلها بالعواطف .. رسائل تتلظى بالنيران المتأججة فى فؤادها : « سيدى ، إن الفقراء لايحتاجون إلى الكثير ليقيم أودهم ويصون بقاءهم فى الحياة ، بل لأنهم لايرجون سوى الفتات الذى يتساقط عن مائدة الغنى . وأنا الأخرى لا أطمع فى غير قسط ضئيل من عطف من أحبهم ، إذ أننى لا أدرى ما الذى أفعله بالولاء الكامل ، الشامل منهم .. فأنا لم آلف التفكير فى ذلك . ومع هذا ، فإننى أدرك أن ثمة أناساً ذوى تفكير رزين وأعصاب باردة ، خليقون بأن يقولوا ، إذا ما قرأوا هذا : « إنها

تهذى ! » ؛: ولست أرجو من ثأر سوى أن يجرب هؤلاء الناس يوماً ما عانيت من عذاب خلال ثمانية شهور .. لسوف نرى إذ ذاك ما إذا كانوا هم الآخرون يهذون ! .. إن المرء يتحمل العذاب فى صمت، طالما كانت لديه القوة ، أما إذا انهارت هذه القوة ، فإنه يتكلم دون أن يزن كلماته ! » .

ولم تتلق رداً .. كان رجلا (مستقيماً) ، فلم يحفل برسائلها .. ومن جديد ، عادت تكتب إليه : « لقد حاولت أن أنساك .. فعلت كل شىء .. حاولت أن أشغل نفسى باستمرار .. لماذا لا أملك أن أشعر نحوك بنفس القدر من الصداقة الذى تشعر به نحوى ، دون زيادة أو نقصان ؟ .. لو أننى استطعت ، لتحررت ، ولكان فى وسعى أن أصمت سنوات ! .. إننى أسألك صنيعاً ، يا سيدى .. حدثنى عن أطفالك .. تكلم عما يحلو لك ، يا أستاذى ، لمجرد أن أحظى بحديثك .. فإنه — بالنسبة لى — بمثابة الحياة .. أما أن تمنعنى من الكتابة ، وأما أن ترفض الرد ، فكأنك تنتزع منى السعادة الوحيدة التى حظيت بها من دنياى ، وتنتزع منى آخر نعمة لدى ! » .

تصارع الجنون بالجوء إلى القلم !

● وجاءها — أخيراً — رد ، فكتبت تقول : « لقد غذانى خطابك ستة شهور ، ولابد لى الآن من آخر ، ولسوف ترسله ، لا بدافع من الصداقة — إذ أنك لا تشعر بها كثيراً — وإنما لأن لك قلباً رفيقاً ، شفوقاً ، يأبى عليك أن تقضى على امرىء بالعذاب الطويل ، لمجرد أن تجنب نفسك لحظات من السأم ! » .

وأخذت تلجأ إلى قلمها ، لتنقذ نفسها من الجنون .. ولكنها لم تتلق جواباً .. وإذ ذاك صهرت عذابها وصبته فى قالب قصة .. قصة للأجيال والخلود .. هى قصة (جين إير) التى نقدم إليك أول ترجمة عربية أمينة ، دقيقة لها ، فى هذا الكتاب .

وعندما ظهرت (جين إير) للمرة الأولى — فى سنة ١٨٤٧ — أحدثت ضجة هائلة ، ولقيت رواجاً عظيماً ، حتى لقد أعيد طبعها فى ديسمبر من نفس العام ، ثم طبعت مرة ثالثة فى إبريل سنة ١٨٤٨ .. وتوالت الطبعات بعد ذلك ، وما تزال تتوالى .. ولكن المهم فى الأمر ، أن يكون الكتاب أول إنتاج لمؤلفة مجهولة ، مغمورة ، ويطبع ثلاث مرات فى حوالى العام ، بل أقل من عام . ومتى .. قبيل منتصف القرن التاسع عشر ، ولما يبلغ التعليم مبلغه اليوم ، ولما تنفسح أمام الإنتاج الأدبى الإنجليزى أسواق العالم كما تنفسح اليوم !

قصة هواها باسم مستعار !

● وأطرف من هذا كله ، روح الكتابة وشعورها ، وهى تدفع بكتابها الأول إلى دنيا النشر .. فلقد قالت لأختيها : « **إن الكتاب** ليخطئون إذ يصرون على أن يجعلوا بطلاتهم جميلات ، ويتخذون من هذا قاعدة .. ولسوف أثبت أنهم مخطئون .. سأقدم بطلة خالية من الجمال ضئيلة الجسم ، مثلى تماماً ! » .. ولم ينقض أسبوعان على ظهور الكتاب ، حتى كان حديث القوم فى صالونات الشاى والمجتمعات ، يتناولونه فى إعجاب وانبهار ، ويتساءلون : من ذلك الكاتب الذى انتحل لنفسه

اسم (كورر بيل) ، فما شك القوم فى أن المؤلف الذى وضع رواية غرامية على غير المألوف فى قصص الهوى، إذ جعل بطلتها مربية ليس فيها ما يبهر الرجال ، ولكنها تقع فى هوى رجل متزوج من امرأة معتوهة مخبولة .. ما شك القوم فى أن المؤلف لم يجسر على نشر اسمه الحقيقى على الرواية، لما فيها من خرق للتقاليد التى جرى عليها المؤلفون .. ولكن أحداً لم يتصور إطلاقاً أن المؤلف ليس فى الواقع (مؤلفاً) ، وإنما هو .. (مؤلفة) .. أنثى .. وعذراء !

وكان أديب إنجلترا الخالد الذكر (ثاكيراى) قد تورط فى نفس الوقت ، فى مثل هذا الخرق لتقاليد مؤلفى القصص الغرامية ، إذ أصدر رواية (فانيتى فير) .. فلم يتردد فى الاعتراف بعبقرية (كورر) ، حتى أنه بادر فأرسل إليه نسخة من روايته ، تحمل إهداء بخط يده .. وما خطر له قط — إذ ذاك — أن الزميل العبقرى ، كان .. ابنة قس (بيوريتانى) متزمت !

ولقد ردت (شارلوت برونتى) هذه التحية بأجمل منها ، إذ صدرت الطبعة الثانية من كتابها ، بإهداء إلى (ثاكيراى) .. وكان الرأى العام قد فطن إلى شخصيتها ، فلم يسعه سوى أن يظن أن (المؤلفة) العاطفية الجريئة ، لابد أن تكون (عشيقة) للمؤلف العاطفى الجرىء !

تفقد إخوتها فى أسابيع قلائل

● وما درى الناس أن (شارلوت برونتى) كانت ترزح تحت أفدح الأحزان ، فى الوقت الذى سلط المجد فيه أضواءه على (كورر بيل) ، فإن أخاها (برانويل) مات ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من

عمره .. وكان قد رحل إلى لندن ، ليبرز فى فن الرسم ، فتردى فى مباذل الفنانين ، ثم عمل مدرساً لأبناء رجل موسر ، ولكنه طرد من عمله حين ظهر أنه كان يدبر خطته للفرار مع أم تلاميذه ! .. وانحدرت به الحال حتى عمل كمحصل فى أحد الخطوط الحديدية ، إلى أن اكتشف المفتش أنه كان يرسم فى دفاتره صور (فينوس) بدلا من أن يسجل الأرقام ، وكان يثبت قصائد من الشعر فى مكان الحسابات !

وعندما هوت مكانة (برانويل) إلى الحضيض ، عكف على ترجمة (الأوديسة) إلى شعر إنجليزى راق .. وأفرط فى الشراب ، حتى قضى نحبه مخموراً ! .. ولم تنقض أسابيع قلائل ، حتى لحقت به (إميلى) ، التى قضت العمر صامتة ، بينما كان قلبها يتأجج بسعير نفثته فى قصة (مرتفعات ويذرنج) .. وإن هو إلا شهر ، حتى أنشب السل مخالبه فى رئتى (آن) .. صغرى الأخوات ! .. وحملتها (شارلوت) إلى البحر عسى أن تفيد من نسيمه ، ولكن (آن) أدركت أن النهاية قد دنت ، فشدت على يد (شارلوت) وهى تهمس : « تشجعى ! » .. ولم يحن أصيل ذلك اليوم حتى ماتت ! ..

ووقفت (شارلوت) وحيدة ، فى ضياء الشمس الآفلة ، وفى أذنيها أصداء أبيات من شعر (إميلى) :

« إذا كانت الأرض والقمر قد وليا ..
والشموس والأكوان قد غابت عن الوجود
وبقيت أنت وحيـدة ..
فإن الوجود كله .. سينحصر فيك ! »

تعيش فى الماضى مع الذكريات

● أعلن الخادم فى دار مسز (هاربيت مارتينو) مقدم الآنسة (بروجدن) .. وأقبلت فى أعقابه امرأة ، لم ير الضيوف من تصغرها جسماً من قبل .. وكانت مستحيية ، خفيضة الصوت ، حتى إن الخادم لم يسمع اسم (برونتى) من شفتيها واضحاً ، فظنه (بروجدن) !.. ومدت (شارلوت) إلى صاحبة الدار يداً صغيرة طرية ، كأنها « مخلب طائر صغير » ، ثم انزوت فى أحد الأركان ، وعيناها تطرفان فى كلل وارتباك ..

وكانت (شارلوت) قد غالبت خجلها وانطواءها ، وغادرت (هاورث) لتزور ناشرى كتابها ، فبذل الشريكان كل حيلة فى حملها على قبول برنامج حافل بزيارات وحفلات ومآدب تليق بشهرتها .. وراحت تقضى نهارها فى التنقل وإلقاء المحاضرات ، وتأوى فى ليلها إلى حجرات فخمة أعدت لنزولها .. وكان القوم يتوقعون أن يلتقوا بفتاة فيها كل ما فى الأنوثة من رغبة فى انتزاع الإعجاب، فإذا بهم إزاء مخلوقة صامتة ، منطوية ، تكاد تتوارى خلف قطع الأثاث أو تحتها ، إذ كانت تحس بآلام عنيفة لوجودها بين الناس ! .. وعندما تركها الناشران فى النهاية ، لتختار ما يحلو لها من أماكن تزورها ، اختارت اثنين من السجون ، وملجأ للقطاء ، ومستشفى للمجاذيب !

وكتبت (شارلوت) بعد ذلك قصتين .. (شيرلى) — التى تمثل صفحة من حياتها ، عندما كانت تعمل مربية فى لندن — و (فيلليت)

أو (فييت) ، التى استمدتها من ذكريات حياتها فى بلجيكا .. قصتان من الماضى ، فقد مضى كل شىء ، بالنسبة لها ، ولم يعد لها فى حاضرها سوى الذكريات تعيش عليها .. بل إنها نفسها أصبحت تمت إلى الماضى ، فقد كانت تبدو فى الستين من عمرها ، قبل أن تتجاوز الأربعين !

زواج بعد الأربعين !

● أفكان ثمة مجال للحب عند تلك التى كانت تعيش فى الماضى ؟!

لقد تطايرت الشائعات بأن قساً من أبناء الجيرة صارحها بهواه . وكان الأمر حقيقة واقعة ، فقد شاء أحد القساوسة أن يتيح لها بعثاً جديداً فى الحياة .. وكان جامد الفكر خلواً من المواهب ، فى حين أنها كانت موهوبة ، مشهورة ، ولكنها .. حزينة . ومع الفارق الكبير بينهما ، فإنها قبلت .. وبعد كثير من الهم والأسى ، وقفت إلى جواره بعد ظهر عيد الميلاد من سنة ١٨٥٤ ، فى ثوب الزفاف ، لتربط حياتها بحياته .. وكانت هذه هى الفرحة الوحيدة فى حياتها !

ودامت هذه الفرحة شهوراً ، ثم تطايرت الأنباء من (يوركشاير) إلى لندن ، بأن (شارلوت) قد حملت ، وأن البهجة دبت من جديد فى فؤاد ابنة (هاورث) الحزينة .. ولكنها سرعان ما مرضت، ولازمت الفراش ، وراح الأطباء يطمئنونها بأن الوهن أمر طبيعى يصحب الحمل لمن كانت مثلها . وأخذت تقضى وقتها مسرحة البصر خلال النوافذ إلى « الأمطار الدافقة التى كانت تغرق الحديقة ، وإلى المستنقعات التى لفها الضباب » .. وكانت تحس فى ضعفها بقوة غريبة ، عجيبة ..

وما درت أن الموت كان ينمو مع نمو الحياة الجديدة التى كانت تدب فى أحشائها .. ثم اشتد نمو الموت حتى فاق نمو الجنين ، فما لبثت أن زهدت مولد الطفل ، وفقدت كل اغتباط كان يفعم نفسها لمقدمه .. وكانت تقول لزوجها وهو يحنو عليها : « إننى من التعب بحيث لم أعد أقوى على أن أحفل به » .. ثم ترفع رأسها نحوه لتقول : « لا ، لن أموت ! .. لن يفرق بيننا ! » .. ولكن رياح شهر مارس حملتها معها عبر نهر الظلمات ، إلى .. إلى حيث تبدأ الحياة من جديد ، فى العالم الآخر !

* * *

١٠ تواريخ فى حياة (شارلوت برونتى)

١٨١٦ : ولدت بمقاطعة (يوركشاير) .

١٨٣٠ : التحقت بمدرسة داخلية للبنات .

١٨٤٢ : درست فى بلجيكا ، ووقعت فى غرام أستاذها .

١٨٤٤ : عادت إلى دار أسرتها فى (هاورث) وقد يئست من غرامها .

١٨٤٦ : نشرت بالاشتراك مع أختيها (إميلى) و (آن) ديواناً شعرياً ، تحت أسماء مستعارة : (كورر ، وإليس ، واكتون بيل) .

١٨٤٧ : نشرت (جين إير) .

١٨٤٩ : أتمت كتابة روايتها الثانية (شيرلى) .

١٨٥٣ : أتمت كتابة روايتها الثالثة (فيلليت) .

١٨٥٤ : تزوجت من القس آرثر بيل نيكولس. ومن طريف المصادفة أن ثانى أسمائه (بيل) هو نفس الاسم المستعار الذى كانت تتخذه قبل اشتهارها .

١٨٥٥ : ماتت وهى حامل .


جين إير
الجزء الأول



الفصل الأول

● لم يكن فى الوسع أن نتمشى فى ذلك اليوم .. فلقد قضينا — فى الواقع — ساعة كاملة من الصباح ، ونحن نتجول بين الأشجار الجرداء .. بيد أن رياح الشتاء القارس ما لبثت بعد الغداء — إذ تتغدى مسز (ريد) عادة فى ساعة مبكرة ، عندما لايكون ثمة ضيوف — أن أخذت تجلب معها سحباً قاتمة ، ومطراً ثاقباً ، لايتأتى معهما أن نخرج لأية رياضة . ولقد فرحت بذلك ، لأننى لم أكن أحب مطلقاً أن أسير لمسافات طويلة ، لاسيما فى الأصائل الباردة . وكم كان يروعنى أن أعود إلى المنزل فى غسق الليل ، بأصابع يهرؤها البرد ، وبقلب يملؤه الأسى لتأنيبات (بيسى) المربية ، ويستذله الشعور بضعف بنيتى بالنسبة لكل من (إليزا) و (جون) و (جورجيانا ريد) !

وكان هؤلاء — (إليزا) و (جون) و (جورجيانا) — يلتفون فى تلك الأثناء حول والدتهم فى حجرة الجلوس ، وهى مضطجعة على أريكة بجوار المدفأة ، ومن حولها أحباؤها الصغار ، وقد كفوا فى تلك الآونة عن العراك والضجيج ، فتبدت عليهم السعادة موفورة كاملة ! أما أنا ، فقد أعفتنى مسز (ريد) من شرف الانضمام إلى هذه الثلة ، قائلة إنها تأسف إذ تضطر إلى إقصائى بعيداً ، وأنها إن لم تسمع من (بيسى) ، وإن لم تر بنفسها ، أننى جادة السعى فى أن تكون طباعى أكثر تآلفاً وبساطة ، وفى أن تكون أخلاقى أكثر جاذبية ومراحاً — أى أن تكون أوفر مما هى عليه الآن لطفاً ، وصراحة ، ومواءمة للطبيعة — فسوف تحرمنى كل الامتيازات التى لا تغدق على غير السعداء من الأطفال

الصغار ! .. وكنت أسألها : « وما الذى قالت بيسى إننى فعلته ؟ » ، فتجيب : « اسمعى يا جين .. أنا لا أحب من يكابرون ويستجوبون .. فضلا عن أننى أكره فى الطفلة أن تتحدث إلى من يكبرونها بمثل هذه الطريقة . هيا اجلسى فى مكان ما ، وأخلدى إلى الصمت ، ما لم تستطيعى التحدث بلطف ! » .

وكانت تتصل بحجرة الجلوس غرفة صغيرة لتناول الإفطار ، فتسللت إليها . وكانت تحوى صواناً للكتب ، فسرعان ما استوليت منه على كتاب عنيت بأن يكون زاخراً بالصور ، ثم ارتقيت قاعدة النافذة ، فرفعت قدمى ، وجلست متربعة كجلسة الأتراك ، وجذبت الستارة الحمراء المشجرة حتى كدت أسدلها علىّ تماماً ، فأصبحت بذلك فى عزلة مزدوجة : فقد كانت طيات الستارة القرمزية تحجبنى وتحجب عنى الرؤية من ناحية اليمين ، بينما كانت ألواح الزجاج إلى اليسار ، تحمينى — دون أن تفصلنى فصلا — من طقس ذلك اليوم الكئيب من أيام شهر نوفمبر . وفيما كنت أقلب صفحات كتابى بين الفينة والأخرى ، أخذت أتفحص « طلعة » الشتاء بعد ظهر ذلك اليوم . كانت ثمة صفحة باهتة من الضباب والسحاب على البعد ، ومنظر يتألف من أرض مخضلة ، ودغل عبثت به العاصفة ، وأمطار تهطل مدرارة دون انقطاع ، وتندفع هوجاء أمام زوبعة هائلة تثير الشجن فى النفوس .

وكنت لا ألبث أن أعود إلى كتابى : (تاريخ الطيور البريطانية) ، من تأليف (بويك) .. وما كان موضوعه يعنينى فى كثير ، ولكننى — برغم طفولتى — لم أستطع أن أمرّ ببعض صفحاته الأولى دون احتفاء ،

فقد كانت طيات الستارة القرمزية تحجبنى وتحجب عنى الرؤية ...

إذ كانت تتناول مأوى الطيور ، وتلك الصخور والجبال المنعزلة فى جوف البحر ، والتى لا تسكنها سوى تلك الطيور .. كما كانت تتحدث عن ساحل النرويج الذى ترصع الجزر طرفه الجنوبى ، من (ليندنيس) أو (نيز) إلى (نورث كيب) :

حيث المحيط الشمالى يغلى فى دوامات واسعة
حول جزر (ثول) النائية ، العارية ، الحزينة
وحيث موج المحيط الأطلسى يتدافع
متدفقاً بين جزر (هبريد) العاصفة !

كذلك لم أقو على أن أغفل تصويره تلك الشطآن الصخرية الجرداء فى (لابلاند) و (سيبريا) و (ايسلاند) و (جرينلاند) ، وما يترامى منها فى المنطقة القطبية المتجمدة .. ولا تلك المناطق الشاسعة ، المهجورة ، الموحشة .. مستودعات الصقيع والجليد ، حيث حقول الثلوج الراسخة ، التى تراكمت فى قرون من الشتاء ، تلتمع فى ارتفاعات شاهقة ، طبقات فوق طبقات حول القطب ، وتتركز فيها قساوات البرد القارس المتعددة !.. ومن هذه الممالك التى تبدو فى شحوب الموت ، كونت لنفسى فكرة مبهمة ككل الأفكار نصف المفهومة التى تطفو معتمة فى أذهان الأطفال ، ولكنها تثير العواطف والأحاسيس إلى حد عجيب . فقد كانت الكلمات فى هذه الصفحات الأولى تصور فى جلاء بالغ الصخرة التى شمخت بمفردها عالية فى بحر زاخر بالأمواج والرذاذ ، والقارب المحطم الذى رسا عند شاطئ مقفر ، والقمر البارد الشاحب الأسارير الذى أطل خلال قضبان من السحب على حطام سفينة غرقت

لتوها . ورحت أعيش فى مناظر الكتاب ، فلم أدر أى (شعور) كان يراود صحن الكنيسة وقد غرق فى وحدته بنصبه المنقوش ، وبوابته ، وشجرتيه ، وأفقه الواطىء الخفيض يحده سياج مهدم ، وهلاله الجديد الذى بزغ شاهداً على ساعة الأصيل .. والسفينتان الساكنتان فوق بحر هامد ، ظننتهما شبحين بحريين . أما العفريت الذى كان يدق ظهر لص فى جدار خلفه ، فقد مررت به على عجل ، لأنه بعث فى نفسى الرعب والهلع . وكذلك فعلت بمنظر الشىء الأقرن ، الذى جلس على إحدى الصخور فى ترفع وشموخ ، وهو يشرف على الحشد الذى أحاط على البعد بإحدى المشانق :

كانت كل صورة فى الكتاب تروى قصة كثيراً ما وجدتها غامضة على إدراكى غير الناضج ، ومشاعرى التى لما تكتمل .. ولكنها — مع ذلك — كانت دائماً مشوقة ، وفى طرافة القصص التى كانت (بيسى) ترويها لنا أحياناً فى أمسيات الشتاء ، عندما يصادف أن يكون مزاجها صافياً ، فتجىء بمنضدة الكى إلى غرفة الأطفال ، وتدعونا إلى الجلوس حولها ، ثم تأخذ — وهى تكوى لمسز ريد ملابسها المصنوعة من (الدانتلا) وطاقية نومها — تغذى مسامعنا المرهفة بعبارات عن الحب والمغامرة ، تنتزعها من القصص الخرافية القديمة والروايات الشعرية العتيقة ، أو تستقيها — كما اكتشفت فيما بعد — من صفحات قصص (باميلا) و (هنرى إيرل مورلاند) :

* * *

● وهكذا كنت — وأنا أحمل كتاب (بويك) على ركبتى — سعيدة .. سعيدة على طريقتى الخاصة ، على الأقل . ولم أكن أخشى سوى أن يعكر شيء ما صفو خلوتى ، وهذا ما لم يلبث أن حدث ، فإن باب الحجرة سرعان ما فتح ليجلجل صوت جون ريد :

— أوه .. مدام موب ! (يقصد السخرية من جين) .

ثم توقف عندما وجد الحجرة خالية — كما كانت تبدو — ثم استطرد يتساءل : « ترى أين هى .؟ » .

وصاح ينادى شقيقتيه : « ليزى ! جورجى ! إن جين ليست هنا . أبلغا ماما أنها خرجت فى المطر .. هذه الحيوانة الشقية ! » .

فقلت فى نفسى : « لقد أحسنت إذ أسدلت الستارة » .. وتمنيت فى لهفة ألا يكشف (جون ريد) عن مخبئى ، وما كان ليعثر عليه من تلقاء نفسه ، لأنه لم يكن سريع النظر ولا سريع الإدراك .. ولكن (ليزا) ما لبثت أن أطلت برأسها من الباب وصاحت لفورها :

— إنها على قاعدة النافذة بلا ريب يا جاك (فهكذا كانوا ينادون جون فى البيت !) .

وخرجت فى الحال لأننى كنت أرتعد لمجرد التفكير فى أن يجذبنى جاك هذا . وسألته فى استخذاء وارتباك : « ماذا تريد ؟ » .

فكان جوابه : « قولى : ماذا تريد يا سيد ريد ! .. أريد منك أن تأتى إلى هنا ! » .

ثم جلس فى مقعد ذى مسندين ، وأشار بإيماءة منه أن أقترب وأقف أمامه !

كان (جون ريد) تلميذاً فى الرابعة عشرة من عمره ، أى أنه كان يكبرنى بأربع سنوات ، إذ كنت آنذاك لا أعدو العاشرة . وكان ضخم الجسم ، قوى البناء بما يفوق سنه ، وقد أوتى بشرة معتمة لا تنم عن صحة ، وأسارير غليظة فى وجه عريض ، وأطرافاً ثقيلة ، وطباعاً متطرفة !.. وكان شرهاً بعادته أمام المائدة ، مما جعله صفراوى المزاج وأعتم عينيه ، وغشى بصره ، ورهل خديه . وكان جديراً به أن يكون فى مدرسته فى ذلك الوقت ، ولكن أمه سحبته منها ليقضى فى المنزل شهراً أو اثنين (بسبب صحته المرهفة) ! بينما كان مستر (مايلز) — ناظر المدرسة — يؤكد أن صحة الصبى سوف تتحسن جداً إذا ما قلت كمية الكعك والحلوى التى ترسل إليه من المنزل ! .. بيد أن قلب الأم عاف فكرة بهذه (القسوة !) ، وانحاز إلى الفكرة الأكثر رقة ، وهى أن شحوب (جون) كان بسبب إرهاقه فى العمل ، وربما — أيضاً — بسبب حنينه إلى الوطن !

ولم يكن (جون) يطوى فى أعماقه حباً شديداً لأمه أو شقيقتيه ، بينما كان يكن لى بغضاً وكراهية ، ولذلك كان ينهرنى ويعاقبنى .. لا مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع ، ولا مرة أو اثنين فى اليوم ، وإنما باستمرار وعلى الدوام ! .. ولذلك كان كل عصب من أعصابى يخشاه ويرهبه ، وكانت كل مضغة من لحم على عظامى تنكمش إذا هو اقترب منى !.. وكم من لحظات أذهلنى فيها الرعب الذى كان يبعثه فى نفسى ، فإننى لم أكن لأجد من يدرأ عنى وعيده وأذاه !. إذ أن الخدم لم يشاءوا إغضاب سيدهم الصغير بمظاهرتى ضده ، بينما كانت مسز (ريد)

تدعى العمى والصمم فى هذا الشأن .. فهى لم تره قط يضربنى ، وهى لم تسمعه أبداً يهيننى ، وإن كان يفعل الأمرين فى حضرتها — من آن إلى آخر — ويمعن كل الإمعان فى ذلك من وراء ظهرها !

ولما كنت قد شببت على أن أطيعه ، فقد اقتربت من مقعـده ، فقضى نحو ثلاث دقائق وهو يخرج لى لسانه إلى أقصى ما يستطيع ، حتى أوشك أن ينتزعه من جذوره . وكنت واثقة من أنه لن يلبث أن يضربنى . وفيما كنت أوجس خيفة من الضرب ، رحت أسرح الخاطر فى الصورة الكريهة الدميمة لوجه هذا الذى كان موشكاً أن يضربنى . ويبدو أنه قرأ فى وجهى ما كان يدور برأسى ، لأنه ما لبث — دون أن ينبس بحرف — أن ضربنى على حين غرة ، وبعنف ، فترنحت . ولما استعدت توازنى ، ارتددت إلى الخلف خطوة أو اثنتين بعيداً عن مقعده .. فقال :

— هذا جزاء قحتك فى الرد على ماما منذ قليل ، ولطريقتك فى التسلل خلف الستائر ، وللنظرة التى كانت ترتسم فى عينيك منذ دقيقتين .. أيتها الفأرة !

وكنت قد اعتدت شتائم (جون ريد) ، ولذلك لم يدر ببالى أن أرد عليها ، وإنما كان كل همى منصرفاً إلى تحمل ألم الضربة التى كان من المحتوم أن تعقب السباب . وسألنى : « ماذا كنت تعملين خلف الستارة ؟ »

— كنت أقرأ !

— أرينى الكتاب ..

فاستدرت إلى النافذة ، وجئته بالكتاب من هناك ، فقال : « ليس لك أن تأخذى كتبنا . إنك عالة كما تقول ماما ، وليس لك مال ، لأن والدك لم يترك لك شيئاً . وكان أجدر بك أن تتسولى لا أن تعيشى هنا مع أطفال سادة مثلنا ، وأن تتناولى من الطعام مثل الذى نتناوله ، وأن ترتدى ثياباً على نفقة ماما . والآن .. سوف أعلمك كيف لا تنبشين رفاف كتبى ، فهى ملكى .. بل إن هذا المنزل كله ملك لى ، أو أنه سيكون كذلك بعد سنوات قلائل : هيا اذهبى وقفى بجانب الباب .. بعيداً عن المرآة والنوافذ ! » .

ففعلت ذلك ، دون أن أفطن لأول وهلة إلى ما كان يعتزمه ، ولكننى حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه على أصابعه ، ثم يقف ليهم بأن يطوح به ، وثبت بغريزتى جانباً ، وأنا أصيح فى فزع . ولكنى لم أسرع بقدر كاف ، فاندفع المجلد وأصابنى ، فوقعت ، وارتطم رأسى بالباب فشج . واندفعت الدماء من الجرح ، واستبد بى الألم ، ثم تجاوز ذعرى ذروته ، وتوالت مشاعر أخرى علىّ ، فصحت : « يا لك من صبى شرير قاس .. إنك شبه قاتل .. إنك كتاجر الرقيق .. بل أنت تشبه أباطرة الرومان !! » .

وكنت قد قرأت (تاريخ روما) لجولد سميث ، وكونت لنفسى فكرة عن (نيرون)، و(كاليجولا)، وغيرهما ، واخترت لهم أشباهاً ممن كانوا حولى ، الأمر الذى ما كان ليخطر قط ببالى أن أجهر به . وصاح الصبى :

— ماذا !.. ماذا !.. أقالت ذلك لى أنا ؟ هل سمعتماها يا إليزا وجورجيانا ؟ ألا يجدر أن أبلغ ماما ؟ ولكن يجب أولا ...

وجرى نحوى .. وشعرت به يمسك بشعرى وكتفى ويطبق عليهما فى استماتة . ورأيت فيه شخصاً عاتياً .. قاتلا حقاً . وشعرت بقطرة أو اثنتين من الدم تنحدران من رأسى إلى عنقى، وأحسست بألم حاد . وتغلبت تلك الآلام على خوفى، فواجهته فى ضرب من الخبل والجنون.. ولست أدرى تماماً ماذا صنعت يداى، ولكنه راح يصيح بى: « يا لك من فأرة ! فأرة !.. » ثم مضى يصرخ بأعلى صوته.. وسرعان ما خفت إليه النجدة، إذ جرت (إليزا) و (جورجيانا) إلى مسز (ريد) — التى كانت قد صعدت إلى الطابق العلوى — فإذا بها تفد إلى مكان الواقعة، تتبعها (بيسى) ، والوصيفة (آبوت) .. وفرقن بيننا، ثم سمعت هذه الكلمات : « أعوذ بالله ! أعوذ بالله !.. أى جنون يدفعك إلى مهاجمة السيد (جون) ! » .

— هل رأى أحد مثل هذه الصورة من الهوس ؟ !

وأدلت مسز (ريد) برأيها فى النهاية ، قائلة :

— احملاها إلى الحجرة الحمراء ، وأغلقا عليها الباب بالمفتاح .

وسرعان ما هبطت أربع أيد علىّ ، فحملتنى إلى الطابق العلوى ٥

* * *

الفصل الثانى

● ورحت أقاوم طوال الطريق .. وكان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة لى، كما بدا أن الظرف عزز جداً تلك الفكرة السيئة التى كانت (بيسى) و (مس آبوت) تميلان إلى اعتقادها فىّ . والواقع أننى خرجت قليلا عن طورى ، أو بالأحرى أفلت منى الزمام . وأدركت أن عصيانى الذى لم يدم أكثر من لحظة واحدة، قد عرضنى لعقوبات عجيبة . وكأى عبد ثائر، عزمت فى يأسى على المضى إلى آخر الشوط . وقالت (بيسى) :

— أمسكى ذراعيها يا (مس آبوت) لأنها أشبه بقطة مجنونة !

فصاحت وصيفة السيدة : « يا للخزى ! يا للعار ! يا له من سلوك مذهل يا مس (إير) .. أن تضربى سيداً صغيراً .. ابن ولية نعمتك، وسيدك الصغير ! » .

— سيدى ؟! كيف يكون سيدى ؟ هل أنا خادم ؟

— كلا .. إنك أقل من خادم ، لأنك لا تعملين شيئاً مقابل إيوائك . هيا اجلسى وفكرى فى ذنبك !

وكانتا قد وصلتا بى عندئذ إلى الغرفة التى اختارتها لى مسز (ريد) ثم دفعتا بى إلى مقعد — بلا مسند أو ظهر — ودار بخلدى أن أثب عن ذلك المقعد كالزنبرك ، ولكن سرعان ما قبضت على يداهما . وقالت (بيسى) :

— إذا لم تجلسى هادئة ساكنة أوثقناك !.. أعيرينى رباط ساقك يا مس (آبوت) لأنها تستطيع أن تقطع رباطى على الفور !

فاستدارت (مس آبوت) لتمد ساقاً قوية تحمل الرباط اللازم . ولكن هذا الإعداد للقيود ، وما كان يعنيه من إذلال جديد ، بددا شيئاً من ثورتى ، فصحت : « لا تخلعيه .. لن أتحرك من مكانى » .. وتأكيداً لذلك تشبثت بكلتا يدى بالمقعد ، فقالت (بيسى) : « حذارى أن تفعلى ! » .

ولما استوثقت من استسلامى أرخت قبضتيهما ، ثم نهضت هى و (مس آبوت) ، وقد عقدت كل منهما ذراعيها ، وأخذتا تتأملان وجهى فى تجهم وشك ، وكأنهما لم تكونا تطمئنان إلى سلامة عقلى !.. وأخيراً ، التفتت (بيسى) إلى (الجارية !) الأخرى وقالت : « إنها لم تفعل هذا من قبل ! » .

فكان الجواب : « ولكن هذا الطبع فيها دائماً ، ولقد طالما أفضيت لسيدتى برأيى فى هذه الطفلة ، فكانت تقرنى عليه .. يا لها من مخلوقة صغيرة ماكرة !.. إننى لم أر أبداً فتاة فى سنها تخفى وراء ظهرها مثل هذا الخبث ! » .

فلم ترد عليها (بيسى) ، ولكنها ما لبثت أن خاطبتنى قائلة : « ينبغى أن تعلمى يا آنسة أنك مدينة لمسز (ريد) بكثير من الالتزامات فهى التى تؤويك ، ولو أنها طردتك لاضطررت إلى الذهاب إلى الملجأ ! » .

ولم يكن لدى ما أقوله رداً على هذه الكلمات ، فهى لم تكن جديدة على ، بل إن ذكريات وجودى الأولى كانت تحوى تلميحات من هذا القبيل ، حتى بات تعبيرى بأننى عالة ، أشبه فى أذنى بنغمة غامضة ،

غاية فى الإيلام والإذلال ، وإن لم أكن أفقه كل ما تعنيه . وقالت (مس آبوت) بدورها : « ويجدر بك ألا تحسبى نفسك نداً للآنستين وللسيد (ريد) لمجرد أن تعطفت والدتهم بتنشئتك معهم .. لسوف يصيبون ثروة كبيرة ، أما أنت فلن ينالك شىء ، ولذلك فبقاؤك هنا رهن بأن تتواضعى وأن تحاولى استمالة قلوبهم » .

وأضافت (بيسى) فى صوت خال من الغلظة والعنف : « إنما نقول هذا لصالحك ، فيجدر بك أن تحاولى أن تكونى نافعة ولطيفة ، إذ تجدين لك بهذا مأوى هنا . أما إذا صرت حادة الطبع فظة الخلق ، فإن السيدة ستطردك ، على ما أعتقد ! » .

وقالت (مس آبوت) : «ولسوف يعاقبها الله كذلك .. إنها قد تقع ميتة فى إبان ثورتها وهياجها ، فإلى أين تذهب بعد ذلك ؟ (إلى جهنم !). تعالى يا (بيسى)، ولنتركها ، فلست أرجو أن أزلزل قلبها .. ألا صلى يا مس (إير) إذا ما خلوت إلى نفسك، لأنك إن لم تندمى فقد يهبط إليك شر من المدخنة، ويحملك بعيداً عن هنا ! » .. ثم ذهبتا بعد أن أغلقتا الباب خلفهما بالمفتاح .

* * *

● كانت الغرفة الحمراء حجرة فائضة ، مهملة ، يندر جداً أن ينام فيها أحد ، بل إن فى وسعى أن أقول إن أحداً لم يكن ينام فيها إلا إذا تصادف أن غص قصر (جيتسهيد هول) بالزوار ، وأصبح لزاماً أن يستعملوا كل ما كان فيه من غرف ، برغم أنها كانت من أكبر وأفخم غرفات القصر . وكان بها سرير مقام على أعمدة ضخمة من خشب

(المهوجنى)، وقد أسدلت عليه ستائر من الدمقس الأحمر الغامق، فبدا أشبه بخيمة وسط الغرفة ، بينما كانت النافذتان الكبيرتان ــ بمصاريعهما المغلقة دائماً ــ تكادان تتواريان فى أطواء ستائر من نفس القماش ، كما كان البساط أحمر اللون ، والمنضدة القائمة بجوار السرير مغطاة بغطاء قرمزى . وكانت الجدران ذات لون مائل للاصفرار تمازجه مسحة خفيفة من حمرة ، فى حين كان صوان الملابس ومنضدة الزينة والمقاعد من (المهوجنى) القديم ، الداكن الطلاء .. ولم يخل من هذه الظلال القاتمة الغالبة على الحجرة ، سوى ما ارتفع والتمع بياضه من حشيات ووسائد على السرير ، يعلوها لحاف ناصع كالثلج من طراز (مارسيليا) . وكان ثمة مقعد لا يقل عن هذه الأشياء ظهوراً وسط الظلال القاتمة .. كان مقعداً وثيراً ، على مقربة من رأس السرير ــ أبيض اللون كذلك ــ يقبع أمامه مقعد صغير للقدمين ، ويبدو فى نظرى أشبه بعرش باهت اللون !

وكانت هذه الغرفة باردة ، إذ قلما كانت توقد فيها نار ، كما أنها كانت ساكنة ــ لبعدها عن غرفة الأطفال والمطابخ ــ مهيبة ، لما كان معروفاً من أنها قلما وطأتها قدم أو دخلها إنسان ، اللهم إلا الخادم التى كانت تلجأ إليها فى يوم السبت من كل أسبوع ، لتنفض عن المرايا والأثاث الغبار الذى تراكم خلال الأسبوع . وفى فترات متباعدة ، كانت مسز (ريد) تزور هذه الغرفة لتتفقد محتويات درج خاص فى صوان الملابس ، أودعت فيه أوراقاً مختلفة وصندوق حليها وصورة مصغرة لزوجها الراحل . وفى هذه الكلمات الأخيرة يكمن سر الغرفة

الحمراء .. السر الذى جعلها مهجورة برغم عظمتها وفخامتها !.. فلقد توفى (مستر ريد) منذ تسع سنوات .. وفى هذه الغرفة بالذات لفظ آخر أنفاسه .. هنا رقد فى جلال ومهابة ، وهنا وضع تابوته رجال (الحانوتى) .. ومنذ ذلك اليوم لف الغرفة جو من رهبة قدسية ، صانها من الأقدام !

وكان مقعدى ــ الذى سمرتنى فيه (بيسى) ومس (آبوت) القاسية ــ عبارة عن كرسى خفيض بالقرب من الموقد المصنوع من الرخام : وكان السرير ينتصب أمامى . وإلى يمينى كان صوان الملابس العالى الداكن اللون بأضوائه المنعكسة المتكسرة التى تتباين باختلاف اللمعان المنبعث من ألواحه .. وإلى يسارى كانت النافذتان بستائرهما المسدولة ، وبينهما مرآة كبيرة تعكس منظر السرير الفخم والحجرة الكبيرة . ولما كنت غير واثقة من أنهما ــ أى الوصيفتين ــ قد أغلقتا الباب بالمفتاح ، فإننى لم أكد أجرؤ على الحراك ، حتى نهضت أتفقد الباب : وشد ما كان أسفى حين وجدته موصداً بالمفتاح فعلا !.. لم يكن ثمة سجن يفوق ذلك استحكاماً . وكان لابد لى أن أمر ــ فى عودتى ــ أمام المرآة ، فإذا نظراتى الحائرة تتفقد ، على الرغم منى ، ما كان ينعكس عليها .. كان كل شىء يبدو فى الصورة المنعكسة ، الجوفاء ، أشد برودة وحلكة مما كان فى الواقع ! .. وكان للشكل الصغير ، الغريب ، الذى راح يحملق فى وجه شاحب ، يعلو ذراعين يومض بياضهما خلال الظلال ، وبعينين تشعان خوفاً ، وتتحركان ، فى حين كان كل ما حولها ساكناً .. كان لذلك الشكل منظر شبح حقيقى ، كذلك

الأشباح الصغيرة ، نصف الجنيات ، التى كانت (بيسى) تروى لى – فى قصص المساء – كيف كانت تخرج وتنبعث من البطاح المنعزلة المعشوشبة ، لتظهر أمام أعين المسافرين الذين تخلفوا عن الركب !.. وعدت إلى مقعدى ، وفى رفقتى الخرافات .. ولكن ساعة انتصارها الكامل علىّ لم تكن قد حانت بعد ، لأن دمى كان لايزال حاراً ، وكانت ثورة الأسيرة الثائرة على أشدها !.. وكان علىّ أن أواجه تدفق الأفكار المتصلة بالماضى قبل أن تخور عزيمتى أمام الحاضر المظلم ، ومن ثم عادت إلى عقلى المضطرب كل ألوان الظلم القاسى التى عانيتها من (جون ريد) ، وكبرياء شقيقتيه ، وكراهية والدته .. عادت أشبه برواسب حالكة فى بئر عكرة موحلة . وتساءلت : لماذا كنت معذبة على الدوام ، مستضعفة على الدوام ، متهمة باستمرار ، مذنبة إلى الأبد ؟ .. لماذا لا أقوى على إرضاء أحد ؟ .. لماذا لم تكن محاولاتى مجدية فى استمالة أحد ؟ .. إن (إليزا) ، العنيدة الأنانية ، محترمة .. و (جورجيانا) ، بطبعها الفاسد ، وحقدها اللاذع ، وسلوكها المتحامل الوقح ، تلقى استحساناً عاماً ! وكأنما كان جمالها ووجنتاها الحمراوان وجدائلها الذهبية ، متعة لبصر كل من يتطلع إليها ، وتعويضاً عن كل عيوبها ! .. و (جون) ، لم يكن ثمة من يعارضه ، وقل أن عوقب ، مع أنه كان يلوى أعناق الحمام ، ويتلف نبات الحمص الصغير ، ويحرض الكلاب على الغنم ، ويجرد الكروم من ثمارها ، ويحطم براعم خير النباتات فى البيوت الزجاجية بالحديقة ، ويدعو أمه بالفتاة العجوز ، كما كان يعيرها أحياناً ببشرتها السمراء الشبيهة ببشرته ! .. كذلك كان

شديد الاستخفاف برغباتها ، وكثيراً ما مزق أو أتلف لها ثوبها الحريرى . ومع ذلك ، فقد ظل (عزيزها الغالى) !.. أما أنا فكنت لا أقترف خطأ ، وأحاول أن أؤدى كل واجب علىّ ، ومع ذلك فقد كانوا ينعتوننى بالشقية ، المضجرة ، المشئومة ، الماكرة .. من الصباح إلى الظهر ومن الظهر حتى الليل !

وكان رأسى لايزال يوجعنى ويدمى بسبب الضربة ، وللسقطة التى نالتنى ، دون أن يوجه أحد منهم أى لوم إلى (جون) على أن ضربنى بتهور ونزق . أما أنا فقد انهالوا على تعييراً وتأنيباً لمجرد أننى انقلبت عليه لأتقى مضيه فى قسوته الهوجاء ..

وحدثتنى نفسى ، وقد ألهمها الألم المبرح قوة سابقة لأوانها – وإن كانت طارئة ، عابرة – بأن أصيح : «هذا ظلم ! هذا ظلم ! » . وحفزتنى العزيمة التى ساورتنى كذلك ، إلى أن أبحث عن ذريعة عجيبة للتخلص من الاضطهاد الذى لا يحتمل .. إلى الهرب ، أو – إذا لم يتسن لى ذلك – إلى الامتناع عن الأكل والشرب حتى يدركنى الموت !

أى رعب شملنى فى عصر ذلك اليوم الموحش ؟ ! .. وأى لجب اصطخب فى رأسى ؟ .. وأى تمرد غشى قلبى ؟ .. ومع ذلك فأية ظلمة ، وأية جهالة ضارية شب فيها أوار تلك المعركة التى دارت فى رأسى ! .. ولم أستطع الاهتداء إلى جواب عن السؤال الذى ما فتئت أردده : « لماذا أتعذب هكذا ؟ » .. أما الآن – ولن أقول بعد كم سنة تقضت – فإننى أرى الرد واضحاً كل الوضوح :

كنت فى قصر (جيتسهيد) نشازاً ، لا أشبه أحداً ممن كانوا هناك ..

فلم يكن ثمة انسجام بيني وبين مسز (ريد) وأطفالها وأتباعها المختارين !.. وإذا كانوا لم يحبونى ، فما كان أقل حبى لهم ، فى الواقع ! .. ولم يكن لزاماً عليهم أن ينظروا بعين الحب إلى مخلوقة لا تستطيع أن تأتلف مع واحد منهم .. مخلوقة لم تكن تتجانس معهم ، وإنما كانت تغايرهم فى المزاج ، والكفاية ، والنزعة .. مخلوقة تافهة لم تكن تقوى على خدمة مصالحهم ومضاعفة غبطتهم .. مخلوقة مؤذية ، تنمى فى نفسها جذور الحنق على معاملتهم ، وتتعهد فيها جراثيم السخط على أحكامهم ! وكنت أدرك أننى لو كنت طفلة دموية المزاج ، متوقدة الذكاء ، عديمة الاكتراث ، ظالمة ، جميلة ، مرحة ، نزقة ، لاحتملت مسز ريد وجودى بمزيد من الرضى ، ولبادلنى أطفالها مزيداً من الإحساس القلبي بالزمالة ، ولخف ميل الخدم إلى جعلى كبش الفداء فى غرفة الأطفال .. مهما أكن عالة ، عديمة النصير !

* * *

● أخذ ضوء النهار يغادر الغرفة الحمراء ، إذ ناهزت الساعة الرابعة ، وانحدر العصر الغائم نحو الغسق ، وسمعت المطر وهو ما يزال يصفع زجاج النوافذ بلا انقطاع . كما سمعت الرياح وهى تعوى فى الغابة الصغيرة التى تقع خلف القصر . وأخذت البرودة تشل حركاتى تدريجاً ، وإذ ذاك غاضت شجاعتى وعاودنى إحساسى العادى بالهوان وعدم الثقة بالنفس والانقباض اليائس ، فكان أشبه بقطرات باردة تهبط على جمرات حقدى الذاهب ! لقد أجمعوا على أننى شريرة .. ولعلنى كنت كذلك .. وإلا فكيف لم أعد أشغل إلا بتصور أن أقضى على نفسى جوعاً ؟ !

كان ذلك جريمة بلا ريب .. ولكن ، هل كنت أهلا للموت ؟ أو هل كان القبو — تحت محراب الكنيسة — هدفاً يغرى بذلك ؟. لقد علمت أن مستر (ريد) كان مدفوناً فى ذلك القبو ، فقادنى التفكير إلى استعادة ذكراه . وتعمقت فى ذلك التفكير فى هلع متزايد متضاعف.. ولم أكن أقوى على تذكره جيداً ، ولكنى كنت أعلم أنه خالى .. شقيق أمى .. وأنه أخذنى وأنا طفلة يتيمة الوالدين إلى منزله ، وأنه — فى لحظاته الأخيرة — انتزع من مسز (ريد) وعداً بأن تربينى وتعولنى كواحدة من أطفالها . ولعل مسز (ريد) كانت تحسب أنها برت بوعدها !.. فقد فعلت ذلك ، على ما بدا لى ، بقدر ما كانت تسمح به طبيعتها، إذ كيف لها — فى الحقيقة — أن تحب فتاة متطفلة ليست من دمها ، ولا تربطها بها صلة بعد أن توفى زوجها ؟!.. لاريب فى أنه كان عملا جد شاق أن تجد نفسها مرتبطة برغمها بوعد قطعته على نفسها ، بأن تقوم مقام الأم نحو طفلة غريبة لاتقوى على أن تحبها، وأن ترى فتاة غريبة ليست من دمها ، تقحم نفسها دائماً على أفراد أسرتها !

وومضت فى خاطرى فكرة عجيبة .. إنى لا أشك — بل ما شككت إطلاقاً — فى أنه لو بقى مستر (ريد) على قيد الحياة ، لكان قد عاملنى برفق . وفيما كنت أجلس وأتطلع إلى الفراش الأبيض، وإلى الجدران الظليلة ، وعيناى الحائرتان تنحدران أحياناً نحو المرآة المعتمة البريق ، أخذت أتذكر ما سمعته عن الموتى عندما يضايقهم فى قبورهم أن تنتهك رغباتهم الأخيرة ، فيعاودون زيارة الأرض لينزلوا العقاب بالحانثين وينتقموا للمضطهدين ! .. وخيل لى أن روح مستر (ريد) — وقد

أزعجتها المظالم التى هبطت على رأس ابنة شقيقته ـ قد تترك مثواها، سواء فى قبو الكنيسة أو فى عالم الراحلين المجهول، وتقف أمامى فى هذه الحجرة ، فقمعت دموعى ، وكفكفت نشيجى ، خشية أن يوقظ أى مظهر للحزن العاصف صوتاً قد ينساب من وراء الطبيعة ليسرى عنى ، وخوفاً من أن يبزغ من الظلام وجه منير يحنو علىّ فى إشفاق غريب !.. وشعرت بأن هذه الفكرة تغدو مخيفة ، مروعة ، إذا ما تحققت، برغم ما كان فيها من عزاء وسلوى من الناحية النظرية !. لذلك حاولت بكل قواى أن أخنقها وأن أخمدها ، كما حاولت أن أكون ثابتة الجنان ، قوية العزم ، فدفعت شعرى عن عينى ، ورفعت رأسى ، ثم حاولت أن أتطلع بجرأة إلى ما حولى فى أنحاء الغرفة المظلمة . وفى هذه اللحظة، برق ضوء على الجدار، فتساءلت : أهى أشعة من القمر تسللت من فتحة فى مصراع النافذة ؟ .. كلا فإن ضياء القمر ساكن ، وهذا ضوء يتحرك !.. وفيما كنت أحملق ، تسلل الضوء إلى السقف ، واهتز فوق رأسى . وبوسعى أن أحدس الآن أن ذلك الخيط من الضوء كان ـ فى الغالب ـ نوراً صادراً من مصباح يحمله شخص عبر الحديقة، ولكننى ـ فى ذلك الوقت ، وأفكارى مهيأة للرعب والفزع ، وأعصابى تهتز بالانفعال والاضطراب ـ خلت أن الشعاع المارق بسرعة ، إنما كان نذيراً برؤيا قادمة من عالم آخر ، فدق قلبى بعنف ، والتهب رأسى ، وامتلأت أذناى بصوت حسبته اندفاع أجنحة ، وخيل إلىّ أن شيئاً تجلى على مقربة منى ، فضاق صدرى ، واختنقت أنفاسى ، وخارت قواى ، فبادرت إلى الباب ورحت أهز القفل فى يأس واستماتة . وارتفع

وقع أقدام فى الممر الخارجى ، ثم دار المفتاح فى الباب لتدخل (بيسى) و (آبوت) ... وقالت (بيسى): « مس إير .. هل أنت مريضة ؟ » . وصاحت (آبوت) : « يالها من ضوضاء مروعة !.. لقد هزت كل كيانى ! » .

وارتفع صياحى : « أخرجينى !.. دعينى أذهب إلى غرفة الأطفال ! » .. فعادت (بيسى) تسألنى : « لماذا ؟ هل أصابك أذى ؟ هل رأيت شيئاً ؟ » .

فتشبثت بيد (بيسى) دون أن تحاول أن تنتزعها منى ، ثم صحت : « أواه !.. لقد شاهدت ضوءاً ، وظننت شبحاً يوشك على الظهور ! » .

فقالت (آبوت) فى شىء من الاشمئزاز : « لقد صرخت متعمدة .. ويالها من صرخة ! .. ولو أنها كانت تعانى ألماً شديداً لالتمسنا لها العذر ، ولكنها أرادت فقط أن تأتى بنا جميعاً إلى هنا ، إننى أعرف حيلها الخبيثة ! » .

وانبعث صوت يسأل فى حزم : « ما هذا كله ؟ » .. ثم ظهرت مسز (ريد) فى الردهة ، وقد أخذت حواف قبعتها ترفرف حول رأسها وأخذت منامتها تبعث حفيفاً شديداً . واسترسلت قائلة : « لقد أصدرت لكما أوامرى بأن تتركا (جين إير) فى الغرفة الحمراء إلى أن أحضر إليها بنفسى ! » . فقالت بيسى ضارعة : « لقد صرخت مس جين صرخة مدوية ياسيدتى !».. فكان الرد الوحيد : « أطلقيها .. اتركى يدى بيسى يا طفلة ، وثقى من أنك لن توفقى إلى الخروج بهذه الوسائل . إننى أمقت الخداع وخاصة فى الأطفال ، ومن واجبى أن أريك أن الحيل لا تجدى ..

لسوف تمكثين هنا ساعة أخرى، ولن أطلق سراحك بعدها، إلا إذا أذعنت تماماً، وأخلدت إلى السكون ! » .

ــ أوه يا خالتي .. ترفقي بي ! اغفري لي ! لست أقوى على احتمال ذلك .. دعيني أعاقب بطريقة أخرى، فلسوف أموت إذا ..

ــ الزمي السكون ! إن العنف أدعى لإثارة الاشمئزاز !

ولا ريب أنها أحست بالاشمئزاز، لأنني كنت في نظرها ممثلة نابغة بارعة بالنسبة لسني .. بل لقد كانت ترى فيَّ مزيجاً من الأهواء الوبيلة، والروح الوضيعة، والرياء الخطر !.

وبعد أن انسحبت (بيسي) و (آبوت)، كان صبر مسز (ريد) قد عيل، وضاق صدرها بآلامي الملتاثة، وزفراتي الهائجة، فدفعتني بفظاظة إلى الخلف، ثم أغلقت الباب عليَّ بالمفتاح، دون أن تنبس بحرف. وما أن سمعتها تبتعد حتى انتابتني ــ على ما أعتقد ــ نوبة من النوبات، ثم أسدل الإغماء الستار على ذلك المنظر !

* * *

الفصل الثالث

● أذكر بعد ذلك أنني أفقت وأنا أحس كأنني كنت في كابوس مخيف .. وكنت أرى أمامي بريقاً أحمر رهيباً، تقطعه قضبان كثيفة سوداء. وسمعت كذلك أصواتاً جوفاء تتحدث وكأنما يخنقها اصطخاب رياح أو مياه. وبلبل حواسي الانفعال والشك، والشعور الجارف بالرعب والفزع. وقبل أن تنقضي فترة طويلة، انتبهت إلى أن أحداً يتناولني باهتمامه، فيرفعني ثم يجلسني برفق لم أعهده من قبل، فاعتمدت برأسي على وسادة أو ذراع ما، واستشعرت الراحة. وبعد خمس دقائق انقشعت سحب الحيرة، وعرفت جيداً أنني في فراشي، وأن البريق الأحمر كان نيران المدفأة في غرفة الأطفال. وكان الوقت ليلا : شمعة تشتعل على المنضدة، و (بيسي) واقفة عند مؤخر السرير وفي يدها حوض، وسيد يجلس على مقعد بالقرب من وسادتي وقد انحنى فوقي ..

وشعرت براحة لاتوصف، وبإحساس لطيف بالحماية والأمان، عندما أدركت أن بالحجرة غريباً .. شخصاً لايمت إلى القصر بصلة، ولا يتصل بمسز (ريد) بقرابة ما . وحولت نظري عن (بيسي) ــ ولو أن وجودها كان عندي أقل إثارة للكراهية مما لو كانت (آبوت) هي الموجودة ــ ورحت أتفحص وجه ذلك السيد حتى عرفته، فإذا هو مستر (لويد) .. الصيدلي الذي كان يستدعى أحياناً عندما يمرض الخدم .. أما لنفسها ولأطفالها، فقد كانت السيدة تلجأ إلى طبيب ! وسألني : « والآن .. من أنا ؟ » .



أذكر بعد ذلك أننى أفقت وأنا أحس كأننى كنت فى كابوس مخيف

فنطقت باسمه وأنا أمد له يدى فى الوقت نفسه ، فتناولها وهو يبتسم ويقول : « سوف تتحسنين جداً ، عما قريب » .. ثم أرقدنى وخاطب (بيسى) ليكلفها أن توليني من الرعاية الشديدة ما يحول دون إزعاجى فى الليل . وبعد أن أصدر بعض تعليمات أخرى ، وعد بأن يعود مرة ثانية فى اليوم التالى ، ثم غادرنى وقد برح بى حزنى ، إذ كنت أشعر بأننى أنعم بالحماية والصداقة مادام هو جالساً فى المقعد بجانب وسادتى . فلما أغلق الباب خلفه أظلمت الحجرة كلها ، وعاد قلبى يغوص من جديد ، لأن حزناً لايوصف قد أثقله .

وسألتنى بيسى بصوت أرق مما اعتدت منها : « أتشعرين برغبة فى النوم يا آنسة ؟ » .. وكدت لا أجرؤ على الرد عليها ، لأننى خفت أن تكون الجملة الثانية جافة ، فغمغمت قائلة : « سأحاول ! » .

— أترغبين فى أن تشربى أو تأكلى شيئاً ؟

— كلا .. أشكرك يا بيسى .

— إذن ، لأذهب إلى فراشى ، فإن الساعة قد جاوزت الثانية عشرة : ولكن فى وسعك أن تناديني إذا احتجت إلى شىء أثناء الليل .

يالها من دماثة عجيبة ! .. وشجعنى ذلك على أن ألقى إليها سؤالا ، فقلت : « بيسى .. ماذا جرى لى ؟ هل أنا مريضة ؟ » .

— أظنك قد مرضت فى الحجرة الحمراء بسبب بكائك ، ولكنك سوف تتحسنين حالا بلا ريب .

ثم مضت بيسى إلى حجرة الخادم المشرفة على شئون البيت .

وكانت على مقربة ، ولذلك سمعتها تقول : « تعالى ياسارة ونامى معى فى حجرة الأطفال ، فإننى لا أجرؤ على أن أنفرد الليلة مع تلك الطفلة التعسة ، إذ قد تموت ! .. من العجيب أن تصيبها تلك النوبة .. ترى هل شاهدت شيئاً ؟ ! .. لقد كانت سيدتنا غاية فى الفظاظة معها ! » :

وعادت (سارة) معها ، فاندست الاثنتان فى الفراش ، حيث أخذتا تتهامسان لنصف ساعة ، قبل أن تستغرقا فى النوم . واستطعت أن ألتقط نتفاً من حديثهما ، أمكننى أن أستدل منها — بكثير من العناء — على الموضوع الأصلى للمناقشة كقولهما :

— مر بها شىء يرتدى بياضاً فى بياض ، ثم اختفى ؟

— كان خلفه كلب ضخم أسود ..

— ثلاث طرقات عالية على باب الغرفة ..

— ضوء فى فناء الكنيسة فوق قبره مباشرة !

وأخيراً ، نامت الاثنتان .. وانطفأت النار والشمعة . أما أنا ، فإن ساعات تلك الليلة الطويلة قد تقضت وأنا فى يقظة مروعة ، إذ توترت منى الأذن والعين والعقل معاً ، بخوف لا يمكن أن يشعر بمثله سوى الأطفال !

* * *

● ولم يتبع حادث الحجرة الحمراء هذا أى مرض جثمانى شديد أو طويل ، ولكن الحادث أصاب أعصابى بصدمة مازلت أشعر برد فعلها حتى اليوم .. نعم يامسز (ريد) ، إننى مدينة لك ببعض الآلام

العقلية المروعة التى تعترينى ، ولكنى خليقة بأن أصفح عنك ، لأنك لم تكونى تدرين ما تعملين : فبينما كنت تمزقين نياط قلبى ، كنت تحسين أنك إنما تستلين منى نزعاتى الشريرة !

وغادرت فراشى — حوالى ظهر اليوم التالى — فجلست متلفعة بشال ، على مقربة من المدفأة فى حجرة الأطفال . وكنت أشعر بضعف وهزال فى بنيانى ، ولكن أسوأ ما كنت أعانيه تمثل فى شقاء نفسى يفوق الوصف .. شقاء ظل يستنزف منى الدموع فى صمت ، فكنت لا أكاد أمسح دمعة عن خدى ، حتى تسقط أخرى . ومع ذلك فقد خلت أنه يجدر بى أن أكون سعيدة لأن أحداً من آل (ريد) لم يكن موجوداً ، إذ خرجوا جميعاً فى عربة أمهم . وكذلك كانت آبوت تخيط فى حجرة أخرى ، بينما كانت بيسى — وهى تنتقل هنا وهناك لترتب اللعب أو تنظم الأدراج — تخاطبنى ، وهى تطوى حديثها على كلمة رقيقة بين آن وآخر . وكانت تلك حال جديرة بأن تبدو لى بمثابة جنة من النعيم والسلام ، بعد أن اعتدت حياة التقريع الدائب ، وحياة السخرة دون شكر أو ثناء ، بيد أن أعصابى كانت إذ ذاك قد بلغت — فى الواقع — حالا لا تجدى فى تهدئتها طمأنينة أو غبطة !

وكانت بيسى قد هبطت إلى المطبخ ، فجاءتنى بكعكة فى طبق لامع من الخزف رسم عليه عصفور من عصافير الجنة يعشش فى إكليل من النباتات الملتفة وأزرار الورد . ولقد طالما أثار هذا الرسم فى نفسى شعوراً بالإعجاب ، فكنت أتوسل كى يسمح لى بأن أمسك بهذا الطبق فى يدى لأتأمله من قرب ، ولكنى كنت فى نظرهم غير أهل لمثل هذا

الامتياز .. أما الآن ، فهاهو ذا الإناء الثمين قد وضع على ركبتى ، وقد دعيت فى إلحاح إلى أن آكل هذه الحلقة الصغيرة من الحلوى التى كانت فيه .. فياله من فضل لايجدى ، إذ جاء متأخراً ، كمعظم الأفضال التى يطول حبسها برغم اشتداد اللهفة عليها ! .. ولم أقو على أكل الكعكة ، لأن ريش العصفور وألوان الزهور الزاهية ما لبثت أن تبدت لعينى شاحبة بصورة عجيبة ! .. لذلك وضعت كلا من الطبق والكعكة جانباً ، فسألتنى بيسى عما إذا كانت تأتينى بكتاب . وإذا بكلمة (كتاب) تفعل فى نفسى فعل المنبه العابر ، فتجعلنى أتوسل إلى (بيسى) أن تجيئنى بكتاب (رحلات جليفر) من المكتبة .. ولقد طالما تصفحت هذا الكتاب مرات ومرات ، لأننى كنت أعتبره قصة تقوم على حقائق ، وكنت أكتشف فيه مورداً للمتعة أعمق مما فى القصص الخرافية . . حتى لقد رحت أبحث عبثاً عن (الجنيات) — التى ورد ذكرها فيه — بين أوراق نبات (كف الثعالب) ، وتحت أعشاش الغراب ، وفى أركان الجدران القديمة التى تكسوها النباتات الزاحفة المتسلقة . فلما لم أجدها — فى النهاية — اهتديت إلى الواقع الأليم كما بدا لى وهو أنها قد رحلت كلها عن إنجلترا إلى بلد ما موحش ، حيث الغابات أكثر اتساعاً وكثافة ، وحيث السكان أقل عدداً . أما عن (ليليبوت) و (برويد نجناج) — المملكتين اللتين وردتا فى أقاصيص (جليفر) — فقد اعتقدت أنهما قائمتان فعلا على سطح الأرض ، ولم يساورنى شك فى أننى سأحظى يوماً ، خلال رحلة طويلة ، بأن أرى مملكة تضم حقولا ومنازل وأشجاراً صغيرة ، وأناساً وأبقاراً وأغناماً وطيوراً ضئيلة الحجم .. وبأن أشهد مملكة أخرى تحوى

حقولا فى ارتفاع الغابات ، وقططاً عملاقة ، ورجالا ونساء يشبهون الأبراج .. ومع ذلك فإننى وجدت الآن وقد وضع هذا الكتاب المعزز بين يدى ورحت أقلب صفحاته وأبحث فى صوره الرائعة عن السحر الذى لم يفتنى قط — حتى ذلك الوقت — أن أهتدى إليه .. وجدت أن كل هذا لا يثير فى نفسى سوى الفزع والاكتئاب : كانت العمالقة مجرد (جنيات) هزيلة ، والأقزام (عفاريت) صغيرة حقودة ، و (جليفر) جوالا يهيم على وجهه فى مناطق محفوفة بالهلاك .. لذلك أغلقت الكتاب الذى لم أجرؤ على أن أتصفحه بعد ذلك ، ثم وضعته على المنضدة بجانب الكعكة التى لم أذقها . وكانت بيسى قد فرغت لتوها من تنفيض الحجرة وتنظيفها ، ثم غسلت يديها ، ففتحت درجاً صغيراً مليئاً بقطع من الحرير والأطلس ، وبدأت تصنع قبعة صغيرة لدمية (جورجيانا) وهى تغنى فى نفس الوقت .. وكان مطلع أغنيتها :

« فى الأيام التى كنا فيها نحيا حياة الغجر منذ زمن بعيد ... » .

لكم سمعت هذه الأغنية من قبل فطربت لها ، إذ كانت بيسى رخيمة الصوت ، أو هكذا كان يخيل لى . غير أننى — فى هذه المرة — لمست فى اللحن حزناً لا يوصف ، برغم أن الصوت ظل رخيماً !.. وكان العمل يشغلها أحياناً ، فتبطىء وهى تردد مقطع الأغنية ، حتى لتبدو عبارة (منذ زمن بعيد) ، أشبه بترنيمة جنائزية ! .. على أنها ما لبثت أن انتقلت إلى قصة غنائية .. وكان الغناء فى هذه المرة محزناً حقاً :

« تقرحت قدماى وكلت ساقاى
والطريق طويل ، والجبال موحشة
وسرعان ما يطبق الغسق مظلماً كئيباً
على طريق الطفل اليتيم المسكين !
... ...

« لماذا يقصوننى بعيدة هكذا ، ووحيدة هكذا
إلى حيث تمتد المستنقعات وتتكدس الصخور الكالحة !
لقد تحجرت قلوب البشر ، ولكن الملائكة الرحيمة وحدها
ترعى خطوات الطفل اليتيم المسكين !
... ...

« ومع ذلك ، فإن نسيم الليل يهب رقيقاً ، على البعد
وقد تقشعت السحب والتمعت النجوم المشرقة ..
والله — برحمته — قد تجلت رعايته
فبث الطمأنينة والأمل فى نفس الطفل اليتيم المسكين !
... ...

« مهما تتعثر قدماى أثناء عبورى الجسر المحطم
أو يضلنى فى البطاح ضياء زائف خداع
فإن إلهى .. برعايته وبركته
سيضم إلى أحضانه الطفل اليتيم المسكن !
... ...

« وثمة إيمان يمدنى بالقوة :
لو أننى حرمت كلا من المأوى والأقرباء
فالسماء منزل ، وفيها لن أعدم الراحة
لأن الله نصير الطفل اليتيم المسكين ! »

* * *

● وقالت بيسى بعد أن فرغت من الغناء : « كفى يامس جين ، لا تبكى ! » .. وما كان أشبهها بمن تقول للنار « لا تشتعلى » ! ..

ولكن أنى لها أن تتكهن بالعذاب الوبيل الذى كان يفترسنى ؟

وأقبل مستر (لويد) فى الضحى يعودنى ، فهتف وهو يلج غرفة الأطفال : « ماذا ؟ .. أهى مستيقظة ؟ .. كيف حالها أيتها المربية ؟ » .. فأجابته بيسى بأننى تحسنت جداً .

— إذن ، فجدير بها أن تبدو أكثر ابتهاجاً . تعالى هنا يامس جين .. إن اسمك جين .. أليس كذلك ؟

— بلى ياسيدى .. جين إير .

— حسناً . لقد كنت تبكين يامس جين إير .. فهل لك أن تخبرينى بالسبب ؟ أتتألمين من شىء ؟

— كلا ياسيدى !

فتدخلت بيسى قائلة : « أوه .. أظنها تبكى لأنها لم تستطع الخروج مع السيدة .. فى العربة » .

— ليس لهذا السبب بكل تأكيد ! .. إنها أكبر من مثل هذه التوافه !

وكان هذا رأيى كذلك . ولما كان الزعم الباطل قد جرح عزة

نفسى ، فقد أجبت على الفور : « إننى لم أبك فى حياتى لمثل هذا الأمر فأنا أكره الخروج فى العربة .. إنما أبكى لأننى تعسة ! » .

فقالت بيسى : « أوه .. ويحك يا آنسة ! » .. وهنا تبدت الحيرة على وجه الصيدلى . وكنت واقفة أمامه ، فأخذ يتفرسنى بعينين صغيرتين رماديتين ، لم تكونا شديدتى التألق ، ولكننى أستطيع أن أدرك اليوم أن نظراتهما كانت تنم عن ذكاء . وكان وجهه صارم القسمات ، غير أنه كان صبوحاً ، ينم عن طيبة . وإذ تأملنى ملياً ، قال : « ما الذى أسقمك بالأمس ؟ » .

فأجابت بيسى متدخلة فى الحديث مرة أخرى : « لقد وقعت » :

— وقعت ! كيف ؟ هل ترينها ارتدت طفلة من جديد ؟.. ألا تستطيع فتاة فى سنها أن تمشى جيداً ؟.. إنها ولابد فى الثامنة أو التاسعة من عمرها !

وشعرت بالألم — مرة أخرى — لكرامتى الجريحة ، فقلت فى برود أوضح له الأمر : « لقد أوقعت ! » . وفيما كان مستر لويد يتناول بعض السعوط ، أردفت قائلة : « ولكن هذا لم يكن سبب مرضى » .

وبينما كان يعيد علبة السعوط إلى جيب صداره ، رن أحد الأجراس عالياً لدعوة الخدم للغداء .. وأدرك المقصود بذلك فقال : « هذا من أجلك أيتها المربية ، وفى وسعك أن تنزلى .. أما أنا فسألقى على مس جين درساً ، ريثما تعودين » .

وكانت بيسى تفضل البقاء ، ولكنها اضطرت إلى الذهاب ، لأن المواظبة على مواعيد الوجبات كانت تراعى بكل دقة فى قصر (جيتسهيد) .

واسترسل مستر لويد يقول بعد خروج بيسى : « إن وقوعك لم يكن السبب فى مرضك .. فما هو السبب إذن ؟ » .

— لقد حبست فى حجرة بها شبح ، إلى ما بعد هبوط الظلام .

فرأيت مستر (لويد) يبتسم ويعبس فى آن واحد . ثم قال : « شبح ! ؟ .. يالك من طفلة ، برغم مظهرك ! .. أتخافين الأشباح ؟ » .

— أخاف من شبح مستر (ريد) ، فقد مات فى تلك الغرفة ، ثم وضع فيها . ولا تستطيع بيسى وغيرها أن تذهب إلى تلك الغرفة فى الليل ، ما استطاعوا ! .. ولقد كان من القسوة أن أحبس وحدى بها ، دون شمعة تبدد الظلمة .. قسوة بالغة لن أنساها قط !

— هراء ! وهل هذا يشقيك إلى هذا الحد ؟.. ثم ، هل يساورك الخوف الآن .. فى وضح النهار ؟

— كلا .. ولكن الليل لن يلبث أن يأتى مرة أخرى بعد قليل ! .. ثم إننى غير سعيدة .. غير سعيدة مطلقاً .. بسبب أمور أخرى !

— أية أمور أخرى ؟ .. هل فى وسعك أن تحدثينى عن بعضها ؟

وكم وددت أن أجيبه عن هذا السؤال فى صراحة ! .. ولكن ، كم كان صعباً أن أصوغ أى جواب ! .. إن فى وسع الأطفال أن يحسوا ويشعروا ، ولكنهم يعجزون عن تحليل مشاعرهم ، وحتى إذا تسنى لهم ذلك التحليل فى أذهانهم إلى حد ما ، فإنهم لا يعرفون كيف يعبرون عنه بالكلمات . وخشية أن تضيع فرصتى الأولى ، والوحيدة ، فى التخفف من أحزانى بالإفصاح عنها ، فقد قررت — بعد فترة من القلق والحيرة — أن أصوغ جواباً حقيقياً ، على إيجازه وهزاله ، فقلت :

« لسبب واحد .. هو أننى بلا أب أو أم أو إخوة أو أخوات !» .

ـ إن لك خالة وأبناء خالة شفوقين .

فتوقفت عن الكلام مرة أخرى ، ثم قلت فى حيرة وتخبط : « ولكن جون صرعنى ، وخالتى حبستنى فى الغرفة الحمراء ! » .

ومرة ثانية ، أخرج مستر لويد علبة السعوط ثم سألنى : « ألا ترين قصر (جيتسهيد) مقاماً جميلا ؟.. ألست شاكرة لإقامتك فى مثل هذا المكان البديع ؟ » .

ـ إنه ليس منزلى يا سيدى .. وتقول (آبوت) أن ليس لى أدنى حق فى الإقامة هنا إلا كخادم !

ـ أوه ! لا يمكن أن تكونى من البلاهة بحيث ترغبين فى مغادرة مثل هذا المكان الفخم !

ـ إذا وجدت مكاناً آخر أستطيع الذهاب إليه ، فإننى أتركه مغتبطة ، مسرورة .. ولكنى لا أستطيع مغادرة (جيتسهيد) قبل أن أصبح امرأة !

ـ ربما .. من يدرى ؟.. ألك أقرباء غير مسز ريد ؟

ـ لا أظن يا سيدى .

ـ أليس لك أقرباء لأبيك ؟

ـ لست أدرى !.. لقد سألت الخالة (ريد) ذات مرة ، فقالت : إن من المحتمل أن يكون لى بعض أقرباء فقراء وضيعين ، من عائلة أبى ، ولكنها لا تعرف عنهم شيئاً !

ـ إذا كان لك مثل هؤلاء الأقرباء ، فهل ترغبين فى الذهاب إليهم ؟

فأخذت أفكر .. إن الفقر يبدو فى نظر الكبار عابساً كالحاً .. وهو أكثر عبوساً ومرارة فى نظر الأطفال ، ولو أنهم لا يدركون الكثير عن الفقر وأهواله بالنسبة للطبقة العاملة الكادحة ، ولا يرون لكلمة (الفقر) معنى ، اللهم إلا الملابس المهلهلة ، والطعام القليل ، والمدافئ الخالية من النيران ، والطباع الفظة ، والرذائل الوضيعة .. كما كان الفقر فى نظرى مرادفاً للضعة والهوان ، ولذلك أجبت قائلة : « لا .. لست أحب أن تكون لى صلة بأناس فقراء ! » .

ـ حتى ولو كانوا شفوقين بك ؟

فهززت رأسى وأنا لا أدرك كيف يتأتى للفقراء من الناس أن يكونوا شفوقين !.. ثم كيف لى أن أتحدث مثل حديثهم ، وأن أتخذ لنفسى أخلاقهم ، وأن أكون غير متعلمة مثلهم ، فأشب كواحدة من النسوة الفقيرات اللاتى كنت أراهن فى بعض الأحيان وهن يرضعن أطفالهن ، أو يغسلن الملابس عند أبواب الأكواخ فى قرية (جيتسهيد)؟!.. كلا !.. لم أكن من الشجاعة بحيث أشترى حريتى بالفقر !

ـ ولكن هل أقرباؤك فقراء إلى هذا الحد ؟ هل هم من الطبقة العاملة ؟

ـ لست أدرى .. ولكن الخالة (ريد) تقول : إنه إذا كان لى أقرباء فلابد أنهم من زمرة المتسولين .. وأنا لا أحب أن أتسول !

ـ أتودين الذهاب إلى مدرسة ؟



ففكرت مرة أخرى .. كنت لا أكاد أعرف ما هى المدرسة ، وإن كانت (بيسى) قد وصفتها أحياناً كمكان تجلس فيه السيدات الصغيرات فى مقاعد ، ويرتدين أزياء خاصة ، ويطلب منهن أن يكن غاية فى الرقة والكياسة . ولقد كان جون ريد يمقت مدرسته ، ويذم أساتذته ، ولكن أذواق أسرة (ريد) لم تكن فى نظرى أحكاماً يؤخذ بها . وكانت بيسى تتحدث بما جمعته من أقوال فتيات الأسرة التى كانت تعمل عندها قبل أن تجىء إلى (جيتسهيد) . فكان فى وصفها للنظام المدرسى ما ينم عن شىء من الشدة القاسية .. ولكن ما أسهبت فى ذكره من ألوان الثقافة التى تحصل عليها هؤلاء الفتيات ، كان بدوره شيئاً جذاباً مشوقاً بالنسبة إلىّ ، إذ كانت بيسى تتحدث فى زهو عن الرسوم الجميلة التى تنقلها تلميذات المدارس عن المناظر الطبيعية والأزهار ، والأغانى التى ينشدنها ، والمسرحيات التى يمثلنها ، والمفارش التى يطرزنها ، والكتب الفرنسية التى يستطعن ترجمتها .. ولذا كانت نفسى تهفو إلى أن أكون مثلهن !.. هذا إلى أن المدرسة سوف تكون بمثابة تغيير كامل بالنسبة لى ، لما تنتظمه من رحلة طويلة ، وابتعاد تام عن (جيتسهيد) ، ودخول فى حياة جديدة !.. وكانت نهاية تأملاتى أن قلت بصوت مسموع : « الحق أننى أتمنى أن أذهب إلى المدرسة » .

فقال مستر لويد وهو ينهض واقفاً : « حسناً .. حسناً .. من يدرى ما سوف يحدث ؟ » .. ثم أردف محدثاً نفسه : « ينبغى للطفلة أن تغير الهواء والمناظر ، فإن أعصابها ليست فى حالة طيبة ! » .

وإذ ذاك عادت بيسى .. وفى اللحظة ذاتها ، سمع صوت العربة ترقى الطريق المحصوبة ، فسألها مستر لويد : « أهذه سيدتك أيتها المربية ؟.. أحب أن أتحدث إليها قبل انصرافى ! » .

* * *

● ودعته بيسى إلى غرفة الفطور ، وسارت أمامه . وفى المقابلة التى تمت بينه وبين مسز (ريد) — كما أدركت من الحوادث التى جرت بعد ذلك — تجرأ الصيدلى على ما أظن ، فأوصى بإلحاقى بإحدى المدارس. ولا شك أن مسز (ريد) رحبت بتلك التوصية ، إذ حدث فى الليلة التالية لملازمتى الفراش ، أن جاست آبوت وبيسى — فى غرفة الأطفال — تتناقشان فى ذلك الموضوع ، وهما منهمكتان فى التطريز ، وقد حسبتانى نائمة .. فقالت آبوت : إن سيدتها كانت غاية فى السعادة للتخلص من فتاة متعبة سيئة الخلق مثلى ، تبدو دائماً وكأنها تراقب كل إنسان ، وتدبر له المكائد فى مكر ودهاء !.. وأظننى سمعت آبوت تصفنى بأننى أشبه (جاى فوكس) فى طفولته .. « و (جاى فوكس) شقى تروى فى سيرته الأساطير المخيفة ! » .

وعلمت للمرة الأولى من أقوال آبوت — فى تلك المناسبة — أن أبى كان قسيساً فقيراً ، وأن أمى تزوجت منه على غير رغبة أصدقائها الذين لم يروا فيه نداً لها ، وأن جدى (ريد) ذهب فى الهياج والسخط على عصيانها وتمردها إلى حد أن حرمها من كل شلن فى ثروته ، وبعد انقضاء عام على زواج أمى وأبى ، أصيب الأخير بحمى التيفوس أثناء زيارته للفقراء فى إحدى المدن الصناعية التى تفشى فيها ذلك الوباء ،

فى ابراشيته . وما لبثت العدوى أن انتقلت إلى أمى ، فمات الاثنان ولما يمض شهر واحد بين موت الأول وموت الثانية !

ولما سمعت بيسى تلك القصة ، تنهدت وقالت : « ما أجدر المسكينة مس جين بالرثاء يا آبوت ! » .

فأجابتها آبوت : « نعم .. لو أنها كانت طفلة ظريفة جميلة ، لأشفق الإنسان على حرمانها ونبذها ، ولكن المرء لا يسعه أن يعنى بمثل هذه الضفدعة الصغيرة ! » .

فوافقتها بيسى قائلة : « إنها ليست على قدر كبير من الجمال حقاً ، ولو أن فتاة فى مثل جمال مس جورجيانا وجدت فى مثل ظروف مس جين ، لكانت أحظى بالرثاء والعطف ! » . فصاحت آبوت متحمسة : « إننى شغوفة بمس جورجيانا .. يا للعزيزة الصغيرة ، بجدائلها الطويلة وعينيها الزرقاوين ، ولون بشرتها الجميل .. كأنها صورة مرسومة !.. إننى يا بيسى أفكر فى أرنب من أرانب (ويلز) للعشاء . فما رأيك ؟ »

— وأنا كذلك .. ومعه بصل مشوى . تعالى نهبط لندبر الأمر !

ثم مضت الاثنتان .

* * *

الفصل الرابع

● من الحديث الذى دار بينى وبين مستر (لويد) ، ومن العبارات التى سمعتها — أثناء مرضى — من بيسى وآبوت ، جنيت من الأمل ما يكفى لأن يكون حافزاً لرغبتى فى الشفاء . إذ بدا لى أن تغييراً كان يوشك أن يطرأ عما قريب ، فتلهفت عليه ، ورحت أنتظره فى صمت وهدوء .. بيد أنه أبطأ مع ذلك ، وانقضت أيام وأسابيع استعدت فيها صحتى العادية ، دون أن تبدر من أحد إشارة جديدة إلى الموضوع الذى كان يشغل بالى . وكانت مسز (ريد) ترمقنى من حين إلى آخر بنظرة حادة ، ولكنها ندر أن وجهت لى الحديث ، لأنها منذ مرضى رسمت سياجاً يفرق بينى وبين أطفالها أكثر من ذى قبل ، وخصصت لى حجرة صغيرة أنام فيها بمفردى ، كما حكمت علىّ بأن أتناول طعامى وحدى ، وأقضى كل يومى فى غرفة الأطفال ، بينما كان أبناء خالى فى حجرة الاستقبال على الدوام . ورغم ذلك لم تلح فى الجو بارقة تنبئ بإرسالى إلى المدرسة . على أننى كنت أشعر شعوراً جازماً بأن مسز (ريد) لن تطيق طويلا أن يظلنى وإياها سقف واحد ، لأن نظراتها إلىّ أصبحت تنم عن نفور طاغ ، تأصلت جذوره فى نفسها أكثر من أى وقت مضى !

وكان من الواضح أن (إليزا) و (جورجيانا) تنفذان أوامر خاصة ، إذ أصبحتا تقتصدان فى الحديث معى ما استطاعتا ، فى حين كان (جون) يخرج لسانه حتى خده كلما رآنى . وقد حاول مرة أن

يضربني ، ولكني واجهته على الفور وقد ثارت ثائرتي ، واندفعت بنفس شعور الحنق العميق وبنفس التمرد الذي أثارني من قبل ، فجرى من أمامي وهو يردد السباب واللعنات ، مقسماً أنني جدعت أنفه . والواقع أنني هويت على هذا الجزء الناتئ من وجهه بضربة تجمع فيها كل ما كان في يدي من قوة : ولما رأيت أن هذه الضربة ، أو ما بدا في عيني من نظرة ، قد أخافته ، وجدت بي ميلا شديداً إلى المضي في تأديبه ، ولكنه كان قد وصل إلى أمه وسمعته يروي لها — بصوت ينشج بالبكاء — كيف انقضت عليه جين القذرة ، انقضاض القطة المتوحشة !.. ومنعته أمه من الاسترسال قائلة : « لا تحدثني عنها يا جون ، فقد حذرتك من أن تقترب منها لأنها لا تستأهل أية عناية ، ولا أرضى لك أو لأختيك أن تكونوا رفاقاً لها » !.

وعندئذ اتكأت على سياج الدرج ، وصحت فجأة ودون أي تفكير في كلماتي : « بل هم الذين لا يستأهلون أن يكونوا رفاقاً لي » !

وكانت مسز (ريد) قوية البنيان نوعاً ما ، فلما سمعت مني ذلك التصريح العجيب ، الوقح ، جرت في خفة ترقى الدرج ، ثم دفعتني كالإعصار إلى غرفة الأطفال ، حيث سحقت أحد ضلوعي ، وأمرتني بصوت متوعد بألا أنهض من ذلك المكان ، أو أنبس ببنت شفة ، طوال بقية النهار :

ووجدتني أسألها ، عن إرادة تقريباً : « ترى ما الذي كان خالي يقوله لك ، لو أنه كان على قيد الحياة ؟ » ؟.. وأقول : « عن إرادة

تقريباً » ، لأن لساني — على ما بدا — نطق بالكلمات دون ما موافقة مني على النطق بها ، وكأن الذي تحدث شيء في أعماق لم يكن لي عليه سلطان . وشهقت مسز (ريد) قائلة : « ماذا ؟ » .. وعكرت عينيها السمراوين ، الباردتين ، الرصينتين بطبعهما ، نظرة خائفة ، فرفعت يدها عن ذراعي ، وحملقت فيّ وكأنها لم تكن تدري فعلا ما إذا كنت طفلة أو (عفريتة) !.. وكنت قد انسقت للموقف ، قائلة :

— إن خالي (ريد) في السماء ، ويستطيع أن يرى كل ما تفعلين وتفكرين فيه . وكذلك يستطيع أبي وأمي !.. إنهم يعرفون أنك تحبسينني طوال النهار ، وأنك تتمنين موتي !

على أنها سرعان ما استردت جأشها ، فأخذت تهزني بشدة وتلوي كلتا أذني ، ثم غادرتني دون أن تنطق بحرف واحد : وتولت بيسي ملء الفترة التالية بمواعظ استغرقت ساعة كاملة ، وأثبتت لي بما لا يدع أدنى شك ، أنني أشقى وأتعس طفلة نشأت تحت سقف من السقوف .. على أنني لم أصدق كل ما قالته ، لأنني لم أكن أشعر بغير الإحساسات الشريرة التي كانت تعصف بين أضلعي !

* * *

● وانقضى شهر نوفمبر ، ثم ديسمبر ، ونصف يناير : وكانوا قد احتفلوا بعيد رأس السنة — في القصر — بالابتهاج المعتاد ، فتبودلت الهدايا ، وأقيمت ولائم الغداء والعشاء . وكنت بطبيعة الحال مبعدة عن كل متعة .: بل كان كل نصيبي في ذلك السرور أن أشاهد يومياً

(إليزا) و (جورجيانا) وهما تتخذان زينتهما ، ثم وهما تهبطان إلى حجرة الاستقبال فى ثياب حريرية تزينها أحزمة قرمزية اللون ، وقد بدا شعرهما فى حلقات محكمة : كما كنت – فيما بعد ذلك – أصغى إلى صوت البيانو أو القيثار يعزفان فى الطابق الأسفل ، وإلى وقع أقدام الساقى والخدم ، وإلى صلصلة الأكواب والأوانى الخزفية عند تناول المأكولات والمشروبات المرطبة ، وإلى همهمة الأصوات المتكسرة عندما تنفتح أبواب حجرة الجلوس لتغلق ثانية . حتى إذا تعبت من هذه المهمة – مهمة التسمع – عدت من رأس السلم إلى حجرة الأطفال المنعزلة الصامتة . وهناك ، لم أكن أشعر – برغم كآبة المكان – بالتعس والشقاء ، لأننى لم أكن فى الحقيقة أحس أدنى رغبة فى أن أنضم إلى تلك الجماعة ، إذ قلما كان أحد يفطن إلى وجودى فى الجماعات . ولو أن (بيسى) كانت رقيقة ، رفيقة ، لوجدت لذة فى أن أقضى معها الأمسيات فى هدوء ، بدلا من قضائها تحت عينى مسز (ريد) المخيفتين ، وفى حجرة تزخر بالسيدات والسادة ! ولكن بيسى كانت تبادر – بمجرد الفراغ من معاونة سيدتها فى ارتداء ملابسها – فتهبط كعادتها إلى مواطن النشاط والمرح فى المطبخ وحجرة مدبرة شئون المنزل ، وهى تحمل معها شمعة . لذلك كنت أجلس ودميتى على ركبتى ، إلى أن تخفت نيران المدفأة ، فآخذ أتلفت حولى من حين إلى آخر لأستوثق من أن لا شىء أسوأ منى يعمر الغرفة المليئة بالظلال !.. حتى إذا أصبح لون الجمرات أحمر معتماً ، خلعت ملابسى على عجل وأنا أشد كل أنشوطة وخيط كأفضل ما ينبغى ، ثم لذت بمهدى من

البرد والظلام . وإلى هذا المهد كنت آخذ دميتى دائماً ، إذ يجدر بالمخلوقات الآدمية أن تحب شيئاً ما !.. وكنت فى أثناء افتقادى أتفه ما أودعه حبى ، قد رضت نفسى على أن أجد متعة فى حب صورة محفورة باهتة اللون ، فى قذارة (خيال المقاتة) ! .. ولكم أعجب الآن إذ أتذكر كيف كنت مشغوفة ، كل ذلك الشغف السخيف الحار ، بمثل هذه اللعبة الصغيرة ، وكيف كنت أتوهمها حية وقادرة على الإحساس !.. كنت لا أقوى على النوم ما لم أطو عليها منامتى ، حتى إذا رقدت هكذا سالمة دافئة ، شعرت بالسعادة ، اعتقاداً منى بأنها سعيدة بدورها !

وكانت الساعات تبدو طويلة ، وأنا أترقب رحيل المدعوين ، وأصغى إلى وقع أقدام بيسى على الدرج ، إذ كانت تصعد فى بعض الأحيان لتبحث عن (كستبانها) أو مقصها ، أو ربما لتأتينى بشىء لعشائى – كقطعة من الفطائر أو قرص من الجبن – ثم تجلس على الفراش إلى أن آكل ، فإذا انتهيت من ذلك ، لفتنى فى غطائى ، وقبلتنى مرتين قائلة : « طابت ليلتك يامس جين ! » .. وكانت بيسى تبدو لى أجمل وأرحم مخلوقة فى العالم ، حين تكون رقيقة بهذا الشكل ، فكنت أتوق إلى أن تظل هكذا دائماً : غاية فى الظرف والإيناس ، فلا تنهرنى أو تعنفنى أو تكلفنى بواجب شاق لا يتصوره عقل ، كما كانت تفعل فى أحيان كثيرة ، وما أرى إلا أن (بيسى لى) كانت – بلا شك – فتاة على جانب موفور من القدرة العقلية ، لأنها كانت تتقن كل ما تعمله ، وكانت ذات مهارة ملحوظة فى رواية القصص . أو هكذا حكمت عليها

من تأثرى بالقصص التى كانت تحكيها فى غرفة الأطفال ! .. وكانت كذلك جميلة إذا صح ما أذكره عن وجهها وشخصها ، لأننى أتذكرها شابة ناحلة الخصر ، سوداء الشعر والعينين ، ذات ملامح جميلة ، وبشرة صافية لطيفة ، ولكنها كانت سريعة الانفعال ، لا تكترث لمبدأ أوعدالة ، ورغم ذلك ، فإننى كنت أفضلها على كل من عداها فى قصر (جيتسهيد) !

* * *

● وحوالى الساعة التاسعة من الصباح الخامس عشر من فبراير ، نزلت(بيسى) إلى الطابق الأرضى لتناول الإفطار ، ولم تكن ابنتا خالى قد استدعيتا بعد للقاء أمهما ، فمضت (إليزا) ترتدى قبعتها الصغيرة ومعطفها الثقيل ، استعداداً للذهاب إلى الحديقة لإطعام دجاجها .. وهو عمل كان حبيباً إلى نفسها ، ولم تكن أقل غراماً به منها ببيع البيض لمدبرة المنزل ، وتوفير ما تحصل عليه من نقود من وراء ذلك ! .. فقد كانت تميل للتجارة ، وبها نزعة ملحوظة للادخار، لا تظهر فى بيع البيض والفراريج فحسب ، وإنما تتجلى كذلك فى عقد المساومات القاسية مع البستانى بشأن جذور الأزهار والبذور والشتلات . إذ كانت لدى هذا العامل أوامر من مسز (ريد) بأن يشترى من سيدته الصغيرة كل ما ترغب فى بيعه من منتجات حديقتها .. بل إن (إليزا) لم تكن لتتردد فى بيع شعر رأسها إذا وجدت فى ذلك ربحاً طيباً ! .. أما نقودها ، فقد كانت تخفيها فى أول الأمر فى أركان غير مطروقة بالمنزل ، بعد أن تلفها فى خرقة أو فى ورقة قديمة محواة . غير أن الخادم ما لبثت أن اكتشفت بعض هذه المخابئ ، فخشيت (إليزا) أن تفقد ذات يوم

كنزها الغالى ، ومن ثم رضيت بأن تعهد به إلى والدتها ، وفرضت عليه (ربحاً) فاحشاً بلغ حوالى الخمسين أو الستين فى المائة ، كانت تتقاضاه كل ثلاثة أشهر ، وتقيد حساباتها فى دفتر صغير بكل دقة بالغة !

أما (جورجيانا) فكانت فى ذلك الصباح تجلس على مقعد عال ، تصفف شعرها أمام المرآة ، وتزين خصلاته بزهور صناعية وبعض ريش الطيور الذى كانت تجده بوفرة فى أحد الأدراج بالطابق العلوى . وأما أنا فكنت أسوى فراشى امتثالا لأوامر (بيسى) المشددة بأن أرتبه قبل عودتها .. فقد أصبحت تستخدمنى كثيراً كمساعدة للخادم بحجرة الأطفال ، لتنظيف الغرفة وإزالة الغبار عن مقاعدها.. إلخ . فلما فرغت من فرش اللحاف ، وطويت منامتى ، مضيت إلى قاعدة النافذة لأرتب ما تناثر عليها من كتب مصورة وأثاث منزل الدمية . ولكن (جورجيانا) فاجأتنى آمرة بأن أترك أدوات لعبها ، إذ كانت تملك كل المقاعد والمرايا والصحاف والأكواب الصغيرة . ومن ثم توقفت عن مهمتى . ولكى أشغل نفسى بعمل آخر ، أخذت أشم زهور الشتاء التى كانت تزين النافذة ، مفسحة بذلك فراغاً أمام زجاج النافذة أرى خلاله الأراضى الخارجية ، حيث كان كل شىء هادئاً ، جامداً ، بفعل الصقيع القاسى .

وكانت هذه النافذة تطل على مسكن البواب وطريق العربات : وما أن أذبت الكثير من القناع الفضى اللون (الصقيع) ــ الذى كان يغطى ألواح الزجاج ــ لكى أطل على المدخل الخارجى ، حتى شاهدت البوابة تفتح على مصراعيها ، ورأيت عربة تدخل وتدلف فى طريق

العربات . وأخذت أرقبها فى غير اكتراث .. إذ أن كثيراً من العربات كانت تفد إلى القصر دون أن تأتى واحدة منها بزوار يهموننى فى شيء ! .. ووقفت العربة أمام مدخل البيت ، ثم دوى جرس الباب عالياً ، وأدخل الزائر . وإذ لم يكن فى كل ذلك ما يعنينى مطلقاً ، فإن انتباهى سرعان ما وجد حركة شغلته ، وتمثلت فى هزار صغير جائع ، قدم يشقشق فوق غصون شجرة للكرز غير مورقة ، سمرت إلى الجدار ، على مقربة من الإفريز . وكانت بقايا إفطارى من الخبز واللبن ما زالت على المائدة ، ففتتت جزءاً من رغيف .. وفيما كنت أحاول فتح النافذة لأضع الفتات على إفريزها الخارجى ، صعدت (بيسى) مسرعة إلى غرفة الأطفال لتهيب بى : « اخلعى مرولتك يا مس جين ، ماذا تعملين هناك ؟ هل غسلت يديك ووجهك فى هذا الصباح ؟ »

فشددت إطار النافذة مرة أخرى ، قبل أن أجيب ، لأننى كنت راغبة فى أن أؤمن الطائر على خبزه . واستسلم الإطار ، فانفتحت النافذة ، ونثرت الفتات على إفريزها ، كما نثرت بعضه على أحد غصون شجرة الكرز ، ثم أغلقت النافذة وأجبت : « كلا يا بيسى .. إنما فرغت لتوى من التنفيض » .

— يالك من فتاة متعبة مهملة !.. وماذا تعملين الآن؟.. إن وجهك يتضرج بالدماء ، كما لو كنت منهمكة فى ارتكاب نوع من الأذى ؛ لماذا كنت تفتحين النافذة ؟

ولكنها وفرت على عناء الرد ، إذ كانت فى عجلة شديدة من أمرها ، مما منعها من الإصغاء إلى أى شرح . وجذبتنى إلى حوض



ورأيت عربة تدخل وتدلف فى طريق العربات ، وأخذت أرقبها

الاغتسال حيث انهمكت فى تدليك وجهى ويدى تدليكاً قاسياً بالماء والصابون وفوطة خشنة . ولكن هذا التدليك كان قصير الأمد لحسن الحظ • وصففت بيسى شعرى بفرشاة خشنة ، وخلعت عنى مرولتى ، ثم أسرعت بى إلى قمة الدرج ، فأمرتنى أن أهبط مباشرة إلى حيث كانوا يريدوننى بغرفة الإفطار . ووددت أن أسألها عمن يريدنى ، وعما إذا كانت مسز (ريد) هنالك . ولكن بيسى كانت قد ذهبت وأغلقت خلفى باب حجرة الأطفال ، فتوقفت مخلوعة القلب ، أرتعد . لشد ما كنت إذ ذاك طفلة بائسة جبانة ، بتأثير الخوف المنبعث من العقوبات الظالمة الجائرة ! .. لقد خفت أن أعود إلى حجرة الأطفال ، كما خفت أن أتقدم إلى حجرة الاستقبال ، وظللت عشر دقائق واقفة فى تردد وانفعال ، حتى حزم رأيى رنين جرس دوى فى غرفة الإفطار فى قوة وعنف يهيب بى أن أدخل .. وتساءلت وأنا أدير بكلتا يدى مقبض الباب الجامد ، الذى قاوم جهودى لحظة أو اثنتين : « من ذا الذى يريدنى ؟ ومن عساى أرى فى الحجرة غير الخالة (ريد) ؟ .. رجلا أو امرأة ؟ » .

* * *

• ودار مقبض الباب فانفتح الباب . ودخلت ، ثم انحنيت فى أدب ، ورفعت نظرى إلى عمود أسود ! .. أو هكذا على الأقل بدا لى لأول وهلة ذلك الشبح القاتم الناحل ، فى ردائه الأسود ، وقد وقف منتصب القامة على البساط ! .. وكان يعلو هامته وجه متجهم يشبه قناعاً منحوتاً ، منصوباً على أحد الأعمدة كأنه تاج ! .. وكانت مسز ريد تشغل مقعدها

المعتاد بجانب المدفأة ، فأشارت لى أن أقترب . وإذ فعلت قدمتنى إلى الغريب الشبيه بالتمثال ، قائلة : « هذه هى البنت الصغيرة التى كتبت إليك بشأنها » :

وحوّل الرجل — إذ كان رجلا ! — رأسه ببطء نحو المكان الذى وقفت فيه . وبعد أن تفحصنى بعينين سوداوين ، فضوليتين ، تلتمعان تحت حاجبين كثين ، قال بصوت رزين خافت : « إن حجمها ضئيل ، فما عمرها ؟ » .. فقالت : « عشر سنوات » .

فأجاب فى شك وهو يتفحصنى بضع دقائق : « هذا كثير جداً ! » . ثم لم يلبث أن خاطبنى قائلا : « ما اسمك أيتها البنت الصغيرة ؟ » .

— جين إير ياسيدى ..

ورفعت نظرى إليه وأنا أجيبه ، فبدا لى سيداً فارهاً ، إذ كنت وقتذاك صغيرة جداً . وكانت ملامحه ضخمة ، تنم — ككل هيئته على السواء — عن فظاظة ووقار متكلف . وعاد يقول : « حسناً يا جين إير .. وهل أنت طفلة طيبة ؟ » .

وكان من المستحيل أن أرد على ذلك بالإيجاب ، لأن عالمى الصغير كان يرى فىّ رأياً مخالفاً ، ومن ثم أخلدت إلى الصمت ، وتولت عنى مسز (ريد) الرد بهزة معبرة من رأسها ، ثم استرسلت على الفور قائلة : « ربما يحسن الإقلال من الكلام فى هذا الموضوع يامستر بروكلهيرست ! » . فقال : « يؤسفنى حقاً أن أسمع ذلك ، إذ لابد لها ولى من أن نتحدث معاً قليلا » .. وتنحى عن وقفته المنتصبة ، ثم جلس على المقعد ذى المسندين المقابل لمسز (ريد) ، وقال : « تعالى هنا ! » :

وتقدمت عبر السجادة ، فأوقفنى وجهاً لوجه أمامه .. ويا للوجه الذى أوتيه ! .. لقد كان إذ ذاك فى مستوى نظرى .. فيا لأنفه الضخم ، ويا لفمه ! .. ويا لأسنانه الكبيرة البارزة ! .. وأردف يقول : « لا شىء أدعى للحزن من منظر طفل شقى .. لاسيما إذا كان بنتاً صغيرة شقية ! .. أتعرفين أين يذهب الأشقياء بعد الموت ؟ » .

فكان جوابى السريع ، الصحيح : « إنهم يذهبون إلى الجحيم ! ».

— وما هو الجحيم ؟ .. هل فى وسعك إخبارى ؟

— حفرة مليئة بالنار !

— وهل تحبين السقوط فى تلك الحفرة والاحتراق هنالك إلى الأبد ؟ !

— كلا ياسيدى !

— وماذا يجدر أن تفعليه لتتقى ذلك ؟

ففكرت لحظة . وعندما أسعفنى الرد ، لم يكن مقبولا إذ قلت : « يجب أن أحافظ على صحتى حتى لا أموت ! » .

— وكيف تحافظين على صحتك ؟.. إن أطفالا يصغرونك فى السن يموتون فى كل يوم ، ولقد دفنت أنا طفلا فى الخامسة من عمره منذ يوم أو اثنين .. طفلا صغيراً لطيفاً ، صعدت روحه إلى السماء ، وأخشى ألا نستطيع قول ذلك عنك إذا أنت مت !

ولم أكن فى حالة تمكننى من تبديد شكه هذا ، فاكتفيت بأن أرخيت نظرى نحو قدميه الضخمتين المزروعتين فى السجادة ، ثم تنهدت متلهفة على أن أكون بعيدة عن هذا المكان . وقال : « أرجو أن

تكون هذه الزفرة من القلب وأن تكونى قد ندمت على أن كنت السبب فى مضايقة ولية نعمتك العظيمة ! » .

فقلت فى نفسى : « ولية نعمتى ! ولية نعمتى ! .. إنهم جميعاً يدعون مسز (ريد) ولية نعمتى .. وإذا كان الأمر كذلك ، فلابد أن ولية النعمة شىء بغيض ! » .

واسترسل مستجوبى يقول : « أتصلين فى المساء والصباح ؟ » .

— نعم ياسيدى !

— وهل تقرئين الإنجيل ؟

— أحياناً !

— بغبطة وسرور ؟ .. هل أنت مشغوفة به ؟

— إننى أحب سفر الرؤيا ، وكتاب دانيال ، وسفر التكوين ، وصمويل ، وقسطاً بسيطاً من سفر الخروج ، وبعض أجزاء من سفر الملوك ، وأخبار الأيام ، وقصتى أيوب ويونان !

— والمزامير ؟ أرجو أن تحبيها كذلك !

— كلا يا سيدى .

— كلا ؟ أوه .. أمر مؤلم ! إن لى ولداً صغيراً — أصغر منك — يحفظ ستة مزامير عن ظهر قلب ، وإذا سألته هل يفضل أن يأكل قطعة من كعك الزنجبيل بالبندق ، أو أن يحفظ بيتاً من المزامير ؛ لقال : « أوه ! بيتاً من المزامير ، لأن الملائكة تترنم وتسبح بها ! » .. وهو يقول : « أتمنى أن أكون أحد الملائكة الصغار هنا على الأرض » .. وعندئذ يظفر بكعكتين مكافأة له على تقواه فى صغره !

قلت : « إن المزامير ليست مشوقة ! » .

— هذا يؤكد أن لك قلباً شريراً ، وأنك يجب أن تدعى الله أن يغير لك قلبك هذا ، ويمنحك قلباً جديداً نظيفاً .. أى أن ينتزع منك قلباً من حجر ، ويمنحك قلباً من لحم !

وهممت بأن أطرح سؤالا عن كيفية إجراء عملية تغيير قلبى ، لولا أن تدخلت مسز (ريد) فى الحديث ، فسألتنى أن أجلس ، ثم تولت زمام الحديث بنفسها قائلة : « أظننى يامستر (بروكلهيرست) قد أشرت فى خطابى إليك — منذ ثلاثة أسابيع — إلى أن هذه البنت الصغيرة ليست كما أود من حيث الخلق والميول، فإذا أنت قبلتها فى مدرسة (لوود) ، فإنه ليسرنى أن تطلب إلى المشرفة والمعلمات أن يشددن الرقابة عليها ، وأن يدرأن عنها — قبل كل شىء — أسوأ عيوبها، وهو الميل إلى الغش والخداع ! .. وأنا أقول ذلك على مسمع منك يا (جين) ، حتى لا تحاولى غش مستر بروكلهيرست ! » .

لا عجب إذن فى أن أخشى وأن أكره مسز (ريد) ! فقد جبلت بطبيعتها على أن تجرحنى بقسوة . بل إننى لم أذق السعادة قط فى حضرتها !. وقد كنت أحرص على طاعتها ، وأحاول جهدى أن أرضيها ، ومع ذلك كانت جهودى تمنى بالفشل ، ولا ألقى عنها جزاء سوى أمثال العبارات السالفة الذكر ! .. والآن ، وقد فاهت بذلك أمام رجل غريب فقد مزق الاتهام نياط قلبى ، وأوحى إلىّ بأنها كانت تمحو الأمل المرجو من المرحلة الجديدة فى حياتى .. المرحلة التى قضت علىّ هى بأن أنتقل إليها ! .. وشعرت — وإن لم أقو على الإفصاح عن مشاعرى —

بأنها تبذر فى طريق مستقبلى بذور الكراهية والقسوة . ثم رأيت نفسى وقد انقلبت فى نظر مستر(بروكلهيرست) إلى طفلة مخادعة ، مؤذية، فماذا كان فى وسعى أن أعمله لعلاج هذا الإفساد ، ودفع هذا الأذى ؟ .. « لا شىء ! » .. وجاهدت لكى أكظم شهقة باكية ، ثم كفكفت فى الحال بعض العبرات التى كانت أدلة قوية قاطعة على آلامى !

وقال مستر بروكلهيرست : « إن المكر — فى الحقيقة — عيب محزن فى الطفل ، وهو والزور والبهتان سواء ! وسيلقى كل الكذابين عقابهم فى البحيرة التى تتقد بالنار والكبريت !.. وعلى أية حال ، سوف نحكم عليها الرقابة يامسز ريد ، وسأتحدث فى ذلك مع مس تمبل والمعلمات » .

وعادت ولية نعمتى تقول : « أريد أن تنشأ تنشئة تتفق مع ما يرتجى لها من آمال ، لتغدو نافعة ، ولتحافظ على التواضع . أما عن الأجازات فسوف تقضيها — إذا سمحتم — فى المدرسة على الدوام ! » .. فأجابها مستر(بروكلهيرست) : « إن قراراتك غاية فى الحكمة ياسيدتى ، فإن التواضع من نعم المسيح وشمائله . وهو من أليق الفضائل وأنسبها لتلميذات (لوود) . ولذلك فأنا آمر بتوجيه عناية خاصة إلى غرس هذه الفضيلة فى التلميذات . ولقد درست خير الوسائل التى تقتل فيهن غرور الحياة ، وروح الكبرياء . وتجمعت لدى الأدلة على مبلغ نجاحى فى ذلك . إذ ذهبت ابنتى الثانية (أوجستا) مع والدتها لزيارة المدرسة ، وعند عودتها هتفت قائلة : « أواه يا أبى العزيز ، كم تبدو جميع الفتيات فى (لوود) هادئات بسيطات ، بشعرهن الممشط خلف آذانهن ، ومراولهن الطويلة ، وتلك الأكياس الصغيرة الهولندية فوق صدورهن !

إنهن أشبه ببنات الفقراء ، فقد أخذن يتطلعن إلى ثوبى وثوب والدتى ، وكأنهن لم يشاهدن فى حياتهن رداء حريرياً من قبل » !

فقالت مسز ريد : « هذه هى الأمور التى تروق لى تماماً . ولو أننى نقبت فى جميع أنحاء انجلترا ، لما وجدت نظاماً خيراً من هذا مواءمة لطفلة مثل جين إير ! .. الشدة يامستر بروكلهيرست العزيز .. إننى أوصى بالشدة فى كل شىء ! » :

— إن الشدة ياسيدتى أول واجبات الرجل المتدين ، وهى تراعى فى كل نظام أو إجراء يتعلق بمدرسة (لوود) ؛ فالمصروفات معتدلة ، والأزياء بسيطة ، ووسائل الراحة عادية فى غير مبالغة ، والطباع تتسم بالصلابة والنشاط . هذا هو النظام اليومى فى المدرسة وبين ساكناتها !

— حسن جداً ياسيدى : فى وسعى إذن أن أطمئن إلى قبول هذه الطفلة تلميذة فى (لوود) ، وإلى أنها سوف تتعلم مايتسق مع مركزها وما يرجى لها !

— لك ذلك ياسيدتى ، فسوف ندخلها فى فصل الحضانة الخاص بالمختارات من الصغيرات .. وهذه ميزة لا تقدر ، وأرجو أن تقابلها الطفلة بالشكر والامتنان !

— إذن سأرسلها لك بأسرع ما أستطيع يامستر بروكلهيرست ، إذ أؤكد لك أننى أتلهف على التخلص من تبعة أصبحت شاقة متعبة !

— بلا شك ياسيدتى .. بلا شك . والآن طاب صباحك . سوف أعود إلى قصر بروكلهيرست فى مدى أسبوع أو اثنين ، لأن صديقى الطيب (الأرشيدوق) لن يدعنى أتركه قبل ذلك .. وسأرسل إلى مس

(تمبل) أبلغها نبأ قدوم فتاة جديدة ليتسنى استقبالها .. أستودعك الله !

— رافقتك السلامة يامستر بروكلهيرست ، وأبلغ تحياتى إلى مسز ومس (بروكلهيرست) ، وإلى (أوجستا) و(تيودور) والسيد (بروتون بروكلهيرست) .

— شكراً ياسيدتى .. وأنت أيتها الطفلة الصغيرة . ها هو ذا كتاب عنوانه (مرشد الطفل) ، فاقرئيه مع صلواتك ، لاسيما الجزء الخاص بالوفاة المباغتة ، الأليمة ، التى كانت من نصيب (مارتا ج .) .. وهى طفلة شقية انغمست فى البهتان والخداع !

وفيما كان ينطق بتلك الكلمات ، وضع فى يدى كراسة نحيفة مخاطة فى غلاف ، ثم دق الجرس لاستدعاء عربته ، ورحل ليتركنى ومسز (ريد) على انفراد .

* * *

● وانقضت بضع دقائق فى صمت وسكون : هى تعمل بإبرتها ، وأنا أرقبها . ولعلها كانت فى ذلك الوقت قد بلغت السادسة أو السابعة والثلاثين من عمرها . وكانت امرأة قوية البنية ، معتدلة الكتفين ، متينة الأطراف ، غير فارعة الطول ، وإن كانت ممتلئة فى غير بدانة . وكان لها وجه ضخم ، أما فكها الأسفل فكان شديد البروز والصلابة ، فى حين كان جبينها عريضاً ، وذقنها كبيرة وبارزة ، كما كان لها فم وأنف عاديان . وتحت حاجبيها الخفيفين ، كانت تأتلق عينان فى غير رأفة أو حنان . وكان جلدها قاتماً معتماً ، وشعرها كتانياً ، وجسمها فى قوة الجرس ، إذ أن المرض لم يكن يقترب منها على الإطلاق ! .. وكانت

فى تدبير المنزل دقيقة ماهرة ، تسيطر على شئون منزلها وعلى مستأجرى
المزرعة سيطرة تامة ، وإن كان أطفالها — وحدهم — هم الذين كانوا
يتحدونها أحياناً ويسخرون من هذه السيطرة ! .. كما كانت تتخير
ملابسها ، ولها من سيماها وقوامها ما يتيح لها المنظر الأنيق !

أما أنا فكنت جالسة على مقعد خفيض ، على مسافة بضع ياردات
من مقعدها الكبير ، أتأمل قوامها ، وأتصفح قسمات وجهها ، بينما
أمسكت فى يدى الكراسة التى تحوى قصة موت (الكاذبة) المفاجئ ؛
وهى القصة التى وجه نظرى إليها كإنذار قبل فوات الأوان . وكان كل
ما مر بى منذ قليل ، وما قالته مسز ريد عنى لمستر بروكلهيرست — بل
كل ما حواه حديثهما — ما يزال طازجاً يخز ذهنى ! .. أجل ، شعرت
بأن كل كلمة كانت ما تزال لاذعة ، حادة ، كما سمعتها من قبل ..
وجاشت فى أعماقى ثورة امتعاض ، ورفعت مسز ريد عينيها عن عملها ،
فاستقرتا على عينى ، بينما توقفت أصابعها عن حركاتها الرشيقة . وقالت :
« غادرى الغرفة ، وعودى إلى حجرة الأطفال ! » .

ولا شك فى أن نظراتى أو شيئاً آخر فىّ قد ضايقها ، لأنها كانت
تتكلم فى انفعال بالغ وإن حاولت كظمه .. فنهضت ومضيت إلى الباب .
ولكنى عدت مرة أخرى ، واجتزت الغرفة إلى النافذة ، ثم اقتربت
منها .. كان لابد من أن أتكلم ، فقد داستنى بشدة ويجب أن أرد لها
الكيل .. ولكن كيف ؟ .. أى حول لى حتى أثأر من غريمتى ؟ ! ..
على أننى ما لبثت أن استجمعت قواى فى هذه الجملة الكليلة :
« إننى لست مخادعة ، وإلا لقلت لك إنى أحبك ، ولكنى أصرح

بأننى لا أحبك ، وأننى أكرهك ، أكثر مما أكره أى إنسان فى العالم
عدا جون ريد .. وهذا الكتاب عن (الكاذبة) يحسن أن تعطيه لفتاتك
(جورجيانا) ، لأنها هى — ولست أنا — التى تروى الأكاذيب !

وظلت يدا مسز (ريد) ساكنتين لا تعملان — فى التطريز — كما ظلت
عيناها كالثلج ، تنظران إلى عينى فى برود ، ثم سألتنى بلهجة من
يخاطب خصماً فى سنه ، لا باللهجة التى يخاطب بها الطفل عادة : « وماذا
تبقى لديك من أقوال ؟ » .. وأثارت نظرتها وصوتها كل كراهية لها فى
نفسى ، فاسترسلت أقول وأنا أهتز من مفرقى إلى أخمص قدمى ، وقد
استولى على هياج لا أقوى على كبح جماحه :

— يسعدنى ألا رابطة من القرابة بينى وبينك ، ولن أدعوك خالتى
مرة أخرى ما حييت ، ولن أجىء لزيارتك عندما أكبر . وإذا سألنى
سائل كيف كنت أشعر نحوك ، وكيف كنت تعاملينني ، فسأخبره بأن
مجرد التفكير فيك يسقمنى ، وأنك عاملتنى بقسوة دنيئة !

— وكيف تجرؤين على تأكيد ذلك يا جين إير ؟!

— كيف أجرؤ يا مسز (ريد) ؟ .. كيف أجرؤ؟.. لأنه الحق !
إنك تحسبيننى بلا مشاعر أو إحساسات ، وتحسبين أننى أقوى على العيش
دون بصيص من الحب والحنان ، ولكننى لا أستطيع الحياة هكذا ،
وأنت لا شفقة ولا رحمة فى قلبك . وسأظل أذكر — ما حييت — كيف
دفعتنى بفظاظة وعنف إلى الحجرة الحمراء ، ثم أغلقت الباب بالمفتاح ،
بالرغم من أننى كنت أتألم ، وبالرغم من أننى كنت أصرخ وأنا أختنق
بالضيق والأسى : « ارحمينى ! ارحمينى ياخالتى ريد ! » .. وما جعلتنى

أقاسى ذلك العذاب إلا لأن ولدك الشرير ضربنى وصرعنى لغير ما سبب ! .. سوف أخبر كل إنسان يسألنى بهذه القصة نفسها ، لأن الناس يحسبونك امرأة طيبة ، ولكنك شريرة جامدة القلب .. إنك مخادعة غشاشة !!

وقبل أن أفرغ من هذا الرد ، كانت روحى قد بدأت ترفرف منتشية بأغرب شعور خامرنى بالحرية والنصر ، وكأنما تحطم قيد غير مرئى ، فانطلقت نحو حرية لم أكن قوية الأمل فيها !.. وما كان هذا الإحساس دون ما سبب ، فقد تجلى الذعر على مسز ريد ، وسقط شغل الإبرة من فوق ركبتيها ، ورفعت يديها ثم راحت تنتفض ، وهى تترنح يمنة ويسرة .. بل إن أسارير وجهها أخذت تتلوى ، وكأنها توشك على البكاء وهى تقول : « إنك يا جين مخطئة ، ماذا بك ؟ .. لماذا ترتعدين هكذا بشدة ؟ . هل لك أن تشربى بعض الماء ؟ » .

— كلا يا مسز (ريد) :

— أتريدين شيئاً آخر يا جين ؟.. ثقى من أننى أرغب فى أن أكون صديقة لك !

— إنك لاتريدين شيئاً من هذا .. لقد أخبرت مستر بروكلهيرست بأن سلوكى سيىء ، وأننى مخادعة بطبعى ، وسوف أخبر كل من فى (لوود) بحقيقتك ، وبما فعلته !

— أنت ياجين لاتدركين هذه الأشياء .. يجب أن يصلح كل عيب فى الأطفال !

فصرخت بصوت وحشى مرتفع : « ليس الخداع من عيوبى ! » .

— ولكنك سريعة الانفعال ياجين .. يجب أن تعترفى بذلك . والآن هيا ارجعى إلى حجرة الأطفال وارقدى بها قليلا ياعزيزتى !

— لست عزيزتك ، ولست أقوى على الرقاد . ابعثى بى إلى المدرسة فوراً يامسز (ريد) ، لأننى أكره العيش هنا !

فغمغمت هامسة : « حقاً يجب أن أعجل بإرسالها إلى المدرسة » .. ثم جمعت شغل الإبرة ، وغادرت الغرفة فجأة .

* * *

● وبقيت وحدى هنالك .. وقد ربحت المعركة !. كانت أعنف معركة خضتها ، وهذا أول نصر ظفرت به ، فوقفت لحظة على السجادة — حيث كان مستر (بروكلهيرست) واقفاً من قبل — لأنعم بخلوة المنتصر .. وابتسمت لنفسى ، وشعرت بالزهو والفرح فى أول الأمر ، ولكن هذا السرور الوحشى مالبث أن تبدد ، كما خفتت دقات قلبى المتسارعة : فإن الطفل لا يستطيع أن ينازل من يكبرونه سناً — كما فعلت — ولا يستطيع أن يترك الزمام لمشاعره الصاخبة ، كما تركت زمام مشاعرى ، دون أن يشعر فيما بعد بوخز الندم ، ورعشة رد الفعل !.. ولقد كانت نفسى — عندما اتهمت مسز ريد وتوعدتها — أشبه ببركان يفيض وهجاً وحيوية ، وتدميراً ، ثم ما لبثت ، بعد قليل ، أن غدت أشبه بهذا البركان ذاته ، وقد أصبح أسود هامداً ، بعد أن خمدت نيرانه ولهبه .. فإن انقضاء نصف ساعة فى سكون وتفكير ، أظهرنى على جنون مسلكى ، وعلى بشاعة موقفى للزرى البغيض !

لقد ذقت شيئاً من الانتقام لأول مرة ، فبدا لى عند تجرُّعه أشبه

بخمر معطرة ، منعشة ، منشطة ، ثم ما لبث طعمها أن أصبح كطعم معدن أكله الصدأ ، مما جعلنى أحس أننى تناولت سماً زعافاً ، حتى لقد وددت أن أذهب إلى مسز ريد ، لأسألها — عن طيب خاطر — أن تسامحنى وتغفر لى ، ولكنى كنت أعلم — سواء من تجاربى أو بغريزتى — أن ذلك المسلك سيحملها على طردى باحتقار بالغ ، وبذلك تثير كل لاعجة فى نفسى من جديد . لذلك آثرت أن أتجنب الكلام القارص ، وأن أبحث عما أذكى به شعورى الخبيث ، غير السخط والحنق ، ومن ثم تناولت كتاباً — وكان يضم بعض قصص عربية — وجلست أحاول القراءة : ولكنى لم أفهم موضوعاً للكتاب ، لأن أفكارى كانت تسبح بينى وبين الصفحة التى كنت أجدها — فى الأوقات العادية — شائقة لذيذة . وفتحت الباب الزجاجى المفضى من حجرة الإفطار إلى الحديقة ، فإذا بها ساكنة صامتة ، وقد كسا أرضها صقيع حالك ، لم تفلح فى إذابته شمس أو رياح فغطيت رأسى وذراعى بطرف معطفى ، ثم خرجت لأتمشى فى ناحية من المزارع تكاد تكون منعزلة كل الانعزال ، ولكنى لم أجد أية بهجة فى الغصون الصامتة ، أو الكيزان المتساقطة من أشجار الشربين ، أو آثار الخريف المتجمدة ، أو الأوراق الحمراء التى اكتسحتها الأنواء ، فتجمعت أكواماً على الأرض وقد تيبست بفعل الجليد . واتكأت إلى إحدى البوابات ، ورحت أسرح النظر فى حقل خاو ، ليست فيه أغنام ترعى ، وقد لفحت الرياح حشائشه وصقلتها : كان يوماً جد حالك ، والسماء جد معتمة ، والجليد يغطى كل شىء : وما لبث البرد أن أخذ يتساقط فى فترات متقطعة ، ليتكدس على الأرض الجامدة ، والمرج

الأشيب ، دون أن يذوب ، فوقفت كطفلة غاية فى التعس والشقاء ، لأهمس إلى نفسى بين حين وآخر : « ماذا أعمل ؟ .. ماذا أعمل ؟ » .

وفجأة ، سمعت صوتاً واضحاً ينادينى : « يا آنسة جين .. أين أنت ؟.. تعالى لتتناولى غداءك ! » .. وأدركت تماماً أن بيسى هى صاحبة الصوت ، ولكننى لم أتحرك ، فما لبث وقع قدميها الخفيف أن اقترب فى رشاقة ثم قالت : « أيها الشقية الصغيرة .. لماذا لا تأتين عندما ينادونك؟ » . وفى غمرة الأفكار التى كنت أهيم فيها ، لاح لى أن وجود بيسى يبعث للسرور والاغتباط ، على الرغم من عبوسها المعتاد . والواقع أننى بعد مشاحنتى مع مسز ريد وانتصارى عليها ، لم أعد أحفل كثيراً بغضب المربية أو رضاها . غير أننى تقت إلى أن أنعم بخفة روحها الشابة ، فطوقتها بذراعى الاثنتين ، وقلت : « تعالى يابيسى ! لا تنتهرى ولا تزجرى ! » . وكان تصرفى هذا أكثر صراحة وأقل خوفاً وجبناً عما عهدتنى ، ولكنه أرضاها إلى حد ما ، فقالت وهى تتأملنى : « يالك من طفلة عجيبة يا جين ! .. يالك من مخلوقة صغيرة هائمة فى العزلة ! .. أظنك ستذهبين إلى المدرسة ؟ » .. فأومأت برأسى : وعادت تقول :

— وهلا تأسفين لترك (بيسى) المسكينة ؟

— وماذا يهم بيسى من أرى ، وهى لا تنى تعنفنى وتنهرنى ؟

— لأنك مخلوقة صغيرة غاية فى الغرابة ، شديدة الذعر والحياء .. يجب أن تكونى أكثر جرأة وإقداماً !

— ماذا ! لكى أضرب أكثر من هذا ؟

— هراء ! ولكنك بلا ريب تتكلفين من أمرك عسراً : ولقد

قالت أمى بعد أن قدمت لزيارتى فى الأسبوع الماضى ، إنها لا تتمنى لأحد من أبنائها أن يكون فى موضعك .. والآن تعالى فإن لدى لك أنباء جديدة سارة !

— لا أظن لديك شيئاً من هذا يابيسى .

— يالك من طفلة !.. ماذا تعنين ؟ ولماذا تتطلعين إلىّ بعينين حزينتين ؟ .. إن السيدة وأبناءها سيخرجون بعد ظهر اليوم لتناول الشاى ، وسوف تتناولينه معى . وسأطلب إلى الطاهية أن تخبز لك كعكة صغيرة ، وبعد ذلك سوف تعاونيننى فى فحص أدراجك ، يجب أن أعد لك حقائبك فى الحال ، لأن سيدتى تريد منك أن تغادرى (جيتسهيد) بعد يوم أو اثنين . وسوف تختارين من اللعب ما ترغبين فى أخذه معك !

— عدينى يا بيسى ألا تسلقينى بلسانك حتى أرحل !

— حسناً ، لك هذا !.. ولكن اذكرى جيداً أنك بنت طيبة جداً ، ولا تعودى تخافيننى ، ولا ترتاعى إذا حدث أن كلمتك فى شىء من الحدة ، إذ أن ذلك يغضبنى منك كثيراً !

— لا أظننى سأخشاك بعد اليوم يا بيسى ، لأننى ألفتك ، ولن ألبث أن ألقى نوعاً آخر من الناس ، أخافه وأخشاه !

— إذا خشيت أمرهم فسوف يكرهونك .

— كما تكرهيننى يابيسى ؟ !

— أنا لا أكرهك يا آنسة ، بل أنا واثقة من أننى أحبك أكثر مما أحب الآخرين جميعاً !

— إنك لا تظهرين لى ذلك !

— يالك من صغيرة لاذعة ! لقد اتخذت لنفسك طريقة جديدة تماماً فى الكلام .. فما الذى أحالك جريئة جسورة بهذا الشكل ؟

— لسوف أفارقكم عما قليل .. هذا فضلا عن ...

وهممت بأن أحدثها عن بعض ما وقع بينى وبين مسز ريد ، ولكنى ترويت ، ورأيت أنه من الخير أن أخلد إلى الصمت فيما يتعلق بهذا الموضوع : وعادت تقول :

— إذن فأنت مغتبطة لتركى ؟

— كلا ، مطلقاً .. بل إننى أشعر الآن بشىء من الأسف !

— الآن فقط .. وبشىء من الأسف !.. كم تنطق سيدتى الصغيرة بهذه الكلمات فى برود وفتور .. بل إننى أجرؤ فأقول : لو طلبت منك أن تمنحينى قبلة ، فسوف ترفضين وتقولين إنك تؤثرين ألا أقبلك !

— سوف أقبلك عن طيب خاطر .. أحنى رأسك .

فأحنت بيسى رأسها ، وتبادلنا العناق . ثم تبعتها إلى المنزل وأنا مرتاحة القلب ، راضية . وانقضى عصر ذلك اليوم فى هدوء وانسجام . وفى المساء ، روت لى بيسى بعض قصصها الساحرة ، وغنت لى بعض أغنياتها الحلوة .

وهكذا لم تبخل الحياة — على فتاة مثلى — ببعض ومضات من ضياء الشمس !

* * *



الفصل الخامس

● لم تكد الساعة تدق الخامسة من صباح التاسع عشر من شهر يناير ، حتى أقبلت (بيسى) إلى حجرتى الضيقة ، وهى تحمل شمعة ، فوجدتنى قد فرغت من ارتداء ثيابى تقريباً ، إذ كنت قد استيقظت قبل مقدمها بنصف ساعة ، فغسلت وجهى ، وارتديت ملابسى على ضوء القمر الجانح إلى الغروب ، والذى كان شعاعه ينساب خلال النافذة الضيقة القريبة من سريرى .. وكان مقرراً أن أبرح (جيتسهيد) فى ذلك اليوم ، فى العربة التى كانت تمر أمام الدار فى الساعة السادسة صباحاً . وكانت (بيسى) هى الشخص الوحيد الذى استيقظ إذ ذاك ، فأشعلت النار فى مدفأة غرفة الأطفال ، حيث شرعت فى إعداد فطور لى . وقليل من الأطفال هم الذين يستطيعون أن يأكلوا وهم تحت وطأة الانفعال الذى يبعثه التفكير فى رحلة ما .. وكذلك لم أستطع أنا . وعبثاً حاولت (بيسى) إن تحملنى على أن أتناول بضع ملاعق من اللبن المغلى والخبز اللذين أعدتهما لى ، فلفت بعض (البسكويت) فى ورقة دستها فى حقيبتى . ثم أعانتنى على ارتداء معطفى وقلنسوتى ، وبعد أن تدثرت هى بشال ، غادرت معى غرفة الأطفال .. فلما مررنا بمخدع مسز (ريد) ، قالت : « هلا دخلت فودعت السيدة ؟ » .

— لا يا بيسى ، فقد جاءت إلى سريرى ليلة أمس، عندما هبطت أنت لتناول العشاء ، وقالت إنه لا داعى لأن أزعجها فى الصباح ، أو أن أزعج أبناء خالى . ثم أضافت أننى يجب أن أذكر أنها كانت

دائماً خير صديقة لى ، ومن ثم فيجب أن أتحدث عنها بكل خير ، وأن أبدى عرفانى لصنيعها .

— وماذا قلت يا آنسة ؟

— لاشىء .. غطيت وجهى بغطاء السرير ، وأعرضت عنها مولية وجهى شطر الحائط !

— كان هذا التصرف خطأ منك يامس (جين) .

— بل هو الصواب بعينه يابيسى ، فما كانت سيدتك بصديقة لى ، بل إنها كانت عدوتى .

— أواه ، يامس (جين) ! .. لا تقولى هذا !

فصحت وقد اجتزنا البهو ووصلنا إلى الباب الخارجى : « وداعا يا جيتسهيد ! » :

وكان القمر قد غرب ، واشتد الظلام .. فحملت (بيسى) مصباحاً ، وقع ضوؤه على درجات مبتلة ، وطريق مكسوة بحصباء اخضلت بمياه جليد حديث الذوبان ، وكان الصباح الشتوى بارداً ، لاذع الزمهرير ، فأخذت أسنانى تصطك وأنا أسرع فى الدرب الموصل إلى السياج الخارجى . ولاح نور فى غرفة حارس الباب ، فلما بلغناها ، وجدنا زوجة البواب تشعل النار فى مدفأتها . وكانت حقيبة ثيابى — التى نقلت إلى هناك فى الليلة السالفة — جاثمة لدى الباب . ولم يكن قد بقى على الساعة السادسة سوى بضع دقائق . وبعد أن دقت الساعة بقليل انبعث من بعيد ضجيج عجلات ، مؤذناً بمقدم العربة .. فسرت إلى الباب ، وأخذت أرقب مصباحيها وهما يقتربان حثيثاً خلال الظلام .

وتساءلت زوجة البواب : « أراحلة هى وحدها ؟ » : فأجابت بيسى : « أجل » .

— وما طول المسافة التى ستقطعها ؟

— خمسون ميلا .

— يالها من مسافة طويلة ! ألا تخشى مسز ريد من أن تدعها تقطع مثل هذه المسافة وحدها ؟

ووقفت العربة لدى الأبواب الخارجية ، بجيادها الأربعة ، وسطحها المحمل بالركاب . وصاح الحارس والحوذى يستحثاننا بصوت عال ، فنقلت حقيبتى بسرعة ، ثم انتزعت من أحضان (بيسى) التى كنت قد تعلقت بعنقها ورحت أقبلها .. وصاحت هى فى الحارس ، وهى ترفعنى إلى جوف العربة : « اعتن بها وارعها جيداً » .. وكان الجواب : « أجل ، أجل ! » ، ثم أغلق الباب ، وصاح صوت : « هل كل شىء على ما يرام ؟ » ، وانطلقت بنا العربة !

وهكذا افترقت عن (بيسى) وعن (جيتسهيد) .. وهكذا طوَّح بى القدر إلى المجهول ، وإلى ما خلته — إذ ذاك — المناطق النائية الغامضة !

* * *

● ولست أذكر عن الرحلة إلا القليل . كل ما أدريه هو أن اليوم لاح لى طويلا ، طولا غير طبيعى ، وأننا — فيما بدا — كنا نطوى مئات الأميال ، إذ مررنا بعدة مدن ، وقفت العربة فى إحداها ، وكانت مدينة جد كبيرة ، ففكت الخيل عن العربة ، وهبط الركاب ليتناولوا

الغداء .. وحملت أنا إلى فندق صغير ، حيث شجعنى الحارس على أن أتناول بعض الطعام ، فلما أبيت لأننى لم أكن أشعر برغبة فى الأكل ، تركنى فى غرفة رحبة ، فى كل من طرفيها مدفأة ، وقد تدلت من سقفها ثريا ، وثبت إلى جدارها — على ارتفاع — صوان أحمر حافل بالآلات الموسيقية . ورحت أطوف بالمكان فترة طويلة ، وأنا أشعر بوحشة ضافية ، وبهاجس مستبد أوحى إلىَّ بأن ثمة من كان يوشك أن يأتى فيختطفنى ، إذ كنت أؤمن بوجود المختطفين ، لأن مغامراتهم كثيراً ما تخللت القصص التى كانت (بيسى) ترويها إلى جوار المدفأة.. وعاد الحارس أخيراً، فإذا بى أرفع مرة أخرى إلى العربة. وصعد (حارسى) إلى مقعده ، فنفخ فى بوقه المدوى ، وانطلقت العربة تدرج على الطريق المرصوفة بالأحجار ، مغادرة مدينة (ل ...) .

وأقبل الأصيل مشبعاً بالرطوبة ، يشيع فيه شىء من الضباب ، حتى إذا اقترب الغسق، بدأت أحس بأننا أصبحنا حقاً على بعد كبير من (جيتسهيد) ولم نعد نمر بمدن ما . وتغير الإقليم ، فبرزت عند الأفق تلال سمراء .. فلما اشتد الغسق ، هبطنا وادياً معتماً ، من تأثير غابة انتشرت فيه . وظللت فترة طويلة أسمع الرياح الهوجاء تندفع خلال الأشجار ، بعد أن حجب الظلام الرؤية عن الأبصار .. وما لبث الحفيف الرتيب أن أسلمنى فى النهاية إلى النعاس .

على أنه لم يمض طويل وقت على نومى ، حتى أيقظنى وقوف العربة فجأة . وفتح الباب فإذا امرأة تقف لديه وعليها سيماء الخدم . ورأيت

وجهها وثوبها على ضوء المصباحين ، بينما تساءلت هى : « هل توجد هنا صبية تدعى جين اير ؟ » . فأجبتها : « أجل » . وسرعان ما حملت إلى خارج العربة ، وأنزلوا حقيبتى ، ثم انطلقت العربة لتوّها . وكانت أطرافى قد تيبست لطول الجلوس ، كما أن ضجة العربة وحركتها شتتتا حواسى ، فرحت أستجمعها . وتلفت حولى ، فإذا المطر ، والريح ، والظلمة تملأ الجو .. ولكنى تبينت — مع ذلك — جداراً أمامى غير واضح المعالم ، وباباً مفتوحاً فيه . وخلال هذا الباب مررت مع مرشدتى الجديدة ، التى أغلقته وأحكمت رتاجه .. وتجلى لى إذ ذاك بيت ، أو بيوت — إذ كان المبنى ممتداً لمسافة طويلة — ونوافذ كثيرة ، يتألق الضوء فى بعضها . وسرنا فى درب مرصوف بحصباء ، كانت مياه المطر ما تزال تجرى عليها . ثم فتح لنا باب ولجناه ، وإذ ذاك قادتنى الخادم فى ردهة إلى حجرة تتلظى النار فى مدفأتها ، وهناك خلفتنى وحيدة .. فوقفت أدفىء — على وهج النار — أصابعى التى جمدها البرد ، ثم تلفت حولى فلم أر شمعة موقدة ، ومع ذلك فقد كان الضوء غير المستقر ، المنبعث من المدفأة ، يكشف على التناوب عن جدران مكسوة بالورق ، وطنافس ، وستائر ، وقطع أثاث من خشب (المهوجانى) اللامع . كانت الحجرة حجرة استقبال ، لا تضارع — سواء من حيث درجة اتساعها ، أو فخامتها — حجرة الجلوس فى (جيتسهيد) ، ولكن بها قدراً كافياً من أسباب الراحة . وكنت أحاول جاهدة أن أستبين معالم صورة على الحائط ، عندما فتح الباب ، ودخلت امرأة تحمل شمعة ، وفى عقبها امرأة أخرى :



وكنت أحاول جاهدة أن أستبين معالم صورة على الحائط عندما فتح البـاب ، ودخلت امرأة تحمل شمعة

وكانت أولاهما سيدة طويلة ، ذات شعر فاحم ، وعينين سوداوين ، وجبين عريض ، شاحب . وكان خصرها ملتفاً — من جانب — بشال ، وقسماتها مهيبة ، وقوامها منتصباً ، مستقيماً . وقالت وهى تضع شمعتها على منضدة : «إن الطفلة أصغر من أن ترسل وحيدة فى رحلة طويلة كهذه!» وتأملتنى باهتمام دقيقة أو اثنتين ، ثم أضافت قائلة : «يحسن وضعها فى الفراش عاجلا ، فهى تبدو متعبة .. أتشعرين بتعب ؟ » .. فأجبتها : « بعض الشىء ياسيدتى ! » .

— وما أراك إلا جوعانة كذلك ، بلا شك .. لتتناول بعض العشاء قبل أن تأوى إلى سريرها يا (مس ميلر) .. أهذه أول مرة تتركين فيها أبويك لتلتحقى بالمدرسة يا صغيرتى ؟

فأوضحت لها أننى بلا أبوين .. وسألتنى عن الوقت الذى انقضى منذ وفاتهما ، ثم عن عمرى ، وعن اسمى ، وعما إذا كنت أعرف القراءة ، والكتابة .. فأجبتها عن كل هذا ، وقلت إننى كنت أعرف أيضاً بعض مبادئ الحياكة ، فمست خدى بسبابتها فى لطف ، وقالت إنها ترجو أن أكون صبية طيبة ، ثم صرفتنى مع مس (ميلر) .

* * *

● ولابد أن السيدة التى فارقتها كانت فى حوالى التاسعة والعشرين ، أما التى انصرفت معى فكانت تصغرها ببضع سنوات . ولقد بهرتنى الأولى بصوتها ، ومظهرها ، والجو المحيط بها . أما مس (ميلر) فكانت أقرب إلى المرأة العادية ، وكانت بشرتها شديدة الاحمرار ، وإن بدا الأسى على محياها . وكانت سريعة فى حركاتها وتصرفاتها ، شأن من

أنيطت بها عدة أعمال . وكانت تبدو — كما وجدتها فعلا فيما بعد — مساعدة مدرسة .. ومررت ، وهى تتقدمنى ، من قسم إلى قسم ، ومن ردهة إلى ردهة ، فى مبنى كبير غير منتظم ، حتى إذا نفذنا من ذلك الجزء الكئيب ، الصامت ، الذى اجتزناه من المبنى ، اقتربنا من همهمة أصوات عديدة .. ولم نلبث أن ولجنا قاعة رحبة ، طويلة ، صفت فيها موائد كثيرة ، وفى كل من طرفى الغرفة كانت ثمة مائدتان تشتعل على كل منهما شمعتان .. وعلى مقاعد خشبية حول الموائد ، جلس جمع كبير من الفتيات من كافة الأعمار ، من التاسعة أو العاشرة حتى العشرين .. وإذ رأيتهن على ضوء الشموع الخافت ، خلت أن عددهن يجل عن الحصر ، وإن لم يكن — فى الواقع — قد تجاوز الثمانين فتاة ، وقد ارتدين زياً موحداً ، تألف من ثوب بنى اللون ، غريب الطراز ، ومريلة من قماش قطنى .. وكانت تلك ساعة الاستذكار ، وقد انهمكن فى أداء واجباتهن للغد ، وما كانت الهمهمة التى سمعتها سوى همساتهن وهن يكررن الدروس ليحفظنها عن ظهر قلب !

وأومأت لى مس (ميلر) كى أجلس على مقعد بقرب الباب ، ثم سارت إلى رأس القاعة ، وصاحت : « على العريفات (رئيسات الطالبات) أن يجمعن الكتب ويبعدنها ! » .. فنهضت أربع فتيات طويلات ، عن أربع موائد متباعدة ، وطفن بالطالبات يجمعن الكتب ويقصينها . وعادت مس (ميلر) تصيح بصوتها الآمر : « لتذهب العريفات ويحضرن صحاف العشاء ! » فغادرت الفتيات الطويلات القاعة ، وسرعان ما عدن وقد حملت كل منهن صحفة عليها فطائر لم

أدر ما كان فيها ، وقد نسقت الشطائر على الصحفة يتوسطها دورق
ماء وكوب .. ووزعت الشطائر على الفتيات ، وتناول من شئن منهن
جرعات ماء من الكوب التى كانت مشاعاً للجميع .. فلما حان دورى
شربت ، لأننى كنت ظامئة ، ولكننى لم أمس الطعام ، إذ أن الانفعال
والتعب جعلانى أصدف عن الأكل . وتبينت إذ ذاك أن الشطائر كانت
عبارة عن فطيرة رفيعة من الشوفان ، قسمت إلى أجزاء !

وما أن انتهى الأكل حتى أقيمت الصلاة ، وتولت مس (ميلر)
تلاوتها . ثم خرجت الفتيات مصطفات ، كل اثنتين معاً ، وصعدن
إلى الطابق العلوى . وفى هذه المرة كان الإرهاق قد غلبنى ، فلم أتبين
من معالم المكان الذى أعد للنوم سوى أنه كان كحجرة الاستذكار ،
طويلا جداً . وكان لى أن أشارك مس (ميلر) سريرها فى تلك الليلة ،
فساعدتنى على خلع ثيابى .. حتى إذا استلقيت على السرير ، ألقيت
نظرة على صف الأسرة الطويل ، فإذا كل سرير قد شغل بسرعة
بفتاتين . وبعد عشر دقائق ، أطفئ النور الوحيد فى المكان ، واستسلمت
للنوم وسط السكون ، فى غمرة الظلام الدامس .

* * *

● وانقضى الليل سريعاً ، وكنت من التعب بحيث لم يواتنى أى حلم
فى نومى ، ولم أستيقظ خلال الليل سوى مرة واحدة ، لأسمع الريح
تهب فى عنف أهوج ، والمطر يهطل دافقاً .. ولأشعر بمس (ميلر)
وقد اتخذت مكانها إلى جانبى . وعندما فتحت عينى مرة أخرى ، كان
ثمة جرس يدق عالياً ، وقد نهضت الفتيات وارتدين ثيابهن .. ولم يكن

ضوء النهار قد بزغ بعد ، بل كانت ثمة شمعة أو اثنتان من السمار
المغموس فى الدهن ، تضيئان الغرفة . ونهضت — بدورى — كارهة ،
فقد كان البرد قارساً ، فارتديت ثيابى بقدر ما سمح لى ارتعاشى ،
وغسلت وجهى عندما خلا أحد الأحواض — وهو ما لم يتحقق سريعاً ،
إذ لم يكن ثمة سوى حوض لكل ست فتيات ، وقد قامت هذه
الأحواض على حوامل فى وسط الغرفة — ودق الجرس مرة ثانية ،
فاصطفت الفتيات ، كل اثنتين متجاورتين ، وهبطن السلم على هذا
النسق ، فدخلن غرفة الدرس الباردة ، الخافتة الضوء . وهناك تلت
مس (ميلر) عليهن الصلاة ، ثم صاحت بعدها : « انتظمن فى
فصول ! » .. وأعقبت ذلك جلبة عالية لبضع دقائق ، كانت مس
(ميلر) تصيح خلالها : « صمتاً ! » .. « النظام ! » .. فلما خفتت
الجلبة ، رأيت الفتيات جميعاً قد انتظمن فى أربع دوائر ناقصة ، أمام
أربعة مقاعد وضعت أمام أربع مناضد .. وكن جميعاً يمسكن بكتب فى
أيديهن ، وقد استقر كتاب كبير كالتوراة على كل منضدة ، أمام
المقاعد الخالية . وساد الصمت بضع ثوان ، لا تعتكره سوى همهمات ،
فأخذت مس (ميلر) تنتقل من (فصل) إلى آخر لتسكت صاحبات
هذه الأصوات غير الجلية !

ورن جرس على مبعدة ، فدخلت الغرفة ثلاث سيدات على الفور ،
سارت كل منهن إلى منضدة ، وشغلت المقعد القائم أمامها .. وجلست
مس (ميلر) فى المقعد الخالى الرابع ، وكان أقرب المقاعد إلى الباب
وقد اجتمعت حوله أصغر الفتيات سناً .. وبهذا الفصل الصغير التحقت

أنا ، وأجلست فى نهايته .. وبدأ العمل المدرسى ، فألقت الفتيات ما وعينه من دروس اليوم السابق ، ثم تليت فصول من الإنجيل وقرأت الفتيات — على التوالى — فصولا أخرى من التوراة ، مما استغرق ساعة من الزمن . وإذ ذاك انتهت الفترة ، وكان ضوء النهار قد أشرق وفاض . ودق الجرس — الذى لم يكن يمل الرنين — للمرة الرابعة ، فسارت الفصول فى نظام إلى حجرة أخرى للإفطار ، وشد ما كان سرورى إذ سنحت الفرصة أخيراً لأصيب شيئاً من الطعام !.. فلقد كانت أمعائى فى تلك الأثناء تتلوى جوعاً ، لأننى لم آكل فى اليوم السابق شيئاً يذكر .

* * *

● وكان المطعم فسيحاً ، منخفض السقف ، معتماً ، وقد صفت على مائدتين طويلتين آنية حوت شيئاً ساخناً كان البخار يتصاعد منه ، وكم كان استيائى إذ ألفيت أن عبيره لا يثير الشهية . ولمحت استياء عاماً عندما صافحت أبخرة الطعام الخياشيم . ومن الصف المتتابع ، كانت الطويلات — طالبات الفصل الأول — هن البادئات بالهمس : « مقرف !.. لقد حرقت العصيدة مرة أخرى ! ».. فانبعث صوت آمر : « صمتاً ! » .. ولم تكن صاحبته مس (ميلر) ، وإنما كانت إحدى المدرسات اللائى يعلونها .. سيدة صغيرة القد ، سمراء ، أنيقة الملبس ، ولكنها ذات طلعة عابسة بعض الشىء . وكانت قد وقفت عند رأس إحدى المائدتين ، بينما ترأست على المائدة الأخرى سيدة ذات صدر ناهد . وعبثاً بحثت عن تلك التى رأيتها فى الليلة السابقة ،

إذ أنها لم تبد للأبصار . وشغلت مس (ميلر) الطرف القصى للمائدة التى جلست إليها ، بينما شغلت الطرف القصى للمائدة الأخرى سيدة مسنة ، ذات مظهر أجنبى غريب ، أدركت فيما بعد أنها مدرسة اللغة الفرنسية . وتليت صلاة طويلة ، كما أنشدت إحدى الترانيم ، ثم أحضرت خادم بعض الشاى للمدرسات .. وبدأ تناول الفطور .

وتحت ضغط الجوع ، والضعف ، ازدردت ملء ملعقة أو اثنتين من نصيبى من العصيدة . ولكن ، ما إن كسرت حدة الجوع ، حتى تبينت أن الطعام كان يثير الغثيان فى النفس ، فالعصيدة المحترقة (الشايطة) كالبطاطس العفنة ، لا يلبث الجوع نفسه أن يشمئز منها !.. وكانت الملاعق تتحرك فى بطء ، ورأيت كل فتاة تتذوق طعامها ثم تحاول أن تبتلعه ، ولكن المحاولة كانت — فى معظم الأحوال — تنتهى إلى عزوف . وانتهى وقت الإفطار ، ولما تفطر واحدة !.. وتلونا صلاة الشكر — عن شىء لم نحظ به — ثم أنشدت ترنيمة ثانية ، وأخلى المطعم بعد ذلك ، إذ عدنا إلى حجرة الدرس . وكنت من بين الأخيرات اللاتى غادرن المطعم . وفيما كنت أجاوز المائدتين ، أبصرت بإحدى المدرسات تتناول أحد أوعية العصيدة ، فتتذوق ما كان فيه ، ثم تنظر إلى الأخريات ، فإذا الاستياء يبدو على أساريرهن .. وهمست إحداهن وكانت ذات الصدر الضخم : « شىء مقرف !.. يا للخزى ! » .

وانقضى قبل أن تبدأ الدروس من جديد ، ربع ساعة ، كانت حجرة الدرس فيه تعج بالصخب ، إذ لاح أن من المباح الكلام بصوت عال ، ودون قيود ، فى تلك الفترة .: فاستغلت الفتيات هذه الإباحة !.

وكان الحديث كله يدور حول الفطور الذى ذمته الفتيات ، فرادى وجماعات . يا للمسكينات !.. كان هذا كل ما يتاح لهن من عزاء . وكانت مس (ميلر) هى المدرسة الوحيدة فى الفصل فى تلك الفترة ، فوقفت حولها الفتيات الكبيرات يتكلمن ويشرن فى غضب واستياء . وسمعت اسم مستر (بروكلهيرست) ينبعث من بين بعض الشفاه ، فهزت مس (ميلر) رأسها غير محبذة ، وإن لم تبذل أى مجهود جدى فى كبح الاستياء العام ، إذ كانت — دون شك — تشاركهن إياه !.. وما لبثت أن دقت ساعة فى حجرة الدرس معلنة التاسعة ، فغادرت مس (ميلر) الحلقة التى كانت تحيط بها ، ووقفت فى وسط الفصل صائحة : « صمتاً !.. إلى أماكنكن ! » :

وسيطر النظام ، فلم تنقض خمس دقائق حتى كان الحشد المستاء قد استقر ، وساد صمت نسبى خفف من ثرثرة الألسن . وما لبثت المدرسات الكبيرات أن اتخذن مجالسهن ، ومع ذلك فقد ظل يبدو على الجميع طابع الانتظار . وجلست الفتيات الثمانون معتدلات دون حراك ، على المقاعد المرتبة فى جانبى الحجرة .. ما كان أغربهن من مجموعة ! .. كلهن قد نسقن شعورهن على نسق خال من الزخرف ، وقد رفعنها عن جباههن ، فلم يفلتن خصلة واحدة .. وكلهن كن فى ثياب بنية اللون ، تصل إلى أعلى رقابهن وتلتف حولها بياقة محكمة ، وقد ربطت فى صدور ثيابهن أكياس صغيرة جعلت لتكون بمثابة أكياس التطريز .. وكلهن أيضاً كن يرتدين جوارب صوفية ، وأحذية صنعت فى الريف تزمها أقفال — (توكات) — نحاسية .. وكان من لابسات هذا الزى

أكثر من عشرين فتاة — مكتملات النمو ، أو شابات — فكان الزى لا يناسبهن ، بل يضفى منظراً عجيباً ، حتى على أجملهن !

* * *

● وكنت ما أزال أتأملهن ، وأنقل بصرى من آن لآخر إلى المدرسات اللاتى لم ترق لى أى منهن ، إذ كانت البدينة منهن — ذات الصدر الضخم — فظة بعض الشىء ، ولم تكن الضئيلة القد على قدر بسيط من الشراسة : أما الأجنبية فكانت خشنة الطباع ، غريبة الأطوار .. وأما مس (ميلر) ، فيالها من مسكينة !.. كانت تبدو محتقنة اللون ، تعانى من الجو ، ومن كثرة العمل .

كنت ما أزال فى تأملى هذا ، وعيناى تنتقلان من وجه إلى آخر ، حين نهضت المدرسة كلها دفعة واحدة ، وكأنما حركها زر واحد .. ترى ما الذى جرى ؟.. إننى لم أسمع أمراً يصدر !.. وتولتنى الحيرة : وقبل أن أستجمع شتات ذهنى ، كانت الفصول قد جلست ثانية ، ولكن ، لما كانت كل العيون متجهة نحو نقطة واحدة ، فقد اتخذت عيناى الاتجاه العام ، وإذا بهما تلتقيان بالسيدة التى استقبلتنى ليلة أمس : وكانت تقف فى نهاية القاعة الطويلة ، تتأمل صفى الفتيات فى صمت ووقار . واقتربت منها مس (ميلر) ، وكأنما سألتها فى أمر ما ، فلما تلقت جوابها ، عادت إلى مكانها وقالت بصوت مرتفع : « عريفة الفصل الأول .. أحضرى الكرات الأرضية ! » .

وبينما كانت العريفة تنفذ الأمر ، أخذت السيدة صاحبة المشورة تذرع الحجرة فى تؤدة ، وأعتقد أننى أوتيت قدراً كبيراً من روح

التقدير ، فما زلت أذكر الإعجاب الممزوج بالاحترام، الذى راحت عيناى تتبعان به خطواتها .. وإذ كنت أراها فى وضح النهار ، فى هذه المرة ، فقد تبينت أنها كانت تبدو طويلة ، ناصعة البياض ، ممشوقة القوام ، ذات عينين عسليتين ينبعث من إنسانيهما وميض ثاقب ، وتحيط بهما أهداب مرهفة ، طويلة ، منتظمة ، ويعلوهما جبين عريض. وعلى فوديها كان شعرها البنى ، الشديد الدكنة ، يتهدل فى خصلات ملتفة كالحلقات ، وفقاً للنسق الذى كان شائعاً فى تلك الأيام ، عندما كانت الإناث يعرضن عن الخصلات المسدلة ، وعن الحلقات الطويلة من الشعر .. كذلك كان ثوبها متسقاً مع النمط الشائع إذ ذاك ، وكان من قماش قرمزى ، تخفف من استرساله حواف من المخمل الأسود . وكانت تبرق عند خاصرتها ساعة ذهبية ـ ولم تكن الساعات إذ ذاك شائعة كما هى الآن ! ـ ولاستكمال الصورة ، ليضف القارئ إلى هذا قسمات حادة ، دقيقة ، وبشرة شاحبة ولكنها صافية ، ومظهراً رصيناً مهيباً .. فإذا جمع القارئ هذه الأوصاف ، تكونت لديه فكرة دقيقة ـ بقدر ما تملك الكلمات من إيضاح ـ لمظهر (مس تمبل) .. (ماريا تمبل) ، إذ رأيت اسمها الكامل فيما بعد مكتوباً على كتاب للصلوات عهدت إلىّ بحمله إلى الكنيسة .

* * *

• واتخذت (ناظرة) مدرسة (لوود) ـ فهكذا كانت وظيفة السيدة ـ مجلسها أمام زوج من الكرات الأرضية وضعتا على إحدى المناضد ، ثم دعت الفصل الأول ، فأحاطت بها التلميذات ، وشرعت

تلقى عليهن درساً فى الجغرافيا .. أما الفصول الصغرى ، فتولتهن المدرسات .. ومضى (تسميع) التاريخ ، والنحو ، وغيرهما ، زهاء ساعة .. ثم أعقبت ذلك دروس فى الكتابة والحساب ، كما تولت مس (تمبل) تلقين بعض الفتيات الكبيرات دروساً فى الموسيقى . وكانت مدة كل درس تحسب وفقاً للساعة ، التى ما لبثت أن دقت الثانية عشرة فى النهاية ، فنهضت الناظرة قائلة : « لدى كلمة أقولها للتلميذات » .. وكان ضجيج توقف الدروس قد ارتفع ولكنه سرعان ما خفت عند سماع صوتها ، فاستطردت تقول : « لقد قدم إليكن فى هذا الصباح فطور لم تستطعن تناوله ، ولابد أنكن جائعات ، لذلك أمرت بأن تقدم لكن جميعاً وجبة من الجبن والخبز » .

فالتفتت إليها المدرسات فى عجب ، فأضافت تشرح لهن : « سيكون ذلك على مسئوليتى » . ثم بارحت الغرفة لتوّها . وسرعان ما جىء بالخبز والجبن ووزعا على التلميذات ، فتلقتهما المدرسة بأسرها فى ابتهاج وغبطة . وما لبث أن انبعث الأمر : « إلى الحديقة ! » ، فارتدت كل فتاة قبعة من القش الخشن ، ذات أشرطة من الخيش الملون ، ووشاحاً من المخمل الخفيف الرمادى اللون . وجهزت أنا الأخرى بمثل هذا الزى ، ثم اتخذت طريقى فى أعقاب الصف إلى الهواء الطلق .

وكانت الحديقة فسيحة ، تحيط بها أسوار عالية إلى درجة تجعل أية نظرة مختلسة ضرباً من المستحيل . وكانت تمتد بطول أحد جوانبها شرفة مسقوفة . كما كانت ثمة ممرات عريضة تتوسط رقعة من الأرض

قسمت إلى عشرات من الأحواض .. وكانت هذه الأحواض حدائق مخصصة للتلميذات كى يزرعنها ، لكل تلميذة حوض . ولا مراء فى أنها كانت تبدو بديعة إذا ما امتلأت بالزهور ، ولكننا كنا فى أواخر يناير ، فكان كل شىء ذابلا ، يابساً . وارتجفت إذ وقفت وتلفت حولى .. كان يوماً زمهريراً لا يليق للتمرين خارج الدور . صحيح أنه لم يكن يوماً ممطراً ، ولكنه كان غائماً إذ غشيته عاصفة جليدية صفراء ، وكان كل ما تحت الأقدام ينضح بالمياه المتخلفة من سيول اليوم السابق ، وأخذت القويات من الفتيات يجرين ويقمن بمظاهر النشاط .. أما الشاحبات ، والنحيفات ، فقد انكمشن معاً لائذات بالشرفة ، يلتمسن الدفء .. وبين هؤلاء ، كثيراً ما سمعت صوت سعال أجوف كلما نفذ الضباب الكثيف خلال هياكلهن المرتجفة !

وكنت حتى الآن لم أتحدث إلى واحدة ، ولابد أن منهن من كانت تحفل بوجودى ، فظللت وحيدة تقريباً ، ولكنى كنت متعودة هذا الشعور بالعزلة ، فلم تكن وطأته علىّ شديدة . ومن ثم استندت إلى أحد أعمدة الشرفة ، وشددت أطراف عباءتى الرمادية حولى وحاولت أن أنسى البرد الذى كان ينخر عظامى ، والجوع الذى لم يحظ بإشباع ، والذى كان يقرص أمعائى ، وشغلت بالمشاهدة والتأمل . وكانت أفكارى غير محددة المعالم ، ولا يكاد يستحق التسجيل منها إلا القليل .. كنت لا أكاد أعرف أين أصبحت ، فبدا لى أن (جيتسهيد) وحياتى الماضية كانتا تسبحان أمامى فى الهواء ، على مسافة لا سبيل إلى قياسها.. وكان الحاضر مبهماً ، غريباً .. أما المستقبل ، فلم يكن بوسعى أن

أتكهن به . وأخذت أتلفت فى الحديقة الشبيهة بالصومعة ، ثم رحت أتأمل الدار . كانت مبنى كبيراً ، بدا نصفه مغبراً ، قديماً ، بينما كان النصف الآخر جديداً تماماً . وكان هذا الشطر الجديد يضم قاعة الدرس ، وقاعة النوم ، وينفذ الضوء إليه خلال نوافذ تقسمها قضبان حديدية إلى مربعات وأشباه مستطيلات منحرفة ، مما كان يطبع المبنى بطابع الكنائس . وكانت ثمة لوحة حجرية على الباب ، نقش عليها :

« معهد لوود . أنشأت هذا الجزء ، فى سنة (...) ميلادية ، (ناعومى بروكلهيرست) ، سيدة قصر (بروكلهيرست) ، فى هذه المقاطعة » .. وتحت هذه العبارة الآية التالية من الإنجيل (سفر القديس متى ، الإصحاح ١٦) : « دع نورك يشرق على الملأ كى يروا أعمالك الجليلة فيمجدوك ويمجدوا أباك الذى فى السماوات » .

* * *

● قرأت هذه الكلمات مراراً وتكراراً ، فشعرت بأن وراءها معنى ، ولكنى لم أستطع أن أنفذ تماماً إلى ما كانت تكنه . وفيما كنت مستغرقة فى تأمل معنى العبارة الأولى، أحاول أن أوفق إلى رابطة بينها وبين الآية المقتبسة عن الإنجيل ، حملنى صوت سعال جد قريب من ظهرى، إلى أن ألتفت، فرأيت بنتاً تجلس على مقعد حجرى قريب ، وكانت منحنية على كتاب، بدا أنها كانت مهتمة بمطالعته . وكان بوسعى أن أرى عنوانه من موقفى : (راسيلاس) .. اسم لاح لى غريباً، وبالتالى مشوقاً . وفيما كانت تقلب إحدى الصفحات ، تطلعت مصادفة ، فبادرتها قائلة : « هل كتابك مشوق ؟ » .. وكنت فى تلك الأثناء قد

عقدت العزم على أن أسألها أن تعيرنى إياه يوماً .. وأجابت بعد ثانية أو اثنتين كانت تتفحصنى خلالهما : « إننى أحبه » . فعدت أسألها : « وحول أى شىء يدور؟» .. ولا أكاد أدرى أين وجدت تلك الجسارة على فتح باب الحديث مع فتاة غريبة .. كانت الخطوة مناقضة لطبيعتى وعادتى ، ولكنى أحسب أن ما كانت البنت تشغل به نفسها ، مس وتراً حنوناً فى مكان ما من قلبى ، فقد كنت أنا الأخرى أحب القراءة ، وإن كان حبى لها فجاً ، صبيانياً ، إذ لم أكن أقوى على هضم أو فهم الكتب الجدية أو ذات الموضوع .

وأجابت الفتاة وهى تقدمه لى : « تستطيعين أن تلقى عليه نظرة » . وفعلت .. ولكن فحصاً سريعاً أقنعنى بأن محتوياته كانت أقل إغراء من عنوانه . فقد بدا (راسيلاس) لذوقى التافه غثاً ، إذ لم أر فيه شيئاً عن حوريات الأساطير ، أو الجن ، ولا شيئاً من المتنوعات البهيجة فى صفحاته التى طبعت بحروف صغيرة وسطور متقاربة .. وأعدته إلى الفتاة ، فتلقته فى سكون ، ودون أن تقول شيئاً ، وهمت بأن تعود إلى انهماكها السابق فى القراءة ، ولكنى تجاسرت مرة أخرى على إزعاجها ، متسائلة : « هل لك أن تخبرينى بما تعنيه الكتابة المنقوشة على ذلك الحجر الذى يعلو الباب ؟ .. ماهو معهد لوود ؟ » .

— هذه الدار التى جئت لتقيمى فيها .

— ولماذا يسمونها معهداً ؟ .. هل تختلف عن المدارس الأخرى فى أية ناحية ؟

— إنها مدرسة خيرية إلى حد ما . فأنت وأنا وكل الباقيات ، نتمتع بالمبرات ، وأحسبك يتيمة .. ألم يمت أبوك أو أمك ؟

— ماتا ، كلاهما ، قبل أن أعى شيئاً .

— حسناً ، كل الفتيات هنا رزئن فى أحد الوالدين أو فيهما معاً ، وهذه الدار تسمى معهداً لتعليم اليتيمات .

— ألسنا ندفع نقوداً ؟ .. هل يستبقوننا دون مقابل ؟

— إننا ندفع ، أو يدفع أصدقاؤنا لنا ، خمسة عشر جنيهاً فى العام عن كل فتاة .

— إذن فلماذا يسموننا : أولاد المبرات ؟

— لأن خمسة عشر جنيهاً لا تكفى لإقامتنا وتعليمنا ، ومن ثم فإن الباقى يتوفر من التبرعات .

— ومن الذى يتبرع ؟

— سيدات مختلفات ، وسادة من المناطق المجاورة ومن لندن ، جبلوا على الخير .

— ومن كانت (ناعومى بروكلهيرست) ؟

— السيدة التى أنشأت الشطر الجديد من هذه الدار — كما تذكر اللوحة — والتى يشرف ابنها ويدير كل شىء هنا .

— لماذا ؟

— لأنه أمين صندوق ومدير المؤسسة .

ـ إذن فهذه الدار ليست ملكاً للسيدة الطويلة التى تحمل ساعة ، والتى قالت إنها أمرت لنا بجبن وخبز ؟

ـ مس (تمبل) !.. آه ، لا !.. ليتها !.. إنها مسئولة أمام مستر بروكلهيرست عن كل ما تفعل، ومستر بروكلهيرست هو الذى يبتاع كل غذائنا ، وكل ثيابنا .

ـ وهل هو يقيم هنا ؟

ـ لا .. بل على ميلين من هنا ، فى قصر كبير .

ـ وهل هو رجل طيب ؟

ـ إنه من رجال الكنيسة ، ويقال إنه يقوم بكثير من أعمال الخير .

ـ هل قلت إن تلك السيدة الطويلة تدعى مس (تمبل) ؟

ـ أجل .

ـ وماذا تسمى المدرسات الأخريات ؟

ـ ذات الخدين الموردين تدعى مس (سميث) ، وهى تشرف على الحياكة وتقوم بالتفصيل ، لأننا نصنع ثيابنا ، وزينا المدرسى ، ومراولنا ، وكل شىء .. والضئيلة الجسم ، ذات الشعر الأسود هى مس (سكاتشيرد) ، وهى تلقى دروس التاريخ والنحو ، وتنصت لتلميذات الفصل الثانى عند (تسميع) الدروس . أما التى ترتدى شالا ، وتحمل منديلا مربوطاً إلى جانبها بشريط أصفر فهى مدام (بييرو) .. وهى من (ليل) بفرنسا ، وتدرس اللغة الفرنسية .

ـ هل تحبين المدرسات ؟

ـ إلى درجة لابأس بها .

ـ هل تحبين الصغيرة القد السمراء .. ومدام .. ؟ .. لست أستطيع أن أنطق باسمها كما تفعلين .

ـ إن مس (سكاتشيرد) سريعة الغضب ، فيجب أن تحذرى من أن تغضبيها .. أما مدام (بييرو) فليست سيئة .

ـ ولكن مس (تمبل) هى الأحسن .. أليست كذلك ؟

ـ إن مس (تمبل) طيبة جداً ، وماهرة جداً .. إنها فوق الأخريات ، لأنها أكثر مهن معرفة .

ـ هل قضيت وقتاً طويلا هنا ؟

ـ سنتين !

ـ وهل أنت يتيمة ؟

ـ لقد ماتت أمى .

ـ وهل أنت سعيدة هنا ؟

ـ إنك تكثرين جداً من الأسئلة ! لقد أزجيت إليك إجابات تكفيك فى الوقت الحاضر ، أما الآن ، فأريد أن أقرأ .

ولكن الدعوة للغداء انطلقت فى تلك اللحظة ، فعادت الفتيات جميعاً إلى داخل الدار ، وكانت الرائحة التى ملأت جو المطعم إذ ذاك لاتكاد تكون أكثر إثارة للشهية من تلك التى انسابت إلى خياشيمنا فى الإفطار . وقدم الغداء فى وعاءين هائلين من الصفيح ، انساب منهما



بخار عارم مشبع بعبير الدهن المصهور . وتبينت أن الوجبة كانت تتألف من بطاطس غير معنى بطهوها ، وشرائح غريبة المنظر من لحم معتم اللون ، وقد طبخا معاً . وقدمت لكل تلميذة من هذا الطعام كمية وفيرة ، فأكلت بقدر ما وسعنى ، وأنا أتساءل فى نفسى عما إذا كان طعام كل يوم على هذا الغرار ! .. وعدنا بعد الغداء مباشرة إلى قاعة الدرس ، فاستؤنفت الدروس ، واستمرت إلى الساعة الخامسة . وكان الحادث الوحيد الذى يستحق الذكر — فيما بعد الظهر — هو أننى رأيت الفتاة التى كنت قد تحدثت إليها فى الشرفة ، تقصيها مس (سكاتشيرد) من درس التاريخ خزيانة ، وتأمرها بأن تقف فى وسط حجرة الدرس الواسعة . ولاح لى العقاب مستهجناً إلى درجة فظيعة ، لاسيما لفتاة كبيرة مثلها — إذ كانت تبدو فى الثالثة عشرة أو أكثر — وتوقعت أن تظهر الفتاة أسى بالغاً وخزياً ، ولكنها — لدهشتى — لم تبك ، ولم يتضرج وجهها ، بل وقفت متمالكة نفسها ، وإن بدت عابسة ، وهى محط للأنظار . وساءلت نفسى : « كيف تحتمل الأمر بهذا الهدوء .. وهذه الرزانة ؟ .. لو أننى كنت فى مكانها لكنت — فيما أرى — أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعنى ! .. إنها تلوح كما لو كانت تفكر فى شىء غير عقابها .. غير موقفها .. فى شىء لايوجد حولها ، ولا أمامها . لقد سمعت عن أحلام اليقظة .. أفتحلم هى فى يقظتها الآن ؟ .. إن نظراتها مثبتة إلى الأرض ، ولكنى متأكدة من أنها لاتراها .. كأنما تحول بصرها إلى جوفها ، وغاص فى قلبها .. إنها تتأمل مافى ذاكرتها ، وليس ماهو حاضر فعلا ، فيما أعتقد .. ترى أى نوع من البنات هى ؟ .. أهى طيبة أم خبيثة ؟ » .

وسرعان ماتناولنا وجبة أخرى بعد الساعة الخامسة مساء ، وكانت تتألف من ملء قدح صغير من القهوة ، ونصف شريحة من الخبز الأسمر ، فالتهمت خبزى واحتسيت قهوتى فى تلذذ .. ولكنى كنت خليقة بأن أبتهج لو أننى حصلت على مزيد ، إذ كنت ما أزال جائعة ! .. وأعقبت الوجبة راحة لنصف ساعة ، ثم استذكار ، ثم كوب الماء ، وقطعة فطير الشوفان ، والصلاة فالفراش ..

وهكذا انقضى أول أيامى فى (لوود) !

* * *



الفصل السادس

● بدأ اليوم التالى ، كسابقه ، بالنهوض ، وارتداء الثياب على ضوء الشموع : ولكنا أعفينا فى صباحه من إجراءات الاغتسال ، إذ كانت المياه متجمدة فى الأباريق ، من أثر انقلاب فى الطقس حدث فى الليلة السابقة ، فقد هبت ريح شمالية شرقية زمهرير ، مضت تصفر خلال ثغرات نوافذ قاعة النوم طيلة الليل ، فجعلتنا نرتعد فى أسرتنا ، وأحالت محتويات الجرار إلى ثلج .. وقبل أن تنقضى الساعة ونصف الساعة المخصصة للصلوات وقراءة التوراة ، شعرت بأننى أوشك أن أهلك من البرد . وأخيراً ، حانت ساعة الإفطار ، ولم تكن العصيدة فى هذا الصباح محترقة ، بل كانت مستساغة ، وإن كانت الكمية صغيرة .. لكم بدا لى نصيبى ضئيلا .. ولشد ما وددت لو أنه تضاعف !

وسجل اسمى خلال النهار فى الفرقة الرابعة ، وأنيطت بى مهام وواجبات منتظمة .. فقد كنت من قبل مجرد متفرجة على الإجراءات المتبعة فى (لوود) ، أما الآن فأصبح علىّ أن أشترك فى العمل . وبدت لى الدروس طويلة وصعبة ، فى البداية ، إذ لم أكن قد ألفت الاستذكار عن ظهر قلب .. كذلك أربكتنى كثرة التنقل من عمل إلى عمل . واغتبطت عندما وضعت مس (سميث) بين يدى — حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر — قطعة من القماش الحريرى طولها ياردتان ، مع إبرة ووقاء للإصبع (كستبان) ، وما إليهما ، ثم أرسلتنى لأجلس فى ركن هادئ من قاعة الدرس ، بعد أن كففت طرفاً من القماش كى أعمل على نسقه .

وكانت معظم الأخريات ينصرفن إلى الحياكة فى تلك الساعة ، بيد أن طالبات إحدى الفرق ظللن وقوفاً حول مس (سكاتشيرد) يطالعن . ولما كان السكون شاملا ، فإن موضوع درسهن كان مسموعاً ، وكذلك طريقة كل فتاة فى القراءة ، وانتقادات مس (سكاتشيرد) أو نصائحها بصدد الإلقاء .. وكان الدرس فى التاريخ الإنجليزى ، ولاحظت بين القارئات الفتاة التى تعرفت إليها فى الشرفة .. وكان مكانها فى بداية الدرس فى مقدمة الفرقة ، ولكنها ما لبثت أن أرسلت إلى آخر الصف ، لخطأ ارتكبته فى النطق ، أو لعدم انتباه إلى مواضع الوقوف فى القراءة . ولم يعفها هذا التأخير من أن تجعلها مس (سكاتشيرد) موضع تعليقات مستمرة ، فكانت لاتفتأ تخاطبها بعبارات كهذه : « بيرنز (ويبدو أن هذا كان اسمها ، فإن البنات كن ينادين هنا بألقابهن ، كالأولاد فى كل مكان) .. بيرنز ، إنك تقضين على جانبى حذاءيك ، اعدلى كعبيك فى الحال » .. « بيرنز ، إنك تلوين ذقنك فى أبشع منظر ، فاعدليها ! » .. « بيرنز ، إننى أصر على أن ترفعى رأسك ، ولن أقبل أن تقفى أمامى بهذا الوضع » إلخ ، إلخ !

وقرأت الفتيات فصلا كاملا مرتين ، ثم أغلقن الكتب ، وبدأت المعلمة تختبرهن . وكان الدرس ينطوى على جزء عن عهد الملك (تشارلس الأول) ، وكانت ثمة أسئلة شتى بصدد حمولات السفن بالأطنان ، وبالأرطال ، وأسئلة أخرى عن الأجور ، فلاح أن معظم الفتيات عاجزات عن الإجابة ، ولكن كل سؤال عويص كان ينهار إذاما وصل إلى (بيرنز) ، وكأنما استوعبت ذاكرتها مادة الدرس



فبادرت المعلمة الى ضربها على عنقها بحزمة الفروع اثنتى عشرة ضربة

كله ، فكانت متأهبة للرد على كل نقطة ! .. وظللت أتوقع أن تطرى مس (سكاتشيرد) انتباهها ، ولكنها بدلا من ذلك ، صاحت بغتة : « يالك من فتاة قذرة ، منفرة ! .. إنك لم تنظفى أظفارك فى هذا الصباح ! » .. فلم تجب (بيرنز) .. وعجبت لصمتها ، فساءلت نفسى : « لماذا لاتوضح أنها لم تكن تملك أن تنظف أظفارها ، أو تغسل وجهها، لأن الماء كان متجمداً ؟ » .. واجتذب انتباهى صوت مس (سميث) ترغب فى أن أمسك حزمة من الخيط ، بينما انهمكت فى لفها ، وهى تكلمنى من آن لآخر ، متسائلة عما إذا كنت قد ذهبت إلى مدرسة من قبل، وعما إذا كنت أعرف غرز الرفو واللفق والحبك ، وما إليها .. ولم أستطع أن أتابع ملاحظتى لحركات مس (سكاتشيرد) .. إلى أن صرفتنى مس (سميث) عن مساعدتها ، فلما عدت إلى مقعدى ، كانت تلك السيدة تصدر أمراً لم أتبين موضوعه ، ولكن (بيرنز) غادرت غرفة الدرس فى الحال ، وذهبت إلى الغرفة الداخلية الصغيرة التى كانت الكتب تحفظ فيها، ثم عادت بعد نصف دقيقة تحمل حزمة من فروع الشجر مربوطة من أحد الأطراف ، وقدمت هذه الأداة الفظيعة إلى مس (سكاتشيرد) فى احترام بالغ، ثم فكت مرولتها فى صمت ودون أن تؤمر بذلك ، فبادرت المعلمة إلى ضربها على عنقها بحزمة الفروع اثنتى عشرة ضربة قوية ، دون أن تقفز إلى عينى (بيرنز) دمعة واحدة ! .. وبينما توقفت أنا عن الحياكة — لأن أصابعى أخذت ترتعش تحت عاصفة من الغضب العاجز ، غير المجدى ، لهذا المنظر — لم تغير قسمة من قسمات وجه (بيرنز) وضعها العادى ، فصاحت مس

سكاتشيرد : « يالك من جامدة عنيدة ! .. لاشيء يقوى على تقويم عاداتك القذرة .. اذهبي بالعصا من هنا ! » .. وأطاعت (بيرنز) .. وتفرست فيها وهى تغادر مخزن الكتب ، فإذا بها تدس منديلها فى جيبها ، وعلى خدها الناحل أثر لامع خلفته دمعة !

* * *

● ووجدت أن ساعة اللعب فى المساء هى أبهج فترات الفسحة فى (لوود) ، فى اليوم كله ، إذ تكون شريحة الخبز ، وقدح القهوة — اللذين نتناولها فى الساعة الخامسة — قد أنعشا نفوسنا، إن لم يكونا قد أشبعا جوعنا .. كما يكون إرهاق النهار الطويل قد خف ، وغرفة الدرس أدفأ جواً منها فى النهار ، بعد إذ أتيح لنيران مدفأتها أن تتوهج بقدر أكثر ، حتى تعوض — إلى حد ما — الحاجة إلى الشموع التى لا تكون قد جلبت بعد إلى القاعة .. فكانت الظلمة المشوبة بحمرة الوهج ، والصخب المباح ، واختلاط الأصوات العديدة ، يوحى للواحدة منا بشعور من التحرر مستحب ! .. وفى مساء اليوم الذى ضربت فيه مس (سكاتشيرد) تلميذتها (بيرنز) ، رحت أهيم كالعادة بين الفرق ، والمناضد، والجماعات الضاحكة، دون ما رفيق، ودون شعور بالعزلة مع ذلك ! .. فلما مررت بالنوافذ رحت من آن إلى آخر أرفع الستار الخشبى اللين (الحصيرة) ، وأطل على الخارج .. وكان الصقيع يتساقط منهمراً، وقد بدأ يتجمع خارج الألواح السفلى من زجاج النوافذ، فكنت ألصق أذنى بالنوافذ ، وأميز خلال الصخب المشابه لهدير الموج عويل الريح الثكلى فى الخارج !

وربما كانت تلك هى الساعة التى كنت قمينة بأن أحس فيها بلوعة الفراق فى أشد استعارها ، لو أننى اغتربت عن بيت طيب وأهل كرماء ! .. فقد كانت تلك الريح عندئذ كفيلة بأن تحزن فؤادى ، وكانت تلك الظلمة المدلهمة خليقة بأن تعكر صفوى . أما وتلك كانت حالى ، فقد استمددت من الريح والظلمة انفعالا غريباً ، مستهيناً ، محموماً ، فوددت لو أن الريح قست فى عوائها ، والظلمة تفاقمت ، والاضطراب استفحل إلى هياج !.. وشققت طريقى — قافزة فوق المقاعد، زاحفة إلى الموائد — إلى إحدى المدافئ ، وهناك وجدت (بيرنز) راكنة إلى جوار حاجز عال من السلك ، مستغرقة فى صمت ، منصرفة عن كل ماحولها ، فى رفقة كتاب كانت تقرؤه على وهج النار المعتم ، فسألتها وأنا أقترب من خلفها : « أهو راسيلاس فى هذه المرة أيضاً ؟» .. فقالت : « أجل .. لقد أوشكت أن أفرغ منه » . وإن هى إلا خمس دقائق حتى أغلقته ، فسررت لذلك ، وقلت لنفسى : « لعلنى الآن مستطيعة أن أحملها على الكلام » .. وجلست على الأرض بجانبها ، وسألتها : « ما اسمك الذى يسبق بيرنز ؟ » ، فأجابت : (هيلين) :

— هل وفدت من مكان بعيد عن هنا ؟

— جئت من مكان بعيد شمالا .. على حدود اسكتلندا تقريباً :

— وهل ستعودين إليه يوماً ؟

— آمل ذلك ، ولكن أحداً لا يملك أن يطمئن للمستقبل .

— لابد أنك تتمنين مفارقة (لوود) ؟



— لا .. ولماذا أتمنى ذلك ؟.. لقد أوفدت إلى (لوود) لأتعلم ، ولن يكون لرحيلى نفع ما لم أصب تلك الغاية .

— ولكن تلك المعلمة ، مس (سكاتشيرد) ، جد قاسية عليك !

— قاسية ؟ .. أبداً ! .. إنما هى صارمة ، تكره أخطائى .

— أما أنا ، فلو كنت فى مكانك لكرهتها ولقاومتها إذا هى ضربتنى بتلك العصا حتى آخذها منها وأكسرها تحت بصرها .

— ما أراك تفعلين شيئاً من هذا القبيل . أما إذا فعلته ، فإن مستر بروكلهيرست يفصلك من المدرسة ، وهذا ولا بد يحزن أقرباءك كثيراً . ومن الخير — كل الخير — أن يحتمل المرء بصبر عقاباً لن يحس به أحد سواه ، عن أن يرتكب تصرفاً متهوراً تمتد نتائجه السيئة إلى كل من له بك علاقة . وبجانب هذا فإن التوراة تأمرنا بأن نرد السيئة بالحسنة !

— ولكن يلوح ، مع ذلك أن من المعيب أن يضرب المرء ، وأن يؤمر بالوقوف فى وسط حجرة مليئة بالناس .. ثم إنك فتاة كبيرة ، ومع أننى أصغرك بكثير ، إلا أننى لا أطيق احتمال هذه المعاملة !

— إن احتمالها يغدو واجباً عليك، إذا لم يكن فى وسعك تفاديها . من الضعف والحماقة أن تقولى لى إنك « لا تستطيعين احتمال ماهو مقدور عليك أن تكونى مطالبة باحتماله » !

وكنت أستمع إليها فى عجب ، وأنا لا أستطيع إدراك هذا المذهب الذى يدعو إلى الاحتمال .. وكنت أقل فهماً وتقديراً للتسامح الذى أفصحت عنه نحو معذبتها . ومع ذلك فقد شعرت بأن (هيلين بيرنز) كانت تقدر الأمور على ضوء لا تبصره عيناى . وساورنى الشعور

بأنها ربما كانت مصيبة وأنا المخطئة ، ولكنى لم أشأ أن أتعمق فى تأمل المسألة ، بل آثرت أن أدعها جانباً إلى وقت مناسب . وتساءلت : « تقولين إن لك أخطاء ياهيلين ، فما هى ؟ .. إنك تبدين لى طيبة جداً » .

— إذن فتعلمى منى أنه لا ينبغى أن تحكمى بالمظاهر . إننى — كما وصفتنى مس سكاتشيرد — أميل للقذارة . ثم إننى نادراً ما أضع الأشياء فى مكانها أو أحتفظ بها فى نظام ، فأنا مهملة .. وأنا أنسى القواعد ، وأقرأ فى الوقت الذى ينبغى أن أستذكر فيه دروسى .. وليس لى أسلوب معين ، وأحياناً أقول — كما تقولين — إننى لا أستطيع أن أكون مستعبدة لإجراءات منظمة . وكل هذا يثير مس سكاتشيرد جداً ، فهى بطبعها نظيفة ، دقيقة ، ذات أسلوب معين محدد .

فأضفت : « وسريعة الغضب ، وقاسية » . ولكن هيلين بيرنز أبت أن تقر هذه الإضافة ، فظلت صامتة . وعدت أسألها : « هل مس تمبل قاسية عليك مثل مس سكاتشيرد ؟ » .. وطافت بوجهها العابس ابتسامة ناعمة عند ذكر اسم (مس تمبل) ، وقالت : « إن مس تمبل مفعمة بالطيبة ، وإنه ليؤلمها أن تقسو على أية واحدة ، ولو كانت أسوأ من فى المدرسة ! إنها ترى أغلاطى ، وتبصرنى بها فى لطف ، وإذا فعلت شيئاً يستحق الإطراء ، فإنها توفينى حقى دون إحجام . ومن أقوى الأدلة على النقص المشين الذى جبلت عليه أن عتابها — على رقته ، وقوته المنطقية — لم يؤثر علىّ إلى الدرجة التى تبرئنى من أغلاطى .. بل إن إطراءها ، برغم أننى أعتز به إلى أسمى درجة ، لا يستطيع أن يحفزنى

على العناية المستمرة وعلى بعد النظر . فقلت : « هذا عجيب :: إن الاعتناء أمر سهل » :

— لاشك عندى فى أنه كذلك بالنسبة لك ، فقد لاحظتك فى فرقتك هذا الصباح ، ورأيت أنك كنت شديدة الانتباه ، ولم يبد أن فكرك شرد إطلاقاً بينما كانت مس ميلر تشرح الدرس ، وتسألكن . أما عقلى ، فهو هائم دائماً . وعندما ينبغى علىّ أن أنصت إلى مس سكاتشيرد وأن أستوعب كل ما تقول فى انتباه ، كثيراً ما أفقد حتى رنة صوتها ، وأستسلم لنوع من الحلم ، فأخال نفسى أحياناً فى (نورثمبرلاند) ، وأن الأصوات التى أسمعها حولى هى خرير جدول صغير يجرى خلال (ديبدن) ، بالقرب من دارنا .. فإذا جاء دورى فى الرد على أسئلة المدرسة ، اضطررت إلى الاستيقاظ ، وبما أننى لا أكون قد سمعت شيئاً مما قرئ ، لا صغائى لجدول الأحلام ، فإننى لا أجد جواباً حاضراً !

— ومع ذلك ، فقد كنت موفقة فى الإجابات بعد ظهر اليوم !

— هذه مجرد مصادفة ، فإن الموضوع الذى كنا نطالعه راق لى ، وبدلا من أن أحلم بديبدن — بعد ظهر اليوم — رحت أعجب وأتساءل ، كيف يقدر لرجل كان يبغى الخير ، أن يتصرف بغير عدل ولا حكمة كما كان الملك تشارلس الأول يفعل فى بعض الأحيان ! وخطر لى أنه مما يرثى له ، أنه برغم استقامته وتقوى ضميره ، لم يستطع أن يمد بصره إلى أبعد من امتيازات التاج . ليته تمكن من أن ينظر إلى أبعد من ذلك قليلا ، فرأى كيف كانت تتجه روح العصر ، كما يسمونها ! .: على أننى — برغم ذلك — أحب تشارلس ، وأحترمه :: إننى أرثى لذلك

الملك المسكين القتيل ! .. أجل ، فإن أعداءه كانوا أسوأ منه ، إذ أراقوا الدم الذى لايملكون حق إراقته .. كيف تجاسروا على قتله ؟

وكانت (هيلين) قد انقلبت تحدث نفسها ، ونسيت أننى كنت لا أفهمها جيداً ، وأننى كنت جاهلة — أو ما يقرب من ذلك — بالموضوع الذى كانت تتحدث عنه . ورددتها إلى مستواى ، إذ سألتها : « وعندما تتولى مس تمبل التدريس لك ، هل تشرد أفكارك ؟ » .

— لا ، بالتأكيد .. لا تشرد كثيراً ، لأن مس تمبل أوتيت — بوجه عام — مادة جديدة ، أطرف من تأملاتى .. ولغتها تروق لى بدرجة فذة ، والمعرفة التى تانيها هى فى الغالب الشيء الذى أتوق إلى تحصيله !

— إذن ، فأنت مع مس تمبل تلميذة طيبة ؟

— أجل ، بطريقة سلبية ، إذ أننى لا أبذل جهداً ، وإنما أتبع ميلا يهدينى .. وليس لى أى فضل فى مثل هذه الطيبة !

— بل لك فضل كبير ، لأنك تكونين طيبة مع الذين يبدون طيبة فى معاملتك . إن هذا كل ما أصبو إليه . أما لو ظل الناس مهذبين ومطيعين لأولئك القساة الظالمين ، لسدر اللئام فى غيهم ، ولما شعروا بخوف على الإطلاق ، ومن ثم لما تغيرت حالهم ، بل لازدادت سوءاً ! .. فنحن عندما نصفع دون مبرر ، يجب أن نرد الصفعة بقسوة بالغة .. أجل ، إننى واثقة من أن هذا واجب .. ولتكن الصفعة من القسوة بحيث تعلم من يصفعنا ألا يعود إلى ذلك قط !

— لسوف تغيرين رأيك ، كما آمل ، عندما تكبرين .. أما الآن ، فأنت مجرد فتاة صغيرة ، غير متعلمة .

— ولكن هذا شعورى ياهيلين.. يجب أن أكره أولئك الذين يمعنون فى كراهيتى مهما أفعل لإرضائهم ! .. يجب أن أقاوم أولئك الذين يعاقبوننى ظلماً .. إنه أمر طبيعى .. كذلك ينبغى أن أحب أولئك الذين يبدون نحوى عطفاً ، وأتقبل العقاب عندما أشعر بأننى أستحقه !

— إن الوثنيين والقبائل الهمجية يؤمنون بهذا الرأى ، أما المسيحيون والأمم المتمدينة ، فينكرونه .

— وكيف ؟ .. إننى لا أفهم لذلك سراً !

— ليس العنف خير مايغلب الكراهية.. وليس الانتقام خير مايمحو الإساءة !

— فماذا إذن ؟

— اقرئى التوراة ، واعملى بما يقوله المسيح وانظرى كيف يتصرف.. اجعلى كلمته قاعدة لك ، ومسلكه مثالا تقتدين به .

— وماذا يقول ؟

— أحب أعداءك وبارك من يلعنك .. افعل الخير لمن يكرهونك ويسيئون استغلالك .

— إذن ، فعلىّ أن أحب (مسز ريد) ، وهو ما لا أستطيعه .. وعلىّ أن أبارك ابنها (جون) ، وهو أمر مستحيل !

وسألتنى هيلين بيرنز — بدورها — عما أعنى ، فشرعت أفضفض لها بقصة آلامى وأحقادى ، كما كنت أراها . وإذ أثارتنى المرارة والشراسة ، رحت أتكلم بوحى من شعورى ، دون ما تحفظ أو تلطف . وظلت هيلين تسمعنى صابرة ، حتى النهاية . وتوقعت أن تعلق على

ما قلت ، ولكنها لم تقل شيئاً . فسألتها نافدة الصبر : « حسناً ، أليست (مسز ريد) امرأة قاسية القلب ، سيئة ؟ » .

— لقد كانت غير رحيمة بك، دون شك، لأنها — كما ترين — تكره النوع الذى فطر عليه خلقك ، كما تفعل مس سكاتشيرد بالنسبة لى . ولكن ، ما أدق تذكرك لكل ما فعلت أو قالت ! .. وما أعجب وأعمق الأثر الذى خلفه ظلمها فى فؤادك ! .. لم تترك أية إساءة طابعاً مثل هذا على مشاعرى . ألا تكونين أسعد حالا ، لو أنك حاولت أن تنسى قسوتها ، والانفعالات المشبوبة التى تثيرها فى نفسك ؟ .. إن الحياة تبدو لى أقصر من أن تنفق فى تنمية البغضاء ، وتسجيل الأخطاء . إننا مثقلون — ولابد من أن نكون مثقلين — بالأخطاء فى هذه الحياة الدنيا ، سواء كأفراد ، أو فى مجموعنا ، ولكنا لن نلبث — فى وقت سيحين عما قريب ، فيما أعتقد — أن نتخلص من خطايانا إذا ما تخلصنا من أجسادنا المثقلة بالفساد .. سيهوى عنا كل درن وخطيئة ، مع هذا البدن المثقل .. ولن تبقى سوى جذوة الروح — الجوهر غير الملموس للحياة والفكر — نقية كما كانت حين غادرت الخالق لتنبث فى المخلوق .. ولسوف تعود من حيث أتت ، وربما أوفدت ثانية إلى مخلوق أرقى من الإنسان .. ربما انتقلت فى مراقى المجد ، من النفس البشرية الباهتة ، لتشرق فى ملاك ! .. ولكن ، هل من المؤكد أنها لن تتعرض لعكس هذا ، فتنحط من الإنسان إلى الجن ؟ .. لا ، لايمكن أن أومن بهذا . إنما أومن بعقيدة أخرى ، لم يعلمنيها أحد ، ونادراً ما أكشف عنها لأحد ، ولكننى أجد فيها غبطة ، وأتشبث بها ، لأنها تبسط الأمل للجميع .. فهى تجعل من

الحياة الأخرى راحة .. مقر طمأنينة ، وليست موطن فزع ، أو هوة سحيقة .. ثم إننى بهذه العقيدة أستطيع أن أميز بين المجرم وجريمته ، وفى وسعى أن أغفر للأول مخلصة ، بينما أستنكر الأخرى .. بهذه العقيدة لا يمكن للانتقام أن يضنى فؤادى إطلاقاً ، ولا يمكن للإهانة أن تثيرنى إثارة عميقة ، ولا يمكن للظلم أن يسحقنى أبداً .. وإنما أعيش فى هدوء ، أرتقب النهاية » .

ومع أن رأس (هيلين) تنحنى دائماً ، إلا أنها ازدادت انحناء على صدرها ، وهى تنهى جملتها . وأدركت من نظرتها أنها لم تعد راغبة فى الحديث معى ، وإنما أصبحت تؤثر أن تتحدث مع أفكارها الخاصة . على أنها لم تحظ بوقت كاف للتأمل ، إذ ما لبثت أن قدمت إحدى (العريفات) ، وكانت فتاة كبيرة ، خشنة ، فصاحت فى لهجة أهل (كمبرلاند) القاسية : « إذا لم تذهبى ياهيلين بيرنز فترتبى درجك ، وتطوى شغل الإبرة الخاص بك فى هذه الدقيقة ، فسأدعو (مس سكاتشيرد) لكى تلقى نظرة عليه ! » .

وتنهدت هيلين إذ تبدد خيالها ، ونهضت منصاعة لرغبة العريفة دون ما جواب أو إرجاء .

* * *

الفصل السابع

● بدا ربع العام الأول الذى قضيته فى (لوود) دهراً ، ولكنه لم يكن دهراً ذهبياً ، وإنما اشتمل على كفاح مضن مع العقبات التى كانت تعترض ترويض نفسى على النظم الجديدة ، والواجبات غير المألوفة . وكان خوف الفشل فى هذه الأمور أقسى إيلاماً لجسمى من المتاعب البدنية التى كان علىّ أن أحتملها ، وإن لم تكن بسيطة . وكان الجليد السميك يعوقنا عن أن نتحرك خطوة بعد أسوار الحديقة — اللهم إلا إلى الكنيسة — خلال يناير وفبراير وقسط من مارس .. وظللنا على هذه الحال ، حتى بعد ذوبان الجليد . ومع ذلك ، فقد كان علينا أن نقضى ساعة كل يوم فى الهواء الطلق ، داخل هذه الحدود . وكانت ملابسنا لا تكفى لحمايتنا من البرد الزمهرير ، ولم تكن لدينا أحذية ذات رقاب ، فكان الثلج يدخل فى أحذيتنا العادية ، ويذوب فيها .. وتجمدت أيدينا العارية وكساها (القشف) ، وكذلك أرجلنا . وإنى لأذكر تماماً الألم الذى كنت أعانيه فى كل ليلة من جراء هذه الحال ، عندما التهبت قدماى .. والعذاب الذى كان يتأتى من دس أصابع قدمى المتورمة ، الخشنة ، المتيبسة ، داخل الحذاءين فى كل صباح . ثم إن كمية الطعام الهزيلة كانت تبعث على الأسى ، إذ كنا — بنهم الأطفال فى طور نموهم — لا نكاد نصيب من الطعام ما يكفى لبقاء مريض ، هزيل ، على قيد الحياة ! .. وترتبت على هذا النقص فى التغذية ، عادة سيئة اشتدت وطأتها على التلميذات الصغيرات : كانت الفتيات الكبيرات الجائعات يحرمن الصغيرات من نصيبهن من الطعام ، بالإغراء أو بالوعيد ، كلما

سنحت لهن الفرصة ! وكم من مرة اقتسمت مع اثنتين من المغتصبات شريحة الخبز الأسمر الغالية التى توزع فى الساعة الخامسة مساء ، وبعد أن أقسم محتويات قدح القهوة إلى نصفين ، ثم أقسم النصف الذى يبقى لى إلى نصفين آخرين ، كنت أزدرد ما بقى لى مع الدموع المستترة ، التى ينتزعها الجوع من مقلتى !

وكانت أيام الأحد أياماً بغيضة فى ذلك الشتاء ، إذ كان علينا أن نسير مسافة ميلين إلى كنيسة (بروكلبريدج) ، حيث يؤدى راعينا الطقوس الدينية : وكنا نبدأ الرحلة ونحن نشعر بالبرد ، فنصل إلى الكنيسة وقد اشتدت علينا وطأته ، ولا نلبث أن نصبح شبه مشلولات خلال قداس الصباح . وكانت المسافة أبعد من أن نتمكن من قطعها والعودة إلى المدرسة قبل موعد الغداء ، ومن ثم كانت توزع علينا بين الطقوس وجبة من اللحم البارد والخبز ، بنفس التقتير الذى كان يراعى فى وجباتنا العادية ! وكنا نعود — بعد قداس بعد الظهر — خلال طريق جبلية مكشوفة ، تهب علينا رياح الشتاء القارسة ، التى تطوف بسلسلة من القمم الجليدية فى اتجاهها نحو الشمال ، فتهدأ جلود وجوهنا .. وما زلت أذكر مس (تمبل) وهى تسير فى خطى خفيفة سريعة ، بجوار صفنا المتداعى ، ضامة حول جسمها عباءتها التى كانت الريح الجليدية تداعبها ... وقد مضت تشجعنا وتضرب لنا المثل عملياً ، حتى نحتفظ بروحنا المعنوية ونسير قدماً ، مثل (الجنود البواسل) ، كما كانت تقول ! أما المدرسات الأخريات ، فيالهن من مسكينات !.. كن من التداعى والغم بحيث لا يقوين على محاولة إدخال البهجة على الآخرين !

وشد ما كان تلهفنا إلى ضوء النيران المستعرة وحرارتها عندما كنا نعود !.. ولكن هذا كان محرماً على الصغيرات ، على الأقل ، إذ سرعان ما كانت كل مدفأة فى قاعة الدرس تحاط بصفين من البنات الكبيرات ، وقد انكمشت خلفهن الصغيرات وهن يجذبن أطراف مراولهن على أذرعهن العجفاء .. وكنا نجد عزاء طفيفاً فى موعد الشاى ، متمثلا فى نصيب مضاعف من الخبز .: شريحة كاملة بدلا من نصف شريحة ، وقد أضيفت إليها طبقة خفيفة — ولكنها لذيذة — من الزبد.. تلك كانت المنحة الأسبوعية التى نتطلع إليها من الأحد إلى الأحد .. وكنت أجتهد عادة فى أن أحتفظ بنصف هذه الوجبة السخية لنفسى .. أما الباقى ، فكنت أضطر دائماً إلى التفريط فيه !.. وكنا نقضى مساء الأحد فى (تسميع) دروس الدين والإصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل (متى) عن ظهر قلب ، وفى الإصغاء إلى ترنيمة طويلة تنشدها مس (ميلر) التى كان تثاؤبها الملحاح يشى بتعبها .. وكثيراً ما كان يضاف إلى ذلك تمثيل جزء من (يوتيكس) ، تؤديه خمس أو ست من البنات الصغيرات ، اللاتى كن يسقطن — وقد غلبهن النعاس — من ثالث أو رابع طبقة من المقاعد المصفوفة بعضها فوق بعض ، فيحملن شبه أموات .. وكان العلاج يتمثل فى دفعهن إلى وسط حجرة الدرس ، وإجبارهن على أن يقفن هناك إلى أن تنتهى الصلاة ! وكانت أقدامهن تخونهن أحياناً ، فيتهالكن على الأرض ، وإذ ذاك تخف العريفات إلى استحثاثهن على النهوض !

* * *

• ولم أشر بعد إلى زيارات مستر (بروكلهيرست) ، فالواقع أن
هذا السيد كان بعيداً عن المنطقة خلال القسط الأكبر من الشهر الأول
الذى أعقب وصولى ، ولعله كان يطيل إقامته متعمداً مع صديقه
(الأرشيدوق) . وكان غيابه مبعث راحة لى ، وما أرانى بحاجة إلى أن
أذكر أسباب إجفالى من مقدمه .. ولكنه قدم فى النهاية !.. فبعد ظهر
ذات يوم — وكنت قد قضيت ثلاثة أسابيع فى (لوود) — كنت أجلس
وبين يدى لوح من الاردواز ، أعالج حل مسألة فى القسمة المطولة ،
وفيما كنت أرفع رأسى ، اتجه بصرى فى شرود نحو النافذة ، وإذا بى
ألمح شخصاً يمر ، وعرفت — بالغريزة — صاحب ذلك القوام الطويل ،
النحيل .. فلما وقفت المدرسة كلها — بما فى ذلك المدرسات — بعد
دقيقتين ، لم يكن ثمة ما يدعونى إلى التطلع كى أستوثق من الشخص
الذى نهضن تحية لمقدمه .. فقد طوت خطوة طويلة عرض حجرة الدرس ،
وسرعان ما انتصب إلى جوار مس تمبل — التى نهضت هى الأخرى —
نفس (العمود الأسود) الذى أطل علىّ فى نذير من فوق سجادة حجرة
الإفطار فى (جيتسهيد) !.. وأخذت أوجه نظرات مختلسة — من
جوانب عينى — نحو هذا النصب !.. أجل ، كنت على حق ، فقد
كان الزائر هو مستر (بروكلهيرست) ، وقد غاب جسمه فى معطف
وبدا أطول قامة ، وأقل عرضاً ، وأصلب عوداً من ذى قبل !

وكان لى من الأسباب ما يبرر استيائى من هذه الزيارة ، إذ ما زلت
أذكر الملاحظات المفتراة التى صدرت عن مسز ريد ، حول مسلكى
وخلقى ... إلخ .. والوعد الذى قطعه مستر بروكلهيرست على نفسه

بأن ينبه مس تمبل والمدرسات إلى خبث طبيعتى !.. وكنت طيلة الوقت
أخشى تنفيذ هذا الوعد .. كنت أرتقب فى كل يوم مجىء الرجل الذى
كانت بياناته عن ماضى حياتى كفيلة بأن تصمنى إلى الأبد بأننى فتاة
سيئة الخلق !.. وها هو ذا قد جاء ، ووقف إلى جوار مس (تمبل) ،
وراح يتكلم فى أذنها بصوت خفيض ! ولم أرتب فى أنه كان يفضى
إليها بخبثى .. ورحت أرقب عينها فى قلق أليم ، متوقعة فى كل لحظة أن
أرى إنسانها الأسود يتجه نحوى فى نظرة مستهجنة ، مزدرية . ورحت
أنصت !.. ولما كنت أجلس فى مقدمة الحجرة ، فقد التقطت معظم
ما قاله ، فسرعان ما تبددت هواجسى . إذ كان يقول : « أظن يا مس
تمبل أن الخيط الذى ابتعته من (لوتون) سيصلح . فقد خطر لى أنه
الصنف الذى يلائم الأقمصة الدمور ، كما عثرت على إبر مناسبة . ولك
أن تذكرى لمس سميث أننى نسيت أن أذكر إبر الرفو ، ولكنها لن
تلبث أن تتسلم كمية فى الأسبوع القادم ، وليس لها أن تعطى كل تلميذة
أكثر من إبرة واحدة ، فى أى وقت ، مهما يكن الداعى ، فهن إذا
وجدن أكثر من إبرة ، ملن إلى الإهمال ، وبددنها . ثم ، آه يا سيدتى !.
كنت أتمنى لو أن الجوارب الصوفية كانت أحسن منظراً !.. فعندما
كنت هنا آخر مرة ، ذهبت إلى حديقة المطبخ ، وفحصت الملابس
التى كانت منشورة على الحبل . كانت ثمة كمية من الجوارب السوداء
فى أشد الحاجة إلى رتق ، وقد تأكدت من حجم الثغرات أنها لم تكن
ترتق جيداً بين آن وآخر » .. وأمسك عن الكلام ، فقالت مس تمبل :
« سأعنى بتوجيهاتك يا سيدى » .. واستطرد قائلاً : « ولقد أخبرتنى

الغاسلة يا سيدتى ، أن بعض البنات يحصلن على ثوبين نظيفين فى الأسبوع الواحد ، وهذا كثير جداً ، إذ أن الأصول تحدد ذلك بثوب واحد ! » .

— أظننى أستطيع أن أشرح لك ذلك الظرف يا سيدى ، فقد دعيت (آجنس) و (كاثرين) و (جونستون) لتناول الشاى لدى بعض الصديقات فى (لوتون) فى يوم الخميس الماضى ، فسمحت لهن بأن يرتدين ثياباً نظيفة فى هذه المناسبة .

فهز مستر بروكلهيرست رأسه ، وقال : « حسناً ، يمكن التجاوز مرة ، ولكنى أرجو ألا تدعى الظروف تتكرر كثيراً . وهناك شىء آخر أدهشنى : لقد وجدت عند تسوية الحسابات مع مدبرة الدار ، أن وجبة من الخبز والجبن قدمت مرتين للبنات خلال الأسبوعين الماضيين . فكيف كان ذلك ؟.. إننى أرجع إلى اللوائح ، فلا أجد ذكراً لمثل هذه الوجبة . من الذى أدخل هذا التجديد ، وبأى حق ؟ »
فأجابت مس تمبل : « أنا المسئولة عن هذا التصرف يا سيدى ، فقد كان الفطور سيء الطهو ، حتى إن التلميذات لم يستطعن تناوله ، ولم أقو على أن أدعهن يمكثن صائمات إلى موعد الغداء ! » .

— اسمحى لى بملاحظة يا سيدتى : إنك ولابد تدركين أن فكرتى فى تربية هؤلاء البنات تقوم على عدم تعويدهن عادات الترف والبذخ ، بل ترويضهن على الخشونة ، والصبر ، وإنكار الذات . فإذا حدث شىء تافه طارئ يذهب برغبتهن فى الأكل — كإفساد الطعام أو التقتير

أو الإسراف فى (تسبيك) صنف — فلا ينبغى أن يعالج الحادث بإبدال الشىء المضيع بشىء مرفه ، وإلا أفسدنا الجسد ، وحدنا عن هدف هذا المعهد ! يجب أن يعمل على تحسين البنيان الروحى للتلميذات ، بتشجيعهن على أن يتذرعن بقوة النفس على تحمل الحرمان الموقوت . وإن محاضرة موجزة فى أمثال هذه الظروف لن تكون فى غير وقتها المناسب ، فإن المربية العاقلة تنتهز الفرصة لتشير إلى آلام المسيحيين الأوائل ، وإلى عذاب الشهداء ، وإلى نصائح السيد المسيح نفسه ، وهو يدعو رسله لأن يحملوا صليبهم ويتبعوه .. وإلى قوله : إن الإنسان لن يعيش على الخبز وحده ، وإنما على كل كلمة تنبعث من فم الله ، وإلى مواساته القدسية : « إذا عانيت الجوع أو العطش من أجلى ، فما أسعدك » .. أواه يا سيدتى ! .. إنك حين تضعين الخبز والجبن ، بدلا من العصيدة المحترقة ، فى أفواه هؤلاء الأطفال ، إنما تغذين فى الواقع أجسادهم الحسيسة ، ولكنك لا تفكرين كثيراً فى أنك تجيعين نفوسهم الخالدة !

وصمت مستر (بروكلهيرست) مرة أخرى ، ولعله كان يقاوم مشاعره . وكانت مس تمبل قد غضت بصرها حين شرع يتحدث إليها ولكنها الآن أخذت تحدق فيما أمامها بنظرة ساكنة ، وقد بدا أن وجهها — الشاحب فى لون المرمر عادة — قد اتخذ من هذا الحجر بروده ، وجموده .. لا سيما فمها الذى انطبق فكأنما كان يحتاج إلى إزميل نحات ليفتحه ، وجبينها الذى انعقد على عبوس قاس .. وكان مستر بروكلهيرست فى هذه الأثناء يتأمل المدرسة بأسرها فى جلال وعظمة ،

وقد وقف عند المدفأة ويداه خلف ظهره . وفجأة ، طرفت عينه ، وكأنها وقعت على شيء بهر مقلتها أو صدمها ، ثم التفت قائلا فى لهجة متسارعة أكثر من ذى قبل : « مس تمبل .. مس تمبل ، ما هــذه .. ما هذه الفتاة ذات الشعر المجعد ؟.. شعر أحمر يا سيدتى .. ومجعد .. مجعد من أوله إلى آخره ؟ » .. ومد عصاه مشيراً إلى الشيء الذى أزعجه ، وقد أخذت يده ترتجف . فقالت مس تمبل فى هدوء : « إنها جوليا سيفيرن » .

— (جوليا سيفيرن) يا سيدتى !.. ولماذا يكون لها أو لسواها شعر مجعد ؟.. لماذا تساير الحياة الدنيا علناً بهذا الشكل ، برغم كل مبدأ وخطة لهذه الدار — وهى مؤسسة إنجيلية ، خيرية — فتجعد شعرها من أوله إلى آخره ؟

فقالت مس تمبل ، وهى أهدأ من ذى قبل : « إن شعر جوليا مجعد بطبيعته ! » .. فهتف : « بطبيعته !.. ولكننا يجب ألا نرضخ للطبيعة . إننى أرغب فى أن تكون هؤلاء الفتيات متدينات ، فلماذا التساهل ؟.. لقد نبهت مراراً وتكراراً إلى أننى أريد الشعر منسقاً فى استرسال، وبساطة ، وخلو من الزخرف .. يجب أن يقص شعر هذه البنت عن آخره يا مس تمبل، وسأرسل غداً حلاقاً .. ثم إننى أرى فتيات أخريات ذوات شعور نامية أكثر مما ينبغى .. قولى لهذه الفتاة الطويلة أن تعتدل .. قولى لكل الفرقة الأولى أن تنهض ، فتولى وجوهها شطر الحائط ! » .

ومرت مس تمبل بمنديلها على فمها وكأنها تمحو الابتسامة التى ارتسمت على الرغم منها عليه، ثم أصدرت الأمر .. فلما أدركت بنات الفرقة الأولى ما يراد منهن، أطعن . وإذ ملت قليلا إلى الوراء — فى مجلسى — استطعت أن أرى الغمزات والابتسامات الساخرة التى عقبن بها على هذا العمل .. ومن المؤسف أن مستر (بروكلهيرست) لم يكن يستطيع أن يرى ذلك ، هو الآخر ، وإلا فلعله كان يدرك أنه مهما يفعل بالمظهر الخارجى للكوب والطبق .. فإن الجوف بعيد عن متناوله بأكثر مما كان يخال !.. وراح يتمعن فى ظهور تلك التماثيل الحية زهاء خمس دقائق ، ثم نطق بحكمه . ووقعت كلماته كالصاعقة : « يجب أن تقص كل فتاة هذه الخصلات العليا » .. ولاح على مس (تمبل) الانزعاج ، فقال : « إن لى سيداً يا سيدتى ، يجب أن أخدمه ، وليست مملكته فى هذه الدنيا .. إن رسالتى هى أن أقتل فى هؤلاء الفتيات كل شهوات الجسد ، وأن أعلمهن كيف يكسين أجسادهن فى حشمة واعتدال ، فلا يظهرن بشعور منمقة ، وثياب فخمة . ما من فتاة من هؤلاء الصغيرات إلا ولديها خصلة من شعر مجعدة فى زينة ، ولعل الغرور نفسه هو الذى عقصها !.. إننى أكرر أن كل هذا يجب أن يقص .. فكرى فى الوقت الذى تبدد فى ... » . وقطع عليه حديثه دخول ثلاث زائرات ، كان خليقاً بهن أن يصلن قبل تلك اللحظة ، ليسمعن محاضرته عن المظهر ، إذ كن متسربلات بثياب فخمة من المخمل والحرير والفراء !.. وكانت أصغر اثنتين من الثلاث ، وهما فتاتان رقيقتان فى السادسة عشرة والسابعة عشرة ، ترتديان قبعتين من

الفراء الرمادى – كما كان الطراز الشائع إذ ذاك – وقد زانهما ريش الطاووس . ومن تحت حواف هاتين القبعتين الأنيقتين كانت تنسدل خصل من الشعر الخفيف ، مجعدة فى عناية بديعة . أما السيدة الكبيرة ، فكانت متشحة بشال مخملى ثمين ، زركشت أطرافه ، وقد ارتدت قلنسوة من شعر مستعار ، نسق على النمط الفرنسى !

* * *

● استقبلت مس (تمبل) السيدات باحترام – بوصفهن مسز بروكلهيرست وابنتيها – ورافقتهن إلى مقاعد الشرف فى صدر الحجرة. وبدا أنهن جئن فى العربة مع قريبهن الموقر ، فاقتدن فى جولة لتفقد حجرات الطابق الثانى ، بينما كان هو يحاسب مدبرة الدار ، ويسأل الغاسلة ، ويلقى محاضرته على الناظرة . ولم يلبثن أن شرعن فى إبداء مختلف الملاحظات والانتقادات لمس (سميث) التى كانت موكلة بالعناية بالبياضات ، وبتفقد حجرات النوم . ولكنى لم أجد وقتاً للإنصات إلى ما كن يقلن ، إذ أسرت انتباهى شئون أخرى . كنت أثناء التقاط حديث مستر بروكلهيرست ومس تمبل – من قبل – لم أغفل اتخاذ الحيطة لضمان سلامتى الشخصية ، التى خيل إلىَّ أنها تغدو معرضة للخطر إذا أنا استلفت الانتباه ! ومن أجل هذه الغاية انكمشت فى المقعد، وبينما كنت أتظاهر بالانهماك فى مسألتى الحسابية ، أمسكت لوحى الاردوازى بطريقة تخفى وجهى. ولعلنى كنت أفلت من الانتباه لولا أن لوحى الغادر انزلق من يدى بطريقة ما ، فوقع محدثاً جلبة اجتذبت الأنظار نحوى مباشرة !.. وأدركت أن كل شىء قد انتهى ،

فانحنيت ألتقط حطام اللوح ، واستجمعت قواى لأسوأ ما يأتى به الظرف.. وسرعان ما أتى !.. فقد قال مستر بروكلهيرست : « ياها من بنت مهملة ! » .. ثم أردف فى الحال : « أرى أنها التلميذة الجديدة » .. وقبل أن أتمالك نفسى ، قال : « يجب ألا أنسى أن لدى كلمة بشأنها » .. ثم استطرد بصوت أعلى – وأيما علو ! – : « لتأت الطفلة التى كسرت اللوح إلى هنا ! » .

وما كنت لأقوى على الحراك من تلقاء نفسى ،إذ شل حراكى ، ولكن البنتين الكبيرتين ، اللتين كانتا تجلسان إلى جانبى – من الناحيتين – أوقفتانى على ساقى، ودفعتانى نحو القاضى الرهيب . وإذ ذاك ساعدتنى مس تمبل فى رفق لأقف أمامه، وسمعتها تهمس مسرية عنى :«لا تخافى يا جين ، لقد رأيت أن الأمر كان عفواً .. لن تعاقبى ! » .. وغاصت الهمسة اللطيفة فى قلبى كالخنجر !.. وجال بخاطرى :« أنها لن تلبث بعد دقيقة أن تحتقرنى كفتاة غشاشة ! » .. وانسابت فى عروق نفثة من حقد نحو (ريد) ، و (بروكلهيرست) ، وشركائهما ، إذ ذاك ، فقلت لنفسى إننى لست على غرار (هيلين بيرنز) .. بينما قال مستر بروكلهيرست، مشيراً إلى مقعد مرتفع ، غير ذى ظهر أو مسندين ، نهضت عنه إحدى العريفات : « أحضرن هذا المقعد » .. فجىء بالمقعد !.. وقال: « أجلسن الطفلة عليه ! » .. فرفعت إليه، وإن لم أدر من التى رفعتنى ، فما كنت فى حال ألاحظ معها مثل هذه التفصيلات ، وغاية ما هنالك أننى أحسست بنفسى أرفع إلى ارتفاع أنف مستر بروكلهيرست ، وأبصرت أنه على قيد ياردة منى ، وأن

مساحة من أقمشة حريرية برتقالية وقرمزية انتشرت أمامى ، وغمامة من ريش فضى امتدت مرفرفة تحتى .. وقال مستر بروكلهيرست وهو يلتفت لأسرته : « أيتها السيدات ، ويا مس تمبل ، وأيتها المدرسات والتلميذات ، هل تبصرن جميعاً هذه البنت ؟ » .. وكن يبصرننى بالطبع إذ كنت أشعر بأعينهن موجهة نحوى ، وكأنها عدسات حارقة تكوى جلدى ! .. واستطرد يقول : « إنكن ترين أنها ما تزال صغيرة ، وتلاحظن أن لها شكل الطفولة العادى ، إذ أنعم الله عليها بنفس الشكل الذى أضفاه علينا جميعاً ، فليس هناك عيب واحد يميزها عنا بميزة ملحوظة . فمنذا الذى يتصور أن الشر قد وجد فيها خادماً ومعيناً ؟.. ومع ذلك ، فشد ما يحزننى أن أقول إن هذا هو الواقع ! » .

وسكت هنيهة ، رحت خلالها أتأمل نبض عروقى ، وأنا أشعر بأن الخطوة الحاسمة قد تمت ، وأنه ما دام لم يعد ثمة سبيل لتفادى المحاكمة ، فمن الواجب أن أصمد لها !.. وعاد رجل الدين الرخامى الأسود ، يقول فى تحمس : « يا بناتى العزيزات ، إن هذه مناسبة محزنة ، مؤلمة ، إذ أصبح من واجبى أن أنذركن بأن هذه البنت ، التى كان من الممكن أن تكون واحدة من حملان الله ، ليست سوى مارقة صغيرة .. ليست من القطيع الإلهى الحقيقى ، وإنما هى فى الواقع دخيلة وأجنبية عنه .. فعليكن أن تحذرنها ، وأن تعرضن عن مثلها ، وإذا دعت الضرورة ، فتحاشين صحبتها ، واقصينها عن ألعابكن ، واحرمنها من أحاديثكن . وأنتن أيتها المدرسات : يجب أن تراقبنها ، وأن تجعلن أعينكن على حركاتها ، وأن تعنين بوزن كلماتها ، وأن تفحصن بدقة

تصرفاتها ، وأن تعاقبن جسدها ، لإنقاذ روحها .. إذا كان مثل هذا الإنقاذ ممكناً حقاً ، لأن — وكم يتلعثم لسانى إذ أقولها — لأن هذه البنت ، هذه الطفلة ، المواطنة فى أرض مسيحية ، أسوأ بكثير من أية كافرة صغيرة ترفع صلاتها إلى (براهما) ، وتركع أمام (جودجرناوت) .. هذه البنت .. كذابة ! » .

وأعقب ذلك صمت دام عشر دقائق ، رحت أتأمل خلالها — وقد استعدت كل حواسى — جميع إناث أسرة بروكلهيرست الموجودات ، وهن يخرجن مناديلهن الصغيرة ، فيرفعنها إلى عيونهن ، وقد أخذت السيدة الكبيرة تهتز إلى الأمام وإلى الخلف ، والصغيرتان تتهامسان : « ما أغرب هذا ! » .. واستأنف مستر بروكلهيرست قائلا : « هذا ما علمته من ولية نعمتها .. من السيدة التقية ، البارّة ، التى كفلتها فى تيتمها ، فربتها كابنتها .. والتى قابلت الفتاة التعسة كرمها وسخاءها بعقوق بلغ من السوء والبشاعة أن اضطرت ولية نعمتها النبيلة — فى آخر الأمر — إلى فصلها عن أبنائها ، خشية أن يلوث مسلكها الفاسد طهرهم ونقاءهم . ولقد أرسلتها إلى هنا لتعالج ، تماماً كما كان اليهود فى الماضى يرسلون الموبوئين إلى بحيرة (بتيسدا) الجارية المياه .. وإنى لأرجوكن أيتها المدرسات ، وأيتها الناظرة ، ألا تسمحن للمياه بأن تركد حولها » .. ومع هذه الخاتمة الرائعة ، أصلح مستر بروكلهيرست وضع الزر العلوى لمعطفه ، وغمغم بكلمات إلى أسرته ، فنهضن وأومأن برءوسهن تحية لمس تمبل ، ثم خرج علية القوم فى جلال من الغرفة. وإذ بلغ (قاضى) الباب ، التفت قائلا : « اتركنها تقف نصف ساعة

فوق ذلك المقعد ، ولا تسمحن لأحد بأن يكلمها خلال ما بقى من ساعات اليوم » .

وهكذا أصبحت أقف عالياً ، أنا التى قلت من قبل إننى لا أقوى على أن أحتمل الوقوف العادى على قدمى فى وسط الحجرة .. أصبحت عرضة لأنظار الجميع ، على منصة الخزى !.. أما كيف كانت مشاعرى ، فهذا ما لا قبل للغة بوصفه ، ولكن .. بينما جاشت هذه المشاعر تخنق أنفاسى وتسد حلقى ، أقبلت فتاة فمرت بى ، ورفعت فى مرورها عينيها ، فما كان أغرب الضوء الذى أومض فيهما !.. وأى شعور خارق بعثه فى أعماقى هذا الوميض !.. لكم رفعنى هذا الشعور الجديد عالياً !.. كأنما مر شهيد، بطل ، بعبد مستضعف أو ضحية ، فبث فيه قوة وجلداً .. وإذا بى أتغلب على الانفعال الجنونى، فأرفع رأسى ، وأعتدل فى وقفتى على المقعد . وإذ وجهت (هيلين بيرنز) سؤالا تافهاً عن شغل الإبرة إلى مس (سميث) — كحجة لمغادرة مقعدها والمرور بموقفى — تلقت تأنيباً على تفاهة السؤال ، فعادت إلى مكانها ، وابتسمت لى فى عودتها .. وأى ابتسامة !.. إننى ما زلت أذكرها ، وإنى لأدرك أنها كانت فيض إدراك مرهف ، وشجاعة صادقة .. كانت ابتسامة أضاءت ملامحها الدقيقة ، ووجهها الناحل ، وعينيها المغبرتين الغائرتين ، وكأنها انعكاس أنوار أحد الملائكة !.. ومع ذلك فقد كانت (هيلين بيرنز) تحمل فى ذلك الوقت شريطاً حول ذراعها، يصمها بأنها مهملة .. ولم تكن قد مضت ساعة على سماعى مس سكاتشيرد تقضى عليها بأن يكون غداؤها فى الغد خبزاً وماء ، لأنها

أسقطت المداد على الكراسة وهى تنقل أحد الدروس : هكذا هى طبيعة البشر .. طبيعة ناقصة !.. إن مثل هذه العيوب التافهة لأشبه بالبقع التى ترى على وجه أنصع الكواكب صفاء .. ولكن عينين كعينى مس سكاتشيرد ، لا تريان سوى تلك العيوب البسيطة على وجه الكوكب ، وتعميان عن تألقه الكامل !

* * *



الفصل الثامن

● ما إن انتهى نصف الساعة ، حتى دقت الساعة معلنة الخامسة ، فانصرفت المدرسة ، وذهب الجميع إلى المطعم لتناول الخبز والقهوة . وجسرت إذ ذاك على الهبوط عن المقعد . وكانت العتمة تشتد، فأويت إلى ركن ، وجلست على الأرض .. كانت نوبة الشجاعة التي لازمتني حتى ذلك الوقت قد بدأت تنصهر وتذوب ، فحل محلها رد الفعل ، وسرعان ما دفعني الأسى الجائح الذى استبد بى ، إلى أن أنكفىء على الأرض.. ورحت أبكى !.. ولم تكن هيلين بيرنز موجودة ، فلم يكن ثمة ما يكبحنى عن البكاء ، فأسلمت نفسى له ، وراحت دموعى تروى أخشاب الأرض . لقد كنت أعتزم ألا أكون صالحة ، طيبة ، وأن أعوض فى (لوود) الكثير مما فاتنى ، فأتخذ كثيراً من الصديقات وأظفر بالاحترام ، وأكسب العطف . ولقد أحرزت بالفعل تقدماً ملحوظاً فى هذا الصدد، واستطعت فى صباح هذا اليوم بالذات أن أغدو على رأس فرقتى ، فأطرتنى مس ميلر بحرارة ، وابتسمت مس تمبل مكافأة لى ووعدت بأن تعلمنى الرسم ، وأن تسمح لى بتعلم اللغة الفرنسية ، إذا ظللت أحرز مثل ذلك التقدم لمدة شهرين .. وإذ ذاك ، أحسنت زميلاتى استقبالى، فعاملتنى قريناتى فى السن معاملة الند للند ، ولم تتحرش بى أية فتاة . أما الآن، فها أنذا أرتمى مرة أخرى، مهانة، محطمة ، أفأملك أن أنهض مرة أخرى ؟.. وهمس خاطر فى نفسى : « أبداً ! » .. ووددت مخلصة لو أننى مت . وفيما كنت أهتف بهذه

الرغبة باكية ، بصوت متهدج ، اقترب منى شخص ما ، فأجفلت .. ومرة أخرى ، وجدت (هيلين بيرنز) قريبة منى .. وكشفتها النار المحتضرة فى المدفأة وهى تقترب خلال الغرفة الخالية ، وقد حملت إلىّ قهوتى وخبزى . وقالت : « هيا ، كلى ! » .. ولكنى أقصيتهما معاً عنى ، وأنا أشعر بأن قطعة واحدة من فتات الخبز كفيلة بأن تخنقنى فى حالى تلك . وتأملتنى هيلين ؛ ولعلها كانت فى عجب من أمرى .. ولم أعد أتمالك انفعالى ، برغم أننى حاولت جاهدة ، فواصلت البكاء مجهشة . وجلست هى على الأرض بجوارى، محتضنة ركبتيها بذراعيها مسندة رأسها إليهما. وظلت على هذا الوضع صامتة ، كهندية مستغرقة فى التأمل !

وكنت البادئة بالكلام ، فقلت : « لماذا تمكثين يا هيلين مع فتاة يعتقد كل امرئ أنها كذابة ؟ »

— كل امرئ يا جين ؟.. كيف ، وليس هناك سوى ثمانين شخصاً سمعوا هذا الوصف يطلق عليك .. فى حين أن الدنيا تسع مئات الملايين ؟

— وما شأنى بالملايين ؟.. إن الثمانين اللائى أعرفهن يحتقرننى !

— أنت مخطئة يا (جين) .. بل من المحتمل أن ليس فى المدرسة واحدة تزدريك أو تكرهك .. إننى واثقة من أن كثيرات يرثين لك كثيراً .

— وكيف يرثين لى بعد الذى قاله مستر بروكلهيرست ؟

— إن مستر بروكلهيرست ليس إلهاً، بل إنه ليس رجلا عظيماً، موضع إعجاب وفخر .. إنه لا يحظى بكثير حب هنا ، فهو لا يتخذ قط أية خطوات تحببه إلينا . ولو أنه عاملك فى إيثار خاص، لوجدت عداء سافراً أو مستتراً يحيط بك من كل جانب .. أما وهذه هى الحال فإن أكثرهن لن يحجمن عن إبداء العطف لك ، إذا استطعن .. لقد ترمقك المدرسات والتلميذات فى فتور ليوم أو اثنين ، ولكن فى قلوبهن ود مستتر ، ولو أنك واظبت على التحسن، فإن هذه العواطف لن تلبث حتى تظهر، وستكون أكثر جلاء بقدر ما هى مكبوتة فى الوقت الحاضر . وبجانب هذا يا (جين) ..

وأمسكت ، فوضعت يدى فى يدها متسائلة : « ماذا يا هيلين؟ ».. فأخذت تدلك أصابعى فى رفق لتدفئها ، ثم قالت : « مهما كرهتك الدنيا بأسرها ، واعتقدت أنك خبيثة ، فلن تعدمى الأصدقاء طالما كان ضميرك يقر مسلكك ، ويعفيك من الذنب ! » .

— لا .. إننى أوقن من أننى أحسن الظن بنفسى ، ولكن هذا لا يكفى ، فإننى أوثر الموت على الحياة إذا لم يحبنى الآخرون .. إننى لا أطيق أن أكون وحيدة ، ومكروهة ، يا هيلين .. انظرى إلىّ ، إننى — حرصاً منى على الفوز ببعض الحب الحقيقى منك ، أو من مس تمبل ، أو من أى شخص آخر ممن أحبهم حقاً — أتقبل راضية أن يكسر عظم ذراعى ، أو أن أدع ثوراً ينطحنى ، أو أن أقف خلف حصان جموح يركل ، وأتركه يدفع حافره فى صدرى !

— صه ياجين !.. إنك تبالين بحب البشر أكثر مما ينبغى !.. إنك مندفعة فى عواطفك وتحمسك كثيراً .. إن اليد العليا التى خلقت هيكلك، وأودعته الحياة ، قد أمدتك بموارد أخرى غير نفسك الضعيفة ، وغير المخلوقات الضعيفة مثلك .. إن هناك — إلى جانب هذه الأرض ، وإلى جانب الجنس الإنسانى — دنيا أخرى غير منظورة ، ومملكة للأرواح .. وهذه الدنيا تحيط بنا ، لأنها فى كل مكان .. وتلك الأرواح ترقبنا ، لأنها موكلة بحراستنا ، فإذا كنا نموت من الألم والخزى ، وإذا كان الازدراء يصفعنا على كل جانب ، والحقد يسحقنا ، فإن الملائكة تشهد عذابنا ، وتدرك براءتنا ، إذا كنا أبرياء ، وإنى لأعرف أنك براء من ذلك الاتهام الذى ردده مستر بروكلهيرست — فى ضعف وزهو — نقلا عن مسز ريد ، إذ أننى أرى فى عينيك المتألقتين ،وعلى جبينك الناصع ، طبيعة مخلصة وفطرة صادقة .. ولا ينتظر الله إلا انفصال الروح عن البدن ، لكى يتوجنا بالجزاء الكامل .. فلماذا ، إذن ، ننهار تحت وطأة الأسى ، إذا كانت الحياة لا تلبث سراعاً أن تنقضى ، وإذا كان الموت مدخلا أكيداً إلى السعادة .. إلى المجد ؟

* * *

● وكنت صامتة ، فقد هدأت هيلين نفسى ، غير أن نوعاً من الأسى الذى لا يوصف ، كان يرين على الطمأنينة التى بسطتها ، وكنت أحس بالهم خلال كلامها ، ولكنى لم أك أدرى مأتاه .. فلما فرغت من حديثها ، تسارعت أنفاسها قليلا ، ثم أرسلت سعالا قصيراً ، فنسيت فى تلك اللحظة همومى ، لأستغرق فى قلق مبهم من أجلها ، وأسندت رأسى إلى

كتف هيلين ، وأحطت وسطها بذراعى ، وجذبتها إلىّ .. ولم يطل جلوسنا كذلك ، إذ لم يلبث أن أقبل شخص آخر .. وكانت بعض السحب المثقلة قد انقشعت عن السماء تحت دفع الريح التى هبت إذ ذاك ، فكشفت وجه القمر ، وإذا ضوؤه ينساب خلال نافذة قريبة ، ويشع علينا معاً ، وعلى الشبح الذى كان يقترب ، فعرفنا فيه على الفور مس تمبل . وقالت : « جئت أبحث عنك خصيصاً ياجين اير .. إننى أريدك فى غرفتى ، وما دامت هيلين بيرنز معك ، فلها أن تأتى هى الأخرى » .

وذهبنا ، فى إثر الناظرة ، مجتازات بعض الردهات المتشابكة ، ثم صعدنا سلماً ، قبل أن نصل إلى الحجرة . وكانت تضم ناراً مستعرة فى المدفأة ، تلوح بهيجة للعين . وطلبت مس تمبل من هيلين بيرنز أن تجلس فى مقعد منخفض ذى ذراعين ، إلى أحد جانبى المدفأة ، ثم اتخذت لنفسها مقعداً آخر ، وسألتنى أن أقف إلى جوارها ، ثم سألتنى وهى تتأمل وجهى : « هل انتهت الفورة ؟ .. هل سكبت حزنك فى الدموع ؟ » .

— أخشى ألا يقدر لى ذلك أبداً .

— ولماذا ؟

— لأننى اتهمت ظلماً ، وأنت ياسيدتى وكل امرئ آخر يظننى الآن خبيثة .

— لن نظن بك إلا ما تبينينه بنفسك عن نفسك ياطفلتى .. استمرى فى التصرف كبنت صالحة ، وبهذا ترضيننا .

— أحقاً يامس تمبل ؟

فقالت وهى تحيطنى بذراعها : « لسوف توفقين .. والآن ، أخبرينى : من هى السيدة التى دعاها مستر بروكلهيرست ولية نعمتك ؟ » .. فقلت : « مسز ريد ، زوجة خالى .. لقد مات خالى وتركنى لرعايتها » .

— إذن فهى لم تكفلك من تلقاء نفسها ؟

— لا ياسيدتى ، بل إنها كانت آسفة لأن تفعل ذلك ، ولكن خالى — كما سمعت الخدم يقولون كثيراً — حملها على أن تقسم له قبل وفاته ، بأن تكفلنى دائماً .

— حسناً يا جين ، إنك لتعرفين ، أو بالأحرى لسوف أخبرك ، أنه عندما يتهم مجرم بذنب ، فإنه يحظى دائماً بحق الكلام للدفاع عن نفسه . ولقد اتهمت بالكذب ، فدافعى عن نفسك أمامى بقدر ما يسعك الدفاع .. قولى كل ماتوحى إليك ذاكرتك بأنه حقيقة ، ولكن لاتضيفى من عندك شيئاً ، ولا تبالغى فى شىء .

وعزمت — فى قرارة نفسى — أن أكون معتدلة ، وصادقة ما استطعت ، وبعد أن فكرت لبضع دقائق ، لكى أرتب ما كان لدى من قول ، رويت لها كل قصة طفولتى الحزينة . وكانت لهجتى — وقد أرهقنى الانفعال — أقل استعاراً مما يحدث عادة كلما شرعت فى سرد هذه القصة الحزينة . وحشوت القصة بأقل مما اعتدت من مظاهر السخط والكراهية ، وأنا مليئة الذهن بتحذيرات هيلين لى عن الاستسلام

للبغضاء ، فجاءت قصتى فى مظهرها المبسط أقرب إلى العقل والإقناع ، وشعرت وأنا أمضى فيها أن مس تمبل كانت تصدقنى كل التصديق .. وكنت فى سياق القصة قد ذكرت مستر (لويد) وكيف جاء يعودنى بعد النوبة ، لأننى لم أنس إطلاقاً الفترة الرهيبة — كما كنت أراها — التى قضيتها فى الغرفة الحمراء ، حتى أننى إذ رحت أرويها ، شعرت بأن انفعالى يوشك أن يحطم الحدود — التى تقيدت بها — إلى حد ما . فليس ثمة شىء يقوى على تخفيف وطأة العذاب الذى اعتصر قلبى عندما تجاهلت مسز (ريد) توسلاتى المذعورة إليها بالصفح ، وحبستنى مرة ثانية فى الحجرة المظلمة ، المخيفة ! .. وإذ انتهيت ، تأملتنى مس تمبل فى صمت لبضع دقائق ، ثم قالت : « إنى أعرف شيئاً عن مستر (لويد) ، وسوف أكتب إليه ، فإذا جاء رده مصداقاً لروايتك ، فسأعلن للجميع براءتك من كل وصمة . أما بالنسبة لى ، فأنت الآن بريئة ياجين » .

وقبلتنى ، وهى ما تزال تستبقينى إلى جوارها ، حيث كنت سعيدة بالوقوف ، إذ كنت أستمد من تأمل وجهها ، وثوبها ، وحليها القليلة ، وجبينها الناصع ، وخصلاتها المنسقة ، اللامعة ، وعينيها السوداوين البراقتين ، متعة صبيانية .. وما لبثت أن تحولت تخاطب هيلين بيرنز قائلة : « كيف أنت الليلة ياهيلين ؟ .. هل سعلت كثيراً اليوم ؟ » .

— أظننى لم أسعل كثيراً جداً ياسيدتى .

— والألم الذى فى صدرك ؟

— لقد تحسن قليلا .

فنهضت مس تمبل ، وتناولت يد هيلين تتفقد نبضها ، ثم عادت إلى مقعدها ، وفيما هى تجلس ، سمعتها تتنهد فى خفوت ، واستغرقت فى التفكير لبضع دقائق ، ثم نهضت قائلة فى ابتهاج : « ولكنكما ضيفتاى الليلة ، فيجب أن أعاملكما كضيفتين ! » .. ودقت الجرس ، ثم قالت للخادم التى لبت النداء : « إننى لم أتناول الشاى بعد يا بربارا ، فأحضريه ، وضعى قدحين لهاتين السيدتين الشابتين » .. وسرعان ما جىء بالشاى .. وما أبدع ما بدت الأقداح الصينية وإبريق الشاى اللامع لعينى ، وهى مستقرة على منضدة مستديرة صغيرة ، بجوار المدفأة ! .. وما كان أجمل شذى بخار الشاى ، وعبير الخبز المحمص ، الذى لم أصب منه سوى نصيب صغير جداً ، لخيبة أملى ، إذ كنت قد بدأت أشعر بالجوع . وكذلك لم تصب منه مس تمبل ما كان يرضيها ، فقالت : « هل لك فى أن تحضرى مزيداً من الخبز والزبد يا بربارا ، فليس هنا ما يكفى لثلاثة ؟ » . فخرجت بربارا ، وسرعان ما عادت تقول : « إن مسز هاردن تقول ياسيدتى إنها قد أرسلت الكمية المعتادة » . وكانت مسز هاردن مدبرة الدار ، المقربة إلى مستر بروكلهيرست ، إذ كانت مثله ، من عظام وحديد ! .. فتحولت مس تمبل قائلة : « حسناً جداً ، يجب أن نقنع بهذا يا بربارا ، فيما أرى ! » .. ثم أضافت مبتسمة ، عندما انسحبت الفتاة : « إن فى وسعى لحسن الحظ أن أعوض النقص فى هذه المرة » .. ودعتنى وهيلين كى نقترب من المنضدة ، ووضعت أمام كل منا قدح شاى ، وقطعة من الخبز شهية وإن كانت نحيلة . ثم نهضت ففتحت درجاً ، وأخرجت منه لفافة من الورق ، كشفت لأعيننا — حين

فضتها – عن كعكة من القمح ، لا بأس بحجمها . وقالت : « كنت
أعتزم أن أعطى كلا منكما جزءاً من هذه تأخذانه معكما ، ولكن ،
لما كان الخبز المحمص قليلا ، فلابد لكما من التهامها هنا » .. وشرعت
تقسمها إلى شرائح ، فى سخاء !

وأكلنا فى ذلك المساء ، وكأننا كنا نجلس إلى مائدة حافلة ، ولم
تكن ابتسامة الرضى التى راحت مضيفتنا ترمقنا بها ، ونحن نشبع نهمنا
بالوليمة البسيطة التى تطوعت لدعوتنا إليها ، بأقل المباهج التى آثرتنا بها ..
فحين فرغنا من الشاى ، ونقلت أدواته من الغرفة ، دعتنا مرة أخرى
إلى جوار المدفأة ، فجلسنا – كل منا إلى أحد جانبيها – ثم دار حديث
بينها وبين هيلين ، كان من الحظوة حقاً أن يسمح لى بسماعه . لقد كانت
مس تمبل دائماً محوطة بجو من الوقار ، وكانت على قدر من الجلال
فى طلعتها ، ومن الأسلوب الراقى فى لغتها ، مما كان يحول دون شرود
ذهن الشخص التواق المتلهف إلى مجالستها .. كان لها شىء ما يحد من
متعة أولئك الذين يتأملونها ، وينصتون إليها ، إذ يوحى إليهم بشعور
من التوقير .. وهكذا كان إحساسى إذ ذاك ، أما إحساسى نحو هيلين
بيرنز فقد تمثل فى أننى رحت أعجب لها ! .. فإن الأكل المنعش ، والنار
المتأججة ، ووجود أستاذتها المحبوبة وما حظيت به من كرمها .. أو ربما
كان هناك فوق كل ذلك شىء ما فى عقلها الفذ ، أوقظ مواهبها فى
أعماقها ، فإذا بها تذكو وتستعر ، فتتألق – فى بداية الأمر – فى حمرة
خديها اللذين لم أكن حتى الساعة قد عهدتهما إلا شاحبين ، غائضى
الدم .. ثم شع ذلك الاستعار فى البريق الرجراج الذى تبدى فى عينيها ..

العينين اللتين اكتسبتا فجأة جمالا أكثر روعة من جمال مس تمبل نفسها ..
جمال لايعتمد على لون البشرة ، ولا على أهداب طويلة ، أو حاجبين
رشيقين كأنهما قد خطا بالقلم ، وإنما كان جمالا يعتمد على المعنى ،
والحركة ، والإشراق .. إذ ذاك قفزت نفسها إلى شفتيها ، فتدفق الكلام
من نبع لم أكن أدريه .. فهل لفتاة فى الرابعة عشرة قلب من الكبر ومن
القوة ، بحيث يتسع لاستيعاب النبع المتدفق بالطهر ، والصفاء ، واللباقة
السلسة ؟ .. هكذا كان طابع حديث هيلين فى تلك الليلة المشهودة ، فى
رأيى .. كانت روحها تبدو وكأنها تتعجل الحياة فى فترة جد قصيرة ،
كما يفعل الكثيرون خلال وجودهم فى مواقف تعوقهم عن المضى
لغايتهم !

وتحدثت الاثنتان عن أشياء لم أسمع بها من قبل قط ! .. عن أمم وعن
عصور ماضية ، وعن بلاد بعيدة ، وعن أسرار للطبيعة كشفت أو كانت
محور حدس وتخمين .. تحدثتا عن الكتب ، وما أكثر ما قرأتا منها ! ..
أية كنوز من المعرفة كانتا تمتلكان ! .. لقد لاحتا إذ ذاك على دراية
بالأسماء الفرنسية والمؤلفين الفرنسيين .. على أن عجبى بلغ ذروته عندما
سألت مس تمبل (هيلين) عما إذا كانت تنتزع من وقتها لحظات – فى
بعض الأحيان – لتستعيد اللغة اللاتينية التى لقنها إياها أبوها ؟ . ثم تناولت
كتاباً من أحد الأرفف ، ودعتها للقراءة ؛ وهى تعين لها صفحة من
شعر (فيرجيل) ، فأطاعت هيلين ، وشعورى بالتقدير والتوقير يزداد
مع كل سطر تقرؤه .. ولم تكد تنتهى حتى أعلن الجرس موعد النوم ،
ولم يكن ثمة مجال لأى تأخر ، فاحتضنتنا مس تمبل معاً ، قائلة وهى

تضمنا إلى صدرها : « ليبارككما الله يا ابنتى ! » .. وظلت معانقة هيلين
فترة أطول مما عانقتنى ، ولم تخليها إلا كارهة . وظلت هيلين محط
بصرها حتى بلغنا الباب ، ومن أجلها أرسلت للمرة الثانية زفرة محزونة ،
ومن أجلها مسحت عن خدها دمعة !

وإذ بلغنا غرفة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد ، فقد كانت
تتفقد الأدراج ، وكانت قد جذبت درج هيلين لتوّها ، فلما دخلنا ،
قوبلت هيلين بتأنيب حاد ، وأنبئت بأن اثنى عشر شريطاً من أشرطة
الإهمال ستعلق على كتفها فى اليوم التالى . وغمغمت هيلين تقول لى فى
صوت خافت : « لقد كانت أمتعتى غير منسقة بشكل معيب ، فعلا ،
وكنت أعتزم ترتيبها ، ولكنى نسيت ! » .

وفى الصباح التالى ، كتبت مس سكاتشيرد بحروف كبيرة ، على
قطعة من الورق المقوى المصمغ ، كلمة (مهملة) ، ولفتها كاللافتة
حول جبين هيلين العريض ، الناعم ، الناطق بالذكاء والدعة . وظلت
هذه ترتديها حتى المساء صابرة ، غير متذمرة ، وهى تعتبرها عقاباً
تستحقه . وما إن انسحبت مس سكاتشيرد بعد دروس ما بعد الظهر
– أى فى الساعة الخامسة – حتى هرعت أنا إلى هيلين ، فانتزعت الورقة ،
وألقيت بها فى النار . كان الغضب – الذى لم يتملكها – يحتدم فى نفسى
أنا طوال اليوم .. والدموع الساخنة ، الكبيرة ، تكوى خدى باستمرار ،
فإن مظهر استسلامها الحزين بعث فى قلبى ألماً لا يطاق !

* * *

● بعد حوالى أسبوع من الحوادث السالف ذكرها ، تلقت مس
تمبل رداً من مستر (لويد) – وكانت قد كتبت له – ولاح أن ما قاله
عزز روايتى ، إذ جمعت مس تمبل المدرسة ، وأعلنت أن تحريات
أجريت بصدد الاتهامات التى عزيت إلى جين إير ، وأنها أشد ما تكون
سعادة إذ أصبح فى مقدورها أن تعلن براءة (جين) التامة من كل
وصمة . وإذ ذاك صافحتنى المدرسات وقبلننى ، وسرت فى صفوف
زميلاتى غمغمة راضية !

وإذ تخلصت من العبء المحزن ، بهذا الشكل ، شرعت منذ تلك
الساعة فى العمل من جديد ، وقد عقدت العزم على أن أتغلب على كل
عقبة . واجتهدت ، فإذا نجاحى يأتى متناسباً مع جهودى .. وأخذت
ذاكرتى – التى لم تكن يوماً جامدة – تتحسن بالمران ، كما أن الواجبات
أرهفت ذكائى .. وإن هى إلا أسابيع حتى نقلت إلى فرقة أعلى . وفى
أقل من شهرين ، سمح لى بأن أبدأ فى تعلم الفرنسية والرسم . وحفظت
التصريفين الأولين لفعل الكينونة (ETRE) ، ورسمت فى اليوم ذاته
أول كوخ صوره قلمى . وكانت جدرانه – بهذه المناسبة – تنافس
جدران برج (بيزا) فى الميل ! .. وفى ذلك المساء ، نسيت – وأنا آوى
إلى مخدعى – أن أعد فى خيالى العشاء الوهمى الذى كان يتألف من
بطاطس محمرة ساخنة ، أو من خبز أبيض ولبن حليب ، والذى كنت
أتخيله لأرضى النزوات التى كانت تراود نفسى . وإنما استمرأت
– بدلا منه – منظر رسومات مثالية ، تراءت لى فى الظلام ، وكلها من
رسم يدى : بيوت ، وأشجار ، وصخور هائلة ، وأطلال ، وقطعان من

الماشية ، ورسومات بديعة بالألوان تمثل فراشات تحوم فوق ورود لم تتفتح أكمامها ، وطيور تنقر الكريز الناضج ، وأعشاش تضم بيضاً كأنه اللآلئ ، وقد لفتها فروع يافعة من اللبلاب .: كذلك فحصت — فى الخيال — إمكانيات توفيقى يوماً فى ترجمة كتاب معين من كتب القصص الفرنسية ، أرتنى إياه مدام (بيرو) فى ذلك اليوم .. ولم تكن هذه المسألة قد سويت بالشكل الذى يرضينى ، عندما رحت فى سبات عذب !

ما كان أحكم (سليمان) إذ قال : « لئن أتغدى على الأعشاب حيثما يتوفر الحب ، خير من أن أتغدى بثور مشوى مع الكراهية ! » .. فما كنت لأرتضى فى تلك الفترة أن أستبدل بـ (لوود) — مع كل ما فيها من حرمان — قصر (جيتسهيد) بفخفخته اليومية !

* * *

الفصل التاسع

● على أن الحرمان ، أو بالأحرى الصعاب ، التى كانت فى (لوود) لم تلبث أن تضاءلت . إذ اقترب الربيع ، بل إنه كان قد أقبل فعلا ، فانقطع صقيع الشتاء ، وذابت ثلوجه ، وخفت رياحه القاسية . وبدأت قدماى البائستان — اللتان تورمتا وتشققتا بفعل جو يناير الرطب ، القارس — تندملان وتشفيان ، تحت هبات نسائم أبريل اللطيفة . ولم تعد الليالى وساعات الصباح ، بزمهريرها الشديد ، تجمد الدم فى عروقنا .. بل أصبح فى طاقتنا أن نحتمل ساعة الترويح فى الحديقة . بل بدأت هذه الساعة تبدو بهيجة ، ممتعة ، فى بعض الأيام المشمسة ، ودبت الخضرة فى تلك الأحواض السمراء ، التى كانت بترعرعها اليومى توحى بأن (الأمل) كان يمر بها فى الليل ، ويترك فى كل صباح آثاراً أكثر وضوحاً لقدميه . وأطلت الزهور من خلال أوراق الشجر . وبدأنا نقوم فى أصيل أيام الخميس — وكانت لدينا عطلة لنصف اليوم — بنزهات شتى . فكنا نصادف زهوراً أجمل تتفتح تحت الحواجز النباتية على جانب الطريق .

واكتشفت كذلك أن ثمة مسرة ، بل متعة لا يحدها سوى الأفق ، تقوم خارج جدران حديقتنا .. الجدران العالية التى تحرسها أسنان شائكة !.. تلك المتعة كانت تتمثل فى منظر القمم السامقة التى تعلو منخفضاً كبيراً تحف به تلال غنية وحواف براقة .. ما أبعد هذه الصورة البهيجة عن المنظر الذى أبصرت عليه ذلك المنخفض نفسه من قبل ، ممتداً تحت سماء الشتاء التى كانت تبدو كقبة من حديد ، وقد

جمده الصقيع ، وكسته الثلوج !.. عندما كانت الرطوبة التى تشبه الموت فى قسوة زمهريرها ، تحوم بدفع الرياح الشرقية ، مطوقة بتلك القمم المحمرة ، ثم تنحدر هابطة حتى تمتزج بالضباب الجليدى المخيم على الوادى ، فلا يلبث أن يتحول إلى تيار بارد ، لا يقيده شىء ، يندفع مجتاحاً الغابة ، وهو يرسل أنيناً محموماً فى الهواء ، وكثيراً ما يثقله المطر الدافق ، أو المصحوب بالبرد المنهمر ، فيحجب كل شىء عن الأنظار ، اللهم إلا أشجار الغابة التى تقوم كصفوف من هياكل عجفاء !

واكتهل شهر أبريل ، ثم خلفه شهر مايو .. وكان مايو مشرقاً ، بهياً ، تألف من أيام زرقاء السماء ، ذات شمس ساطعة لطيفة الأشعة ، تتخللها رياح غربية أو جنوبية خفيفة .. وكانت الخضرة إذ ذاك تطرد فى نموها بقوة ونشاط ، وتخلصت (لوود) من قيود الشتاء ، فأصبحت خضرة شاملة ، وأزهاراً سابغة ، وارتدت أشجار الغرغار والدردار والبلوط إلى حياتها المهيبة ، الجليلة .. وانبثقت النباتات البرية بغزارة فى أطرافها القصوى ، وملأت ثغرات أرضها أشكال لاحصر لها من الأعشاب الفطرية ، وغدت الثروة التى أوتيتها من النباتات ذات الزهور الصفراء ، أشبه بأشعة شمسية عجيبة تنبعث من الأرض .. لقد شهدت وميضها الذهبى الباهت فى بقاع ظليلة متناثرة ، فكانت تبدو كأجمل الثريات المتلألئة ، المتناثرة .. كل هذا كنت أستمتع به كثيراً .. كنت أستمتع به كامل الاستمتاع ، بحرية ، وأنا أكاد أكون وحيدة ، دون ما رقيب . وكان لهذه الحرية ولهذا الاستمتاع سبب ، آن لى أن أذكره :

أفلم أصف موقعاً بهيجاً للسكنى بحديثى عن هذا المكان القابع بين التل والغابة والذى يقوم على حافة جدول ؟.. إنه بهيج إلى حد كبير ، ولا شك ، إما أنه صحى ، فهذه مسألة أخرى .. كان المنخفض الذى تحف به الغابة ، والذى تقوم فيه (لوود) ، مهداً للضباب ، وللوباء الذى ينمو فى الضباب والذى أسرع مع الربيع الذى كان يسابق موعده فزحف على ملجأ اليتيمات ، ونفث (التيفوس) فى غرفة الدرس وغرفة النوم المزدحمتين ، فما أن حل شهر مايو ، حتى تحولت المدرسة إلى مستشفى .. إذ أن شبه الجوع ، ونزلات البرد التى أهملت ، هيأت معظم التلميذات لتقبل العدوى ، فإذا خمس وأربعون من الثمانين فتاة ، يرقدن مريضات فى آن واحد !.. وانفرط عقد الفرق الدراسية ، وأهملت القواعد واللوائح ، وأتيحت للقليلات اللاتى ظللن سليمات ، حرية مطلقة تقريباً ، لأن الطبيب أصر على ضرورة الإكثار من الرياضة للاحتفاظ بصحتهن . وحتى لو أنه لم يصر ، لما أتيح لأحد من الفراغ ما يمكنه من مراقبتهن أو صدهن .. فقد استغرقت المريضات انتباه مس (تمبل) بأكمله ، وأصبحت تقيم فى الحجرة التى أفردت لهن ،لا تغادرها إلا لسويعات قلائل تلتمس فيها الراحة أثناء الليل . وانهمكت المدرسات فى حزم الأمتعة واتخاذ الاستعدادات اللازمة لترحيل الفتيات اللائى كن محظوظات بحيث وجدن أقارب وأصدقاء يستطيعون ، عن رغبة ، أن يقصوهن عن موطن الوباء . وذهبت كثيرات ممن أصابهن الداء إلى بلادهن ليلفظن آخر أنفاسهن ، ومات البعض فى المدرسة فدفن فى صمت وعجلة ، إذ كانت طبيعة الداء تحول دون أى إرجاء

● وبينما كان المرض قد أصبح من سكان (لوود) ، والموت زائرها الكثير التردد عليها ، وبينما كان ثمة وميض وخوف بين جدرانها ، وبينما كانت تفوح فى غرفها وردهاتها روائح المستشفيات ، وكانت العقاقير والأقراص تجاهد عبثاً لتقاوم اطراد الوفيات .. بينما كان يحدث كل هذا ، كان شهر مايو الصحو يشرق دون ما سحب على التلال المنيعة ، والغابة الجميلة ، خارج جدران المدرسة .. كما تألقت حديقة المدرسة بالورود وانبثت الزهور فى قمم الأشجار العالية ، وتفتحت أزهار السوسن ، وترعرع (التيوليب) والورود ، ووشيت حواف أحواض فلاحة البساتين بالزنابق البهيجة ذات الألوان الوردية والقرمزية .. وأخذت زهور نبات العليق تنفث فى الصباح والمساء عبيرها التفاحى النفاذ .. وكانت كل هذه الكنوز العبقة غير ذات نفع لأكثر أهل (لوود) ، اللهم إلا كورد لحفنة من الأعشاب والبراعم تقتطف من آن إلى آخر لتوضع على أحد التوابيت !

ولكننى — وكل من بقين فى حال طيبة — كنا نستمتع أكمل متعة بمفاتن المنظر والفصل ، وقد تركنا نهيم فى الغابة كالنوريات ، من الصباح حتى المساء ، نفعل ما يحلو لنا ، ونذهب أنى شئنا ، ونعيش فى خير حال كذلك ، إذ أن مستر (بروكلهيرست) وأسرته لم يعودوا يفدون على مقربة من (لوود) إطلاقاً ، ولم تعد شئون الدار موضع نقاش ومراجعة ، وغادرتنا مدبرة الدار الشحيحة وقد حملها خوف العدوى على الفرار .. ولما كانت خليفتها لا تعرف شيئاً عن أصول ونطاق عملها الجديد — إذ كانت من قبل رئيسة ممرضات فى مستوصف

(لوتون) — فقد تركت لنا حرية نسبية . يضاف إلى هذا قلة عدد من صرن يحظين بالغذاء ، كما أن المريضات لم يكن يكثرن من الأكل ومن ثم كانت أطباق فطورنا مليئة أكثر من ذى قبل . وكانت المدبرة تعمد إذا لم تجد وقتاً لإعداد غداء — وهو ما كان كثير الحدوث — إلى إعطائنا قطعاً كبيرة من الفطير ، أو شرائح سميكة من الخبز والجبن ، فكنا نحمل هذه معنا إلى الغابة ، حيث تختار كل منا أحب بقعة إليها ، ونتناول غداءنا (الفخم) !.. وكان مقعدى المفضل قطعة من الحجر العريض الناعم ، تنهض من منتصف الغابة بيضاء ، جافة ، ولا سبيل إلى الوصول إليها إلا بالخوض فى ماء الجدول ، وهو ما كنت أفعله وأنا حافية القدمين . وكان الحجر من الاتساع بحيث ينفسح لإيواء فتاة أخرى ، براحة تامة .. وكنت فى تلك الفترة قد اتخذت لى زميلة مفضلة ، فتاة تدعى (مارى آن ويلسون) ، كانت أريبة ، تقية ، وجدت فى صحبتها متعة ، يرجع شطر منها إلى أنها كانت حاضرة البديهة ، فذة فى طابعها ، ويرجع الباقى إلى أنها كانت ذات أخلاق تريحنى .. وإذ كانت تكبرنى ببضع سنوات ، فإنها كانت أكثر منى معرفة بالدنيا ، وفى وسعها أن تحدثنى عن أشياء كثيرة كان يروق لى سماعها ، ومن ثم فإن فضولى وجد فى صحبتها ما يشبعه ، كما أنها أظهرت نحو أخطائى تسامحاً كريماً ، فلم تحاول قط أن تراجعنى أو تلومنى بشأن شىء قلته . وكانت ذات موهبة قصصية ، فى حين أننى كنت موهوبة فى التحليل ، فكانت تحب أن تروى ، وكنت أحب أن أسأل ، ومن

ثم كنا ننسجم معاً ، ونستمد من حديثنا المتبادل تسلية كثيرة ، إن لم يكن نفعاً كبيراً :

وأين كانت (هيلين بيرنز) فى ذلك الوقت؟..لم لم أقض أيام الحرية العذبة هذه معها ؟.. هل نسيتها ، أو أننى كنت خسيسة فسئمت عشرتها النقية ؟.. الواقع أن (مارى آن ويلسون) هذه كانت أقل قدراً من صديقتى الأولى ، فلم تكن تملك سوى أن تروى القصص الممتعة ، وأن تشاركنى الثرثرة المتهورة ، اللاذعة ، التى كان يحلو لى الانغماس فيها .. فى حين أن (هيلين) — إذا صدق ما أعتقده عنها — كانت قديرة على أن تمنح أولئك الذين يستمتعون بحديثها ، قبساً من أمور أسمى وأرفع .. حقاً أيها القارئ ، فإنى أعرف هذا وأحسه !.. ومع أننى مخلوقة ذات معايب ، كثيرة الأخطاء ، قليلة التكفير عنها ، إلا أننى لم أسأم قط (هيلين بيرنز) ،ولم أكف عن أن أكن لها شعوراً من الإعزاز والإيثار ، قوياً ، حنوناً ، يفوق فى اتزانه كل ما عمر به قلبى فى أى وقت . وكيف لا يكون ذلك،وقد كانت (هيلين) — فى جميع الأوقات وفى كل الظروف — تكن لى وداً صافياً ، وفياً ، لم يعكره قط أى امتعاض ، ولا خالطه أى توتر ؟.. ولكن (هيلين) كانت مريضة فى تلك الآونة ، وقد أقصيت عن نظرى قبل أسابيع إلى حجرة لم أدر موقعها ، فى الطابق العلوى ، فلم تكن — كما قيل لى — فى القسم الذى أعد من الدار ليكون مستشفى للمريضات بالحمى ، لأن داءها كان التدرن الرئوى لا التيفوس . وكان جهلى يوحى إلىّ بأن التدرن الرئوى شىء بسيط لن تلبث العناية والزمن أن يبدداه . وقد عزز هذه الفكرة



ثم كنا ننسجم معاً ، ونستمد من حديثنا المتبادل تسلية كبيرة ...

أنها هبطت مرة أو مرتين ، فى فترة من بعد الظهر كانت الشمس فيها دافئة الأشعة ، وصحبتها مس (تمبل) إلى الحديقة . ولكننى فى هاتين المناسبتين لم أترك كى أقترب منها وأتحدث إليها .. كل ما هنالك أننى رأيتها من نافذة حجرة الدرس ، ولم أتبينها تماماً ، إذ كانت ملتفة من رأسها إلى قدميها ، وقد جلست فى الشرفة على مسافة بعيدة من مكانى .

* * *

● وفى ذات مساء فى أوائل يونية ، جلست مع (مارى آن) فى الغابة إلى وقت جد متأخر ، وكنا قد اعتزلنا الأخريات — كعادتنا — وهممنا بعيداً عنهن ، وأوغلنا فى البعد حتى ضللنا طريقنا ، واضطررنا إلى أن نلجأ إلى كوخ منعزل كان يعيش فيه رجل وامرأة يرعيان قطيعاً من الخنازير يتغذى على أعشاب الغابة ، فسألناهما عن الطريق .. وعندما عدنا ، كان القمر قد بزغ ، وكان ثمة جواد — عرفنا فيه مطية الجراح — رابضاً لدى باب الحديقة ، فتكهنت (مارى آن) بأن لابد من وجود شخص برح به المرض ، وإلا لما استدعى مستر (بيتس) فى مثل تلك الساعة من المساء . ودخلت هى الدار ، بينما تخلفت أنا عنها قليلا ريثما أغرس فى حوضى بعض (شتل) انتزعتها من الغابة ، وخشيت أن تذوى إذا تركتها إلى الصباح . وإذ فرغت من هذا ، تلكأت فترة أخرى . كان شذى الزهور يفوح والطل يتساقط ، وكانت الليلة بهيجة ، بديعة ، دافئة ، والوهج الذى ظل بادياً فى الغرب يبشر بيوم لطيف آخر فى الغد ، وقد بزغ القمر وراح يرقى من الشرق فى جلال . وفيما كنت أرقب هذه الأشياء وأسعد بها كما تفعل أية طفلة ، خطرت

ببالى فكرة لم تواتنى من قبل قط : « ما أقسى الرقاد الآن فى فراش المرض ، وخطر الموت يحوم !.. إن هذه الدنيا بهيجة ، وما أبشع أن ينتزع المرء منها ، ويضطر إلى الذهاب إلى ما لا أدرى ؟» .. وإذ ذاك، بذل عقلى أول مجهود صادق لتفهم ما حشر فيه عن الجنة والجحيم !.. وللمرة الأولى ، تراجع هذا العقل حائراً ، وللمرة الأولى تلفت وراءه وإلى جانبيه ، وأمامه ، فرأى هوة لا قرار لها تحيط به .. ولم يشعر بغير النقطة التى كان يقف عندها فحسب . لم يشعر بغير الحاضر !.. أما ما عداه ، فكلها سحب غير واضحة ، وأعماق خاوية !.. وارتجف عقلى إذ تصور التخبط والضلال وسط الفوضى المبهمة !.. وفيما كنت مستغرقة فى فكرتى الجديدة ، سمعت الباب الأمامى يفتح ، وخرج مستر (بيتس) ومعه إحدى الممرضات. وبعد أن تريثت الممرضة إلى أن امتطى جواده ورحل ، همت بأن تغلق الباب لولا أن جريت نحوها وسألتها : « كيف حال (هيلين بيرنز) ؟ » . فكان جوابها : « أسوأ حال » .

— أهى التى جاء مستر (بيتس) من أجلها ؟

— نعم .

— وماذا قال عنها ؟

— قال إنها لن تمكث هنا طويلا .

ولو أن هذه العبارة طرقت سمعى أمس ، لما أوحت إلى ذهنى بأكثر من أن صديقتى ستنتقل إلى (نورثمبرلاند) موطنها ، ولما حدست أنها تعنى أن الفتاة تحتضر . أما الآن ، فقد أدركت للفور ، وتجلى لإدراكى أن (هيلين بيرنز) كانت تعد آخر أيامها فى هذه الدنيا، وأنها

ستنقل إلى عالم الأرواح ، إذا كان لمثل هذا العالم وجود .. فشعرت برجة فزع ، ثم بنوبة قوية من الأسى ، ثم برغبة .. بحاجة ضرورية إلى أن أراها . فسألت عن غرفتها ، فقالت الممرضة : « إنها فى غرفة مس (تمبل) » .

— هل لى أن أصعد فأتحدث إليها ؟

— آه ، لا يا صغيرتى !.. هذا غير ممكن ولا مستحب . والآن ، حان الوقت كى تدخلى الدار ، وإلا أصبت بالحمى إذا وقفت أثناء هبوط الليل .

وأغلقت الممرضة الباب الأمامى ، فدخلت من الباب الجانبى — الذى يفضى إلى غرفة الدرس — فى اللحظة المناسبة ، إذ كانت مس (ميلر) تدعو التلميذات إلى الصعود للمخادع :

* * *

● وربما كانت قد انقضت ساعتان — ولعل الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة — عندما نهضت فى خفة ، إذ لم أستطع النوم ، وضايقنى السكون العميق الذى شمل الحجرة ، ورؤية زميلاتى فى نوم عميق ، فارتديت ثوبى فوق قميص النوم ، وتسللت من الحجرة حافية القدمين ، وشرعت أسعى إلى غرفة مس (تمبل) . وكان الهدوء مسيطراً على الطرف الآخر من الدار ، ولكنى كنت أعرف طريقى ، وقد مكننى ضوء قمر الصيف — الذى لا تحجبه السحب ، والذى كان ينساب خلال نوافذ الردهة — من أن أهتدى إلى بنتين دون ما عناء . وطالعتنى ، حين اقتربت من غرفة المحمومات ، رائحة كافور وخل

محترق ، فمررت ببابها متعجلة ، خشية أن تفطن إلى الممرضة التى كانت تقضى الليل ساهرة ، فقد كرهت أن اكتشف فأرد إلى مخدعى ، إذ كان لابد لى من أن أرى (هيلين) .. من أن أحتضنها قبل أن تموت .. يجب أن أقبلها القبلة الأخيرة ، وأتبادل معها كلمة أخيرة !

وبعد أن هبطت سلماً ، واجتزت شطراً من الطابق الأرضى ، ووفقت إلى فتح وإغلاق بابين — دون ما ضجيج — وصلت إلى سلم آخر ، صعدت درجاته ، فإذا حجرة مس (تمبل) أمامى مباشرة . وكان ثمة ضوء ينساب خلال ثقب المفتاح ، ومن تحت طرف الباب ، وقد ساد المكان كله سكون شامل . وإذ اقتربت ، وجدت الباب موارباً قليلا ، ولعله ترك كذلك ليسمح بدخول بعض الهواء إلى مخدع المريضة المغلق النوافذ . ولم أتردد ، فقد كنت مفعمة بالحوافز ، وكانت روحى وحواسى تنبض بالقلق والغصص ، فأطللت خلال الباب ، وعيناى تبحثان عن (هيلين) ، خشية أن أجدها ميتة !.. وإذا بى أرى — لصق سرير مس (تمبل) ، وتحت أستاره — سريراً صغيراً ، بدا تحت أغطيته شكل جسم ، ولكن الوجه احتجب عنى وراء الستر : وكانت الممرضة التى تحدثت إليها فى الحديقة تجلس فى مقعد مريح ، وقد غشيها النعاس .. وعلى المنضدة ، كانت ثمة شمعة مشتعلة ، ترسل ضوءاً خافتاً . ولم يلح لبصرى أثر لمس تمبل ، وعرفت — فيما بعد — أنها كانت قد استدعيت إلى جوار مريضة اشتدت بها الحمى فى غرفة المحمومات . وتقدمت ، ثم وقفت إلى جوار السرير الصغير ، ووضعت يدى على الستار ، ولكنى آثرت أن أتكلم قبل أن أزيحها وأنا لا أزال أوجس خيفة من أن أرى

جثة هامدة ! فهمست فى رفق : « هيلين ! .. هل أنت مستيقظة ؟ » .. وتحركت ، وأزاحت الستار ، فرأيت وجهها شاحباً ، هزيلا ، ولكنه كان منبسط الأسارير : وبدت متغيرة بعض الشيء .. على أن خوفى سرعان ماتبدد . وتساءلت هى فى صوتها اللطيف : « أحقاً هذه أنت يا جين ؟ » .. فهتفت لنفسى : « أواه ! .. إنها لن تموت .. لقد أخطأوا الظن .. لو أنها كانت وشيكة الموت ما تكلمت ولا نظرت بهـذا الهدوء ! » .

وانحنيت على سريرها ، فقبلتها .. كان جبينها بارداً ، وخدها بارداً ونحيلا .. وكذلك كانت يداها ، ورسغاها ، ولكنها كانت تبتسم كعهدها فيما مضى ! .. وسألتنى : « لماذا جئت إلى هنا يا جين ؟ .. لقد تجاوزنا الساعة الحادية عشرة ، إذ سمعت دقات الساعة منذ دقائق » .

— جئت لأراك يا هيلين ؛ فقد سمعت أنك مريضة ، فلم أستطع أن أنام قبل أن أتحدث إليك .

— إذن فقد جئت تودعينى ؟ .. لعلك جئت فى الوقت المناسب .

— أمسافرة أنت يا هيلين ؟ .. هل ستعودين إلى بلدك ؟

— أجل .. مسافرة إلى الموطن الذى سأقيم فيه طويلا .. إلى مقرى الأخير .

فشهقت جزعة : « لا ، لا يا هيلين ! » .. وبينما كنت أحاول أن أكبح دموعى ، استولت على هيلين نوبة سعال ، ولكنها مع ذلك لم توقظ الممرضة . فلما زايلتها النوبة ، ظلت بضع دقائق منهوكة القوى ، ثم همست : « إن قدميك الصغيرتين حافيتان ياجين .. نامى ، وتغطى

بلحافى » .. ففعلت ، وبسطت ذراعها فوقى ، فالتصقت بها : وبعد صمت طويل ، استأنفت الحديث هامسة : « إننى جد سعيدة ياجين ، فإذا سمعت أننى مت ، فلا تفكرى ، ولا تحزنى ، إذ ليس ثمة ما يدعو إلى الحزن . لابد لنا من أن نموت جميعاً يوماً ما ، وليس الداء الذى ينقلنى من هذه الدنيا بمؤلم ، وإنما هو لطيف ، ومتدرج .. ثم إن بالى مرتاح ، فلست أترك ورائى أحداً يأسف كثيراً لفراقى : ليس لى سوى أبى : وهو قد تزوج أخيراً ، ولن يفتقدنى .. ولسوف أنجو من آلام كثيرة إذ أموت صغيرة ، كما أننى لم أوت من المواهب والصفات ما كان يكفل لى أن أعيش بخير فى هذه الدنيا .. لو أننى عشت ، لظللت دائماً أرتكب الأخطاء » .

— ولكن إلى أين تذهبين ياهيلين ؟ .. هل ترين الطريق أمامك ؟ .. هل تعرفينه ؟

— إننى أومن .. إننى مؤمنة .. سأذهب إلى الله !

— وأين هو الله ؟ .. ماهو الله ؟

— إنه خالقى وخالقك الذى لايدمر إطلاقاً خلقه .. إننى أركن ركوناً مطلقاً إلى قدرته ، وأومن كل الإيمان بكرمه ، وأعد الساعات ريثما تحل الساعة التى تردنى إليه ، وتكشفه لبصيرتى !

— إذن فأنت واثقة يا هيلين بأن ثمة مكاناً فى السماء ، وأن أرواحنا تصعد إليه عندما نموت .

— إننى موقنة من أن ثمة عالماً آخر ، وإنى لأومن بأن الله طيب ،

أسلمه الجزء الذى لا يفنى من كيانى دون خوف .. إن الله هو أبى .. الله صديقى .. إننى أحبه ، وأومن بأنه يحبنى !

— وهل سأراك مرة أخرى ياهيلين ، عندما أموت ؟

— لسوف تفدين إلى نفس منطقة السعادة التى سأذهب إليها ، وتنعمين بلقاء نفس الأب القدير للكون ، بلا شك ياجين .

وعدت أتساءل ، ولكن فى نفسى ، فى هذه المرة : « وأين تلك المنطقة ؟ .. هل لها وجود ؟ » .. وشددت ذراعى حول هيلين ، وقد شعرت بأنها أعز علىّ مما كانت فى أى وقت مضى .. وبأن لا قدرة لى على أن أدعها ترحل .. وظللت راقدة وقد دفنت وجهى فى عنقها . فما لبثت أن قالت فى أحلى لهجة : « ما أكثر ارتياحى ! .. لقد أتعبتنى نوبة السعال الأخيرة ، بعض الشىء .. أشعر برغبة فى النوم ، ولكن .. لا تفارقينى ياجين ، فإنى أحب أن تكونى بقربى » .

— سأمكث معك ياهيلين العزيزة .. لن يبعدنى أحد عنك .

— هل أنت مستدفئة ياحبيبتى ؟

— أجل .

— عمى مساء ياجين .

— عمى مساء ياهيلين !

وقبلتنى ، فقبلتها ، واستسلمنا معاً للنعاس . وعندما استيقظت ، كان النهار قد طلع ، ونبهتنى حركة غير عادية ، فرفعت رأسى ، وإذا أنا فى أحضان شخص ما ! .. كانت الممرضة تحملنى ، لتنقلنى خلال الردهات إلى حجرة النوم .. ولم يؤنبنى أحد لمغادرتى سريرى ، فقد

كان لدى القوم ما يشغلهم عن ذلك .. ولم يقدم جواب واحد عن أسئلتى العديدة ، ولكنى علمت — بعد يوم أو اثنين — أن مس تمبل وجدتنى فى السرير الصغير ، حين عادت إلى غرفتها مع الفجر ، ووجهى ملتصق بكتف هيلين بيرنز ، وذراعى حول عنقها .. وكنت نائمة ! .. أما هيلين ، فكانت .. ميتة !

إن قبرها يقوم فى ساحة كنيسة (بروكلبريدج) . وقد ظل خمس عشرة سنة لا يعلوه شىء سوى أعشاب متكاثفة .. أما الآن ، فقد صارت تعين الموقع لوحة من رخام رمادى ، نقش عليها اسمها ..

* * *



الفصل العاشر

● لقد سجلت بالتفصيل حتى الآن، أحداث وجودى الذى لا قيمة له . فقد أفردت من الفصول أكثر مما ينبغى للسنوات العشر الأولى من حياتى . ولكن هذا الكتاب لايعدّ ليكون سيرة منتظمة ، وإنما أنا أستحث الذاكرة فى المواطن التى أعرف أن استجابتها عندها تنطوى على قدر من المعلومات ذات القيمة . ومن ثم فسوف أجتاز الآن فى صمت فترة مداها ثمانى سنوات ، ولن أشير إليها بأكثر من سطور قلائل لازمة لربط الحوادث بعضها إلى بعض :

بعد أن أدى (التيفوس) رسالته المهلكة فى (لوود) اختفى رويداً من هناك ، ولكن .. بعد أن كانت حدته وعدد ضحاياه قد استلفتا أنظار الرأى العام إلى المدرسة ، فأجريت التحريات عن أصل الداء ، ولم تلبث أن ظهرت تباعاً عدة حقائق أثارت سخط الرأى العام إلى درجة كبيرة : كان الموقع غير الصحى بطبيعته ، وكمية طعام الأطفال ونوعه ، والماء الآسن الكريه الرائحة الذى كان يستخدم فى إعداده ، وسوء حال ثياب التلميذات ومراقدهن .. كل هذه الأمور تكشفت ، فأدى كشفها إلى نتيجة كانت صدمة لمستر (بروكلهيرست) ، ولكنها كانت خيراً بالنسبة للمعهد ، إذ تبرع بسخاء عدة أفراد من أهل المقاطعة الموسرين ، المحبين للخير ، لإنشاء مبنى أكثر صلاحية ، وموقع أفضل .. ووضعت لوائح جديدة ، وأدخلت التحسينات على نظام التغذية والكساء ، وعهد بأموال المدرسة إلى لجنة ، وظل مستر

(بروكلهيرست) — الذى لم يكن من سبيل إلى إغفاله ، نظراً لنفوذه المالى والعائلى — أميناً للصندوق ، ولكنه كان يجد فى أداء واجباته معونة من رجال ذوى عقول أكثر اتساعاً وعطفاً من عقله . كذلك شاركه موكزه — كمفتش — أفراد كانوا يعرفون كيف يجمعون بين العقل والحزم . وبهذا الإصلاح ، لم يلبث المعهد أن أصبح معهداً جليلا ، نافعاً حقاً . وظللت بين جدرانه بعد تجديده ، زهاء ثمانى سنوات ، قضيت منها ستاً كتلميذة ، واثنتين كمدرسة .. وفى الحالين ، أشهد صادقة بقيمة المعهد وأهميته .

وكانت حياتى خلال هذه السنوات الثمانى ، رتيبة ، ولكنها لم تكن تعسة ، لأنها لم تكن خاملة ، فقد كانت فى متناولى أسباب الإفادة من تعليم رائع . وكان لدى شغف ببعض ما كنت أدرس ، ورغبة فى أن أبرز فى كل دروسى ، مع اغتباط شديد بإرضاء مدرساتى ، لاسيما أولئك اللائى كنت أحب أن أحظى بحسن ظنهن . وأفدت إلى أقصى حد من كل الميزات التى كانت متاحة لى ، فما لبثت أن أصبحت التلميذة الأولى ، فى الفرقة الأولى ، ثم رؤى الإفادة منى فى العمل كمدرسة ، فقمت بهذا العمل فى تحسن ، لمدة عامين .. ولكنى لم ألبث فى نهاية ذلك الوقت أن غيرت منهج حياتى .

وكانت مس (تمبل) قد ظلت — خلال كل التغييرات التى طرأت على المعهد — ناظرة له ، وإنى لأدين لها بالشطر الأكبر مما حصلت : وكان ودها وصحبتها هما عزائى دائماً ، فقد قامت منى مقام الأم والمربية ، والزميلة فيما بعد : ثم تزوجت هى ، فما لبثت أن رحلت مع زوجها

— وكان رجلا ألمعياً من رجال الكنيسة ، جديراً بزوجة مثلها — إلى مقاطعة نائية ، وسرعان ما تقطعت بيننا الأسباب .. على أننى منذ يوم رحيلها لم أعد كما كنت ، فقد ذهب معها كل شعور بالطمأنينة ، وكل رابطة جعلت من (لوود) داراً لى ، إلى درجة ما . وكنت قد أخذت عنها بعض طبيعتها ، وكثيراً من عاداتها ، وما يفوق ذلك من أفكارها المنسقة ، فانصعت للواجب والنظام ، وهدأت نفسى . وآمنت بأننى هانئة .. وكنت أبدو فى أعين الأخريات ، بل وفى عينى نفسى ، شخصية محبة للنظام والهدوء . ولكن القدر فرق بينى وبين مس (تمبل) ، ممثلا فى الأب الموقر المستر (ناسمايت) ، الذى تزوج منها . ويومئذ رأيتها وقد ارتدت ثياب السفر ، وصعدت إلى عربة لتقلها ، بعد حفلة الزواج بفترة قصيرة .. وراقبت العربة وهى ترقى التل ، ثم تتوارى خلف حافته ، وأويت بعد ذلك إلى غرفتى ، فقضيت فيها الشطر الأكبر من نصف يوم تعطلت فيه الدراسة ، إكراماً للمناسبة .

ورحت أذرع الغرفة معظم الوقت ، وقد خلت أن شعورى اقتصر على الأسف لما منيت به من فقدانها ، والتفكير فى تعويض هذه الخسارة . حتى إذا فرغت من تأملاتى ، وتطلعت فوجدت النهار قد ولى ، والمساء قد أقبل ، اكتشفت فى نفسى شيئاً جديداً : ذلك هو أننى فى تلك الفترة اجتزت مرحلة انقلاب ، فإذا عقلى يطرح عنه كل ما استعرت من أساليب مس (تمبل) .. أو بالأحرى ، أنها أخذت معها الجو الهادئ الرصين الذى كنت أنعم باستنشاقه فى قربها ، وعدت إلى أصلى الطبيعى ، فبدأت أشعر بالأحاسيس القديمة تتحرك فى صدرى .. لم يكن الأمر

يلوح كما لو أن دعامة انتزعت ، وإنما بدا كأن حافزاً غاب عنى ! .. لم تكن القدرة على الهدوء والطمأنينة هى التى زايلتنى ، وإنما سبب الطمأنينة هو الذى لم يعد قائماً ! كانت دنياى قد انحصرت لبضعة أعوام فى (لوود) ، وكانت خبرتى تتألف قواعدها ونظمها . أما الآن ، فقد تذكرت أن الدنيا الحقيقية أوسع نطاقاً ، وأن ميداناً حافلا بمختلف الآمال والمخاوف ، والأحاسيس والانفعالات ، ينتظر أولئك الذين أوتوا الشجاعة على الانطلاق إلى تلك الدنيا الواسعة ، بحثاً عن المعرفة الحقيقية بالحياة ، بين أخطارها !

* * *

● وذهبت إلى نافذتى ففتحتها وأطللت منها ، فإذا أمامى جناحا المبنى ، وحديقة ، ومشارف بلدة (لوود) ، والأفق بما يتخلله من تلال .. وتجاوزت بعينى كل الأشياء المرئية ، لأستقر ببصرى على أقصاها .. على القمم الزرقاء .. تلك التى كنت أتوق إلى أن أتسلقها وأبلغ ذروتها . كان كل ما فى نطاقها من صخور ، ومروج ، يبدو كأرض سجن ، أو حدود منفى ، فرحت أتتبع ببصرى الطريق البيضاء الملتوية حول قاعدة أحد الجبال ، والتى تلاشت فى خور بين جبلين .. لشد ما صبوت إلى أن أتبعها إلى أبعد من ذلك ! .. وتذكرت الوقت الذى اجتزت فيه هذه الطريق بالذات ، فى عربة .. تذكرت هبوطى ذلك التل مع الغسق ، فلكأنما مر دهر منذ اليوم الذى حملنى نهاره إلى (لوود) أول مرة ، فلم أبرحها بعد ذلك ! .. لقد قضيت كل عطلاتى فى المدرسة — إذ لم تستدعنى مسز (ريد) قط إلى (جيتسهيد) ، ولا زارتنى هى أو أى فرد من الأسرة

إطلاقاً ! — ولم أتصل بالرسائل أو بأية وسيلة ، بالعالم الخارجي . كل ما أعرفه عن الوجود كان ينحصر فى : القواعد والواجبات الدراسية ، والعادات والأهواء ، والأصوات والوجوه ، والعبارات والثياب والعواطف المدرسية .. أما الآن ، فقد شعرت بأن هذا لم يكن كافياً ، وأننى سئمت — فى أصيل واحد — كل الحياة الرتيبة التى عشتها ثمانى سنوات .. ورغبت فى الحرية ! .. ومن أجل الحرية هتفت .. ومن أجلها صليت ! .. وقد خيل إلىّ أنها كانت مبعثرة على أجنحة الريح التى أخذت تهب إذ ذاك فى وهن ، فتخليت عن هذه الأمنية إلى أخرى أكثر منها تواضعاً : تقت إلى شىء من التغيير .. ولكن هذه الأمنية أيضاً بدت كما لو كانت قد تبددت فى الفراغ المبهم .. فصحت شبه قانطة : « إذن ، امنحنى يارب لوناً جديداً — على الأقل — من العبودية ! » .

وهنا دق جرس . كان جرس العشاء يدعونى للهبوط . ولم يتح لى أن أستأنف حبل تأملاتى حتى ساعة النوم .. بل ، حتى فى هذه الساعة ، ظلت المعلمة التى كانت تشاطرنى الغرفة تقصينى عن الموضوع الذى كنت مشوقة إلى العودة إليه ، بسيل من الكلام التافه !.. لكم رحت أتمنى أن يخرسها النعاس ! .. كان يبدو لى أننى لو استطعت العودة إلى آخر فكرة طرأت على ذهنى عندما كنت أقف لدى النافذة ، لو أتانى اقتراح مبتكر يريحنى .. وسمعت — أخيراً — غطيط (مس جرايس) ، زميلتى . وكانت امرأة بدينة من (ويلز) ، لم أر حتى ذلك اليوم فى غطيطها وجيوبها الأنفية سوى مصدر للإزعاج ، أما فى تلك الليلة فقد رحبت فى رضى بأولى نغمات هذا الغطيط ! وما أن تخلصت من مقاطعتها

لأفكارى ، حتى عاد ما انقطع منها إلى الاتصال ، فرحت أجادل نفسى — فى ذهنى طبعاً ، لأننى لم أكن أتكلم بصوت مرتفع : « عبودية جديدة ! .. هناك أمل فى هذه الفكرة .. أجل ، هناك شىء غير عادى فيها .. إنها لا تبدو ، لأول وهلة ، مستمرأة .. إنها ليست كالكلمات الأخرى : الحرية .. الابتهاج .. الاستمتاع .. إن لهذه الكلمات وقعاً بهيجاً حقاً ، ولكنه لايتجاوز فى نظرى الوقع الصوتى ، فهو أجوف ، عابر ، حتى ليعتبر الإنصات إليه مجرد تبديد للوقت .. أما العبودية ! .. لابد أن هذه الكلمة تمثل حقيقة واقعة ! .. كل إنسان يمكن أن يستعبد . لقد استعبدت هنا لثمانى سنوات ، أما الآن ، فإنى أرغب فى أن أستعبد فى مكان آخر . أليس بوسعى أن أختار عبوديتى وفق إرادتى ؟ أليس هذا أمراً جديراً بالتفكير ؟ .. أجل ، أجل . ليست النهاية صعبة ، إذا تيسر لى ذهن نشيط يبتكر وسيلة الوصول إلى غايتى ! » .

واستويت جالسة فى فراشى لأوقظ ذلك الذهن . وكانت الليلة قر ، فغطيت منكبى بالشال ، ثم استأنفت التفكير بكل ما أوتيت من طاقة : « ما الذى أبتغيه ؟ مكان جديد ، فى بيت جديد ، بين وجوه جديدة ، وتحت ظروف جديدة ؟ ! .. إنما أريد هذا ، لأنه لاجدوى من وراء أن أريد شيئاً أفضل ! .. ولكن ، كيف يظفر الناس بمكان جديد ؟ أظنهم يتصلون بالأصدقاء . ولكن هناك كثيرين غيرى لم يؤتوا أصدقاء ما ، فهم مضطرون إلى أن يبحثوا لأنفسهم ، وأن يساعدوا أنفسهم ، فما موردهم ؟ » .. لم يكن فى وسعى أن أهتدى إلى جواب . ومن ثم طلبت إلى عقلى أن يبحث عن جواب ، وبسرعة ، فراح

يجتهد ، ويعمل مسرعاً .. حتى أحسست من الإعياء بضربات فى رأسى وصدغى . ولكنه ظل حوالى الساعة يتخبط فى ظلمات ، دون أن تثمر جهوده ! .. وبعث هذا الجهد الفاشل حمى فى كيانى ، فنهضت ، وجست خلال الحجرة ، وأزحت الستارة ، فلمحت نجمة أو اثنتين . ثم ارتجفت من البرد ، فعدت إلى السرير .. وإذا بجنية رحيمة قد أسقطت الحل المنشود على وسادتى ، فى غيابى ! إذ لم أكد أستلقى على السرير ، حتى تسلل الجواب إلى عقلى فى هدوء طبيعى : « أولئك الذين ينشدون مناصب ، يعلنون عن حاجتهم ، فعليك أن تنشرى إعلاناً فى صحيفة (شاير هيرالد) ! » .. ولكن ، كيف وأنا لا أدرى شيئاً عن الإعلان ؟ .. وفى الحال ، قفزت الإجابات إلى رأسى فى لطف : « يجب أن تضعى الإعلان والأجر الذى يستحق عنه ، فى ظرف موجه إلى رئيس تحرير الصحيفة ، ثم أودعيه فى أول فرصة بريد (لوتون) ، واكتبى أن الردود يجب أن توجه إلى (ج . ا) ، بمكتب البريد . وفى وسعك أن تذهبى وتسألى بعد حوالى أسبوع من إرسال الخطاب ، عما إذا كان ثمة ردود وصلت، ثم تصرفى على هدى ذلك .. وراجعت هذا الحل مثنى وثلاثاً ، حتى هضمه عقلى، فبات فى شكل واضح ،عملى .. وشعرت بالرضى ، فنمت !

* * *

● ونهضت مع أولى بواكير النهار ، فكتبت إعلانى ، وأرفقته بالمبلغ ، قبل أن يدق الجرس لإيقاظ المدرسة .. وكانت هذه صيغته : « شابة ذات خبرة بالتدريس » — وكنت لم أعمل كمدرسة سوى

عامين ! — « ترغب فى عمل فى أسرة بها أطفال دون الرابعة عشرة » — فقد خطر لى أنه لم يكن يليق بى وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة ، أن أضطلع بإرشاد تلاميذ يقاربوننى فى السن — « وهى مؤهلة لتدريس الفروع العادية لمنهج تربوى إنجليزى جيد ، مع اللغة الفرنسية ، والرسم ، والموسيقى » ، — وكانت هذه القائمة المحدودة تبدو حافلة فى تلك الأيام أيها القارئ — « اكتبوا إلى ج . ا — مكتب بريد (لوتون) بمقاطعة...».

وظلت هذه الرسالة مودعة فى درجى طيلة النهار ، حتى إذا فرغنا من تناول الشاى ، استأذنت الناظرة الجديدة فى الذهاب إلى (لوتون) لشراء بعض مهام لازمة لى ولواحدة أو اثنتين من زميلاتى المدرسات . وسرعان ما أذنت لى، فذهبت . وكانت (لوتون) على بعد ميلين من المدرسة ، والأمسية رطبة ولكن النهار كان لا يزال طويلا ، فعرجت على متجر أو اثنين ، ثم ألقيت الخطاب فى البريد ، وعدت تحت وابل من المطر ، والماء يتصبب من ثيابى .. ولكننى كنت مرتاحة الفؤاد .

ولاح الأسبوع التالى طويلا ، ولكنه مالبث أن انتهى — أخيراً — ووجدتنى مرة أخرى ، قبيل نهاية يوم مشرق من أيام الخريف أسعى على قدمى إلى (لوتون) . وكانت الطريق .. بهذه المناسبة بديعة ، تمتد على طول جانب الغابة ، وخلال أبهى منعرجات المرتفع ، ولكنى فى ذلك اليوم كنت منصرفة بتفكيرى عن سحر الطبيعة إلى الخطابات التى ربما كانت — أو لم تكن — فى انتظارى ، فى القرية الصغيرة التى كنت أقصدها . وكانت المهمة الصورية — التى تعللت بها للذهاب — هى أن أترك مقاس قدمى للإسكافى كى يصنع لى زوجاً من الأحذية . لذلك

بادرت بإنهاء هذه المهمة أولا .. حتى إذا فرغت منها ، عبرت الشارع الصغير الهادئ ، من متجر الإسكافى إلى مكتب البريد الذى كانت تتولاه سيدة عجوز ، تلبس نظارة من (الباغة) على أنفها ، وكمين أسودين حول ذراعيها .. فسألتها : « هل هناك رسائل باسم ج . ا ؟ » . فتفرست فىّ من فوق عدستيها ، ثم فتحت درجاً عبثت بمحتوياته وقتاً طويلا — بلغ من طوله أن بدأت آمالى تترنح ! — وأخيراً ، أمسكت برسالة أمام عدستيها زهاء خمس دقائق ، ثم قدمتها لى ، مشفوعة بنظرة أخرى تنم عن تساؤل وعدم اطمئنان . وكانت الرسالة باسم (ج . ا) ، فعدت أسألها : « أليست هناك رسائل أخرى ؟ » ، فقالت : « لامزيد ! » . وإذ ذاك دسست الرسالة فى جيبى ، ويممت شطر المدرسة — إذ لم يكن فى وسعى أن أفضها إذ ذاك ، لأن القواعد كانت تلزمنى بالعودة قبل الساعة الثامنة ، وكانت وقتئذ قد بلغت السابعة والنصف ! — وكانت فى انتظارى واجبات عديدة عند وصولى : إذ كان علىّ أن أراقب البنات فى ساعة الاستذكار ، ثم كان الدور دورى فى تلك الليلة كى أتلو الصلوات ، ثم أسلم التلميذات إلى مراقدهن . وبعد ذلك تناولت عشائى مع المدرسات الأخريات . بل إننى لم أجد فسحة من فراغ بعد أن أوينا إلى مخادعنا ، فإن (مس جرايس) — التى لامفر منها — ظلت تفرض نفسها علىّ ! ولم تكن لدينا سوى بقية قصيرة من شمعة فى الشمعدان فخشيت أن تظل زميلتى تتكلم حتى تحترق الشمعة عن آخرها . على أن العشاء الثقيل الذى تناولته لم يلبث أن أحدث أثراً منوماً ، لحسن الحظ ، فسرعان ما انبعث غطيطها ، قبل أن أفرغ من خلع ثيابى . وكانت

لاتزال ثمة بوصة باقية من الشمعة ، فتناولت الرسالة ، وكان الخاتم الذى أغلقت به يحمل الحرف (ف) ، ففضضتها ، ووجدت محتوياتها موجزة : « إذا كانت (ج . ا) التى نشرت إعلاناً فى صحيفة (شاير هيرالد) يوم الخميس الماضى ، تتوفر لها المؤهلات المذكورة ، وإذا كانت فى وضع يمكنها من أن تقدم شهادات تبعث على الرضى بشأن أخلاقها وكفاءتها ، فإن ثمة منصباً معروضاً عليها ، حيث لايوجد سوى تلميذ واحد — فتاة صغيرة دون العاشرة من العمر — وحيث المرتب ثلاثون جنيهاً فى العام . فالمرجو من (ج . ا) أن ترسل شهاداتها ، واسمها ، وعنوانها ، وكل التفصيلات بهذا الصدد إلى : مسز (فيرفاكس) ، بـ (ثورنفيلد) ، بالقرب من ميلكوت ، مقاطعة ::: » ؟

وتأملت الرسالة طويلا : كان الخط من طراز قديم ، وينم عن يد غير ثابتة ، كما لو كانت يد سيدة مسنة ، وكانت هذه بادرة مرضية ، إذ كان قد غشينى خوف من أن تتطلب منى الظروف أن أتصرف من تلقاء نفسى ، وبوحى من فكرى ، فأتعرض للتورط فى مأزق ! .. ثم إننى كنت أرجو — قبل كل شىء — أن تكون نتيجة جرأتى حميدة ، سليمة — « فى موضعها » ، كما يقال — ومن ثم أحسست أن وجود سيدة مسنة عنصر لابأس به فى العمل الذى كنت مقدمة عليه :

(مسز فيرفاكس) ! .. وتمثلتها فى الثوب الأسود والقلنسوة ، اللذين ترتديهما الأرامل .. وقد تكون باردة ، ولكنها ليست وقحة .. مثال للسيدة الإنجليزية ، المسنة الوقور ! .

و (ثورنفيلد) ! .. لابد أن هذا كان اسم دارها . ووقر فى نفسى

أنه مبنى أنيق ، منظم ، وإن أخفقت فى أن أرسم فى خيالى صورة لغرفه ..

و (ميلكوت) !.. ورحت أستحث ما علق فى ذاكرتى من خريطة إنجلترا ، حتى وقعت عليها .. على اسم المدينة ، واسم المقاطعة التى كانت أقرب إلى لندن — بسبعين ميلا — من المقاطعة النائية التى كنت أقيم فيها ، وكان هذا مشجعاً لى ! كنت أتوق إلى الذهاب إلى مكان فيه حياة وحركة ، وقد كانت (ميلكوت) مدينة صناعية كبيرة على ضفاف نهر (ا ...) ، فهى مكان حافل بالحركة ولا شك ، وفى هذا كل الخير ، إذ سيكون مغايراً لكل ما خبرته من قبل .. لا لأن خيالى قد افتتن بفكرة المداخن الطويلة ، وسحب الدخان ، وإنما — كما قلت لنفسى — « قد تكون (ثورنفيلد) ، على مسافة كبيرة من المدينة » !.. وهنا كانت الشمعة قد انتهت ، فانطفأ الضياء ! .

وكان لابد من اتخاذ خطوات جديدة فى اليوم التالى ، فلم يعد فى الوسع كتمان خططى فى صدرى ، بل لابد من أن أبوح بها لأوفق فى تنفيذها : لذلك سعيت إلى الناظرة خلال فسحة الغداء ، وأنبأتها بأن أمامى احتمالا للحصول على منصب جديد بمرتب مضاعف — إذ لم أكن أتقاضى فى لوود سوى خمسة عشر جنيهاً فى العام — وسألتها أن تنوب عنى فى مفاتحة مستر بروكلهيرست ، أو أحد أعضاء اللجنة ، فى الأمر.. وأن تتأكد مما إذا كانوا يسمحون لى بأن أذكرهم كمصدر يستطيع المخدوم الجديد أن يسأله عنى ؟.. وقبلت الناظرة راضية أن تتوسط فى الأمر . فلما كان اليوم التالى ، طرحت الموضوع على مستر بروكلهيرست

الذى قال إنه لابد من الكتابة إلى مسز ريد ، لأنها كانت الوصية علىّ : ومن ثم وجهت رسالة إلى السيدة ، فأجابت بأن لى أن أفعل ما أشاء ، لأنها كفت منذ زمن طويل عن التدخل فى شئونى !.. ودارت هذه الرسالة على أعضاء اللجنة ، وبعد مدة خلت أنها أطول وأسوأ ما كان يعطلنى ، صدر الإذن رسمياً بأن لى أن أعمل على تحسين حالى كيفما أستطيع ، مع التأكيد بأننى كنت دائماً حسنة السلوك والتصرف ، سواء كمدرسة أو كتلميذة فى (لوود) ، وأننى سأزود بشهادة عن أخلاقى وكفاءتى ، يوقعها مفتشو المعهد . وفعلا تسلمت هذه الشهادة فى خلال شهر ، فأرسلت نسخة منها إلى (مسز فيرفاكس) ، وتلقيت رد السيدة بأنها اقتنعت بصلاحيتى ، وحددت يوماً بعد أسبوعين لأتسلم عملى كمربية فى دارها . ومن ثم انهمكت فى اتخاذ أهبتى ، وسرعان ما انقضى الأسبوعان ، ولم أكن أملك ثياباً كثيرة ، غير أن ما كنت أملكه كان يكفى حاجتى . وكان اليوم الأخير لى فى (لوود) كافياً لأن أرتب حقيبتى — عين الحقيبة التى أحضرتها معى من (جيتسهيد) منذ ثمانى سنوات ! — ثم حزمتها ، وثبت إليها بطاقة باسمى ، ولم يبق سوى نصف ساعة حتى يفد الحمال لينقلها إلى (لوتون) ، حيث ألحق بها فى ساعة مبكرة من الصباح التالى ، عندما أذهب لأنتظر عربة السفر.

ونظفت ثوب السفر الأسود ، وأعددت قبعتى وقفازى وملفحتى ، وفتشت جميع أدراجى لأستوثق من أننى لم أنس شيئاً خلفى . ولما لم يبق أمامى ما أفعله ، جلست وحاولت أن أحظى بقسط من الراحة .. ولكنى لم أستطع ، برغم أننى كنت قد قضيت طيلة اليوم واقفة على

قدمى .. لم أستطع أن أستريح لحظة ، فقد كنت شديدة الانفعال .
كانت ثمة صفحة من حياتى تغلق فى تلك الليلة ، لكى تفتح صفحة جديدة فى الغد .. فلم يكن من الممكن أن يغمض لى جفن فيما بين الفترتين ، بل كان لابد من أن أظل يقظة محمومة ، أرقب الانقلاب الذى كان يجرى .

وقالت خادم صادفتنى فى البهو حيث كنت أهيم كروح قلقة : « هناك شخص يا آنسة فى الطابق الأسفل يرغب فى أن يراك » .. فقلت لنفسى : « لابد أنه الحمال » ، وهبطت السلم دون أن أتحرى . وفيما كنت أجتاز القاعة الخلفية — أو حجرة جلوس المدرسات — التى كان بابها مواربا ، فى طريقى إلى المطبخ ، إذا بامرأة تجرى خارجة منها .. وصاحت تلك المرأة وقد اعترضت طريقى وأمسكت بيدى : « إنها هى .. إننى متأكدة ! إن بوسعى أن أعرفها أينما تكون ! » .. ونظرت فرأيت المرأة ترتدى ثياباً كثياب الخادم الراقية ، وكأنها رئيسة خدم ، برغم أنها كانت ما تزال شابة ، مليحة جداً ، ذات شعر وعينين سوداء وبشرة لطيفة .. وعادت تهتف فى صوت وابتسامة كدت أعرفهما : « حسناً ، هل عرفتنى ؟.. ما أظنك نسيتنى يا مس جين ؟ » .

وفى اللحظة التالية ، كنت أعانقها وأقبلها فى شوق ودهشة : « بيسى !.. بيسى !.. بيسى ! » . ظللت أهتف هكذا ، فاستقبلت هى ندائى نصف باكية ، ونصف ضاحكة ، ثم مضينا معاً إلى حجرة الجلوس : وإلى جانب المدفأة ، كان ثمة طفل فى الثالثة من عمره ، فى قميص وبنطلون . وبادرت بيسى قائلة : « هذا ابنى الصغير » :

— إذن فأنت قد تزوجت يا بيسى ؟

— أجل ، منذ خمس سنوات تقريباً .. تزوجت من روبرت ليفن الحوذى .. ولى منه ابنة أخرى عدا (بوبى) هذا ، أسميتها (جين) !

— أو لا تسكنين فى (جيتسهيد) ؟

— بلى ، إننى أقيم فى بيت البواب ، فإن البواب القديم قد رحل .

— حسناً ، وكيف حالهم جميعاً ؟.. أنبئينى بكل شىء عنهم يا بيسى ولكن ، اجلسى أولا .. وأنت يا بوبى ، تعال فاجلس على ركبتى .. هلا جئت ؟

ولكن بوبى آثر أن يتمسح فى أمه .. واستأنفت (مسز ليفن) حديثها : « إنك لم تزدادى فى الطول كثيراً يا مس جين ، ولم تسمنى بدرجة تذكر ، وما أرى إلا أنهم لم يحسنوا تغذيتك فى المدرسة ، إن مس ريد أطول منك بكتف ورأس ، ومس جورجيانا فى عرضك مرتين ! » . فقلت : « أظن جورجيانا جميلة يا بيسى ؟ » .

— جداً .. لقد ذهبت إلى لندن فى الشتاء الماضى مع أمها ، وهناك أعجب بها كل امرىء ، ووقع لورد شاب فى غرامها ، ولكن علاقتهما لم تقم على تكافؤ . فماذا تظنين ؟.. لقد دبر الشاب الأمر مع مس جورجيانا على أن يفرا معاً ، ولكن أمرهما اكتشف ، فأوقفا !.. وكانت مسز ريد هى التى كشفتهما ، وأعتقد أنها كانت تحسدهما . وهى وأختها الآن تعيشان كما يعيش القط مع الكلب ، فهما تتشاجران دائماً !

— وما أنباء (جون ريد) ؟

— آه ، إنه ليس كما تروم أمه . لقد ذهب إلى المدرسة الثانوية ،



وعادت تهتف فى صـوت وابتسـامة كدت أعـرفهما :
« حسنا ، هل عرفتنى ؟ ما أظنك نسيتنى يا مس جين »

ورسب . ثم رغب أخواله فى أن يغدو محامياً ، فأصبح يدرس القانون ، ولكنه شاب بالغ الفساد ، وما أظنهم سيخلقون منه إنساناً ناجحاً !

— وما شكله ؟

— إنه جد طويل .. وبعض الناس يصفونه بأنه مليح ، ولكن له شفتين غليظتين .

— ومسز ريد ؟

— إن السيدة قد صارت بدينة ، وما تزال مليحة الوجه ، ولكنى أظن أن عقلها ليس متزناً . ثم إن سلوك مستر جون لا يرضيها ، فهو ينفق نقوداً كثيرة .

— هل هى التى أوفدتك إلى هنا يا بيسى ؟

— لا ، فى الحق .. ولكنى طالما رغبت فى أن أراك ، فلما سمعت بأن خطاباً وصل منك ، وأنك ذاهبة إلى بلد آخر ، رأيت أن أجىء ، وأن أراك قبل أن تصبحى أبعد من أن أصل إليك .

— أخشى أن يكون أملك قد خاب فىّ يا بيسى !؟

قلت ذلك ضاحكة ، إذ لاحظت أن نظرة بيسى وإن عبرت عن احترام ، إلا أنها لم تنم عن شىء من الإعجاب .. ولكنها بادرت هاتفة : « لا ، يا مس جين ، ليس تماماً .. إنك راقية إلى درجة كبيرة ، وإنك لتبدين سيدة محترمة ، وهذا ما كنت أرتقبه لك ، فإنك لم تكونى جميلة فى طفولتك » .

وابتسمت لجواب بيسى الصريح ، وشعرت بأنه كان صحيحاً ، ولكنى أعترف بأننى لم أتلق عبارتها الأخيرة بغير اهتمام ، فإن معظم

الناس يودون فى الثامنة عشرة أن يروقوا للغير ، ومن ثم فإن اقتناعهم بأن منظرهم الخارجى لا يحقق شيئاً قريباً من هذه الرغبة ، لا يبعث فى نفوسهم الرضى أو الاغتباط .

وتابعت بيسى قولها : « على أننى أومن بأنك ماهرة .. ما الذى تتقنينه ؟.. هل تجيدين العزف على البيانو ؟ » :

— بقدر بسيط :

وكان ثمة (بيانو) فى الحجرة ، فسارت (بيسى) إليه وفتحته ، ثم دعتنى إلى أن أعزف لها شيئاً ، فوقعت عليه لحناً أو اثنين .. وبدا الإعجاب على بيسى ، وقالت فى نشوة : « إن الآنستين (ريد) لا تجيدان العزف مثلك !.. لقد كنت دائماً أقول إنك ستتفوقين عليهما فى التعلم . وهل تجيدين الرسم ؟ » .. فقلت : « هذا واحد من رسومى فوق المدفأة » .. وكان منظراً طبيعياً بالألوان المائية ، أهديته إلى الناظرة ، اعترافاً بوساطتها الموفقة لدى اللجنة من أجلى ، فأحاطته بإطار وزجاج .. وهتفت بيسى : « إنه جميل يا مس جين !.. إنها صورة بديعة لا تقل جمالا عن أية صورة يستطيع المدرس الذى يعلم مس ريد أن يرسمها ، فما بالك بالآنستين نفسيهما ؟.. ليس فى وسعهما أن ترسما شيئاً قريباً منه .. وهل تعلمت الفرنسية ؟ »

— أجل يا بيسى .. أستطيع أن أقرأ وأتحدث بها .

— وهل تعرفين التطريز على الحرير والتيل ؟

— أجل :

— إذن فأنت سيدة راقية حقاً يا مس جين !.. كنت أتوسم أنك

ستصبحين هكذا ، وسوف تمضين فى الحياة قدماً ، سواء رعاك أقاربك أو لم يرعوك .. ولكن : هناك شيء كنت أود أن أسألك عنه ؟.. هل سمعت قط عن أهل أبيك .. آل إير ؟

— أبداً .. لم أسمع عنهم فى حياتى على الإطلاق !

— إنك تعرفين أن السيدة كانت تقول دائماً أنهم فقراء، جديرون بالازدراء .. وهم قد يكونون فقراء فعلا ، ولكنى أعتقد أنهم لا يقلون عراقة أصل ومحتد عن آل (ريد) ، إذ حدث ذات يوم — منذ سبع سنوات — أن قدم إلى (جيتسهيد) سيد من آل (إير) ورغب فى أن يراك ، فقالت السيدة إنك فى مدرسة تبعد خمسين ميلا ، وإذ ذاك بدا عليه الاستياء ، لأنه لم يكن يملك أن يمكث فى إنجلترا حتى يزورك ، إذ كان راحلا إلى دولة خارجية ، وكانت السفينة تزمع الإقلاع من لندن بعد يوم أو اثنين ، وكانت تبدو عليه سيماء السادة ، وأعتقد أنه كان أخ أبيك !

— وأية دولة أجنبية كان راحلا إليها ؟

— جزيرة على بعد آلاف الأميال ، يصنع فيها النبيذ .. كما ذكر لى الساقى .

فقلت : « أهى (ماديرا) ؟ »

— أجل .. هى .. هذه نفس الكلمة !

— وإذن فقد رحل ؟

— أجل .. إنه لم يمكث عندنا سوى دقائق ، إذ كانت السيدة

مسرفة فى التعالى عليه ، وقد وصفته بعد ذلك بأنه (تاجر ذليل) . ويعتقد روبرت — زوجى — أنه كان تاجر نبيذ .

— من المحتمل جداً، أو لعله كان موظفاً أو وكيلا لأحد تجار النبيذ .

وتحدثت مع بيسى عن الأيام الخوالى ساعة أخرى ، ثم اضطرت هى للانصراف .. وفى الصباح التالى رأيتها ثانية — فى (لوتون) — لبضع دقائق ، وأنا أنتظر العربة .. ثم افترقنا أخيراً لدى باب فندق (بروكلهيرست) هناك ، واتخذت كل منا طريقاً غير طريق الأخرى : أما هى ، فيممت شطر حافة هضبة (لوود) ، لتنتظر العربة التى كانت ستقلها فى عودتها إلى (جيتسهيد) .. وأما أنا فقد صعدت إلى العربة التى أقلتنى إلى مقر واجباتى الجديدة ، وحياتى الجديدة ، فى مكان لم أكن أعرف عنه شيئاً ، بالقرب من (ميلكوت) .

* * *

الفصل الحادى عشر

● إن فصلا جديداً فى رواية ليشبه منظراً جديداً فى مسرحية .. ولذلك فإننى عندما أرفع الستار فى هذه المرة ، أدعوك أيها القارئ إلى أن تتخيلنى جالسة فى حجرة بفندق (جورج) فى بلدة (ميلكوت) ، وقد غطى الجدران ورق مزخرف كالذى يغطى جدران حجرات الفنادق .. ومن حولى سجاد ، وأثاث ، وأدوات للزينة تعلو الموقد ، وصور عديدة : من بينها صورة الملك (جورج الثالث) ، وصورة ولى عهد إنجلترا ، وثالثة تمثل وفاة (وولف) .. كل ذلك يبدو لك تحت نور مصباح من الزيت يتدلى من السقف ، وعلى ضوء نار قوية جلست أنا بجوارها ، مرتدية معطفى وقبعتى ، بعد أن وضعت فراء يدى ومظلة المطر على منضدة ، جلست أدفئ جسمى من البرد بعد أن تعرضت ست عشرة ساعة لرطوبة أكتوبر وبرودته ، فقد غادرت (لوتون) فى الرابعة صباحاً، وها هى الساعة فى ميلكوت تدق الثامنة .

وإذا كنت أبدو للقارئ وقد توفرت لى أسباب الراحة ، إلا أننى لم أكن مستريحة البال ، لأننى كنت أتوقع أن أجد عند وصولى أحداً فى انتظارى . وتلفت حولى فى قلق — وأنا أهبط السلم الخشبى الذى وضعه خادم الفندق توفيراً لراحتى — إذ كنت أتوقع أن أسمع من ينطق باسمى ، وأن أرى بعض أوصاف العربة التى تنتظرنى لتحملنى إلى (ثورنفيلد) .. ولكنى لم أر شيئاً من ذلك ! وعندما سألت الخادم عما إذا كان ثمة من سأل عن (مس اير) ، أجابنى بالنفى . ولذلك لم

يكن أمامى من سبيل سوى أن أطلب اقتيادى إلى حجرة خاصة .. وها أنا ذى أنتظر ، بينما تنتهب أفكارى كل ضروب الشكوك والمخاوف !

إنه لشعور جد عجيب أن يرى الشباب نفسه — وهو لم تصقله التجارب بعد — وقد أصبح فى معزل تام عن العالم ، وأخذ يسبح مع التيار — دون أن تربطه أية رابطة بإنسان ! — والشك يساوره فى الوصول إلى أى ميناء ، وثمة موانع جمة تحول دون عودته إلى المكان الذى غادره من قبل .. ولكن سحر المغامرة يضفى حلاوة على هذا الشعور ، كما يبعث فيه بريق الزهو والكبرياء ، دفئاً .. بيد أن وجيب الخوف لا يلبث أن يعكر صفوه ، فقد طغى على شعور بالخوف عندما انقضى نصف ساعة وأنا ما أزال بمفردى !.. وحدثتنى نفسى بأن أدق الجرس ، ثم سألت الخادم حين لبى دعوتى : « هل يوجد بالقرب من هنا مكان يدعى (ثورنفيلد) ؟ » .

— (ثورنفيلد) ؟ لا أدرى يا سيدتى . سأسأل فى المشرب .

ثم اختفى ، ولكنه عاد بعد لحظات يقول : « هل اسمك (اير) يا آنسة ؟ »

— نعم .

— إن شخصاً هنا فى انتظارك .

فوثبت واقفة وأخذت فراء يدى ومظلتى ثم أسرعت إلى دهليز الفندق حيث كان يقف رجل عند الباب المفتوح . ورأيت فى نور مصباح الطريق الخافت عربة يجرها جواد واحد . وقال الرجل فى اقتضاب وهو يشير إلى حقيبتى فى الدهليز : « هذا متاعك على ما أظن ؟ » .

— نعم .

فحمله إلى العربة ، وعندئذ ركبت . وقبل أن يغلق الباب علىّ سألته عن المسافة إلى (ثورنفيلد) ، فقال : « حوالى ستة أميال » .

— فى كم من الزمن نصل إلى هناك ؟

— فى حوالى ساعة ونصف .

ثم أغلق باب العربة جيداً وصعد إلى مقعده الخارجى ، وانطلق بالعربة على مهل ، مما أتاح لى وقتاً كافياً للتأمل والتفكير : كنت مرتاحة فى نهاية الأمر لأننى أقترب من نهاية رحلتى . وعندما اضطجعت فى العربة المريحة — وإن لم تكن أنيقة — استرسلت كما أشاء فى تأملاتى ، وقلت أحدث نفسى : « أستطيع أن أستدل من بساطة الخادم والعربة أن (مسز فيرفاكس) ليست على جانب كبير من الثراء ، ولكن هذا أفضل كثيراً ، لأننى لم أعش سوى مرة واحدة بين قوم أغنياء ، وكنت معهم غاية فى البؤس والشقاء ! .. وإننى لأتساءل : هل تعيش مخدومتى مع أحد غير ابنتها الصغيرة ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، وكانت البنت ظريفة أنيسة إلى حد ما ، فإننى بكل تأكيد سأقوى على الحياة معها ، وسأبذل قصارى جهدى — وإن كان من المؤسف أن يبذل الإنسان أحياناً قصاراه ، دون أن يوفق على الدوام ! — والواقع أننى فى (لوود) حزمت رأيى على ذلك ، وحافظت على قرارى ، فوفقت إلى إرضاء الجميع ! .. أما مع (مسز ريد) فأذكر أننى بذلت ما أستطيع ، فلم ألق سوى الامتهان والازدراء !.. ولذلك أضرع إلى الله ألا أجد فى

مسز فيرفاكس (مسز ريد أخرى) !.. أما إذا كانت كذلك ، فلست مضطرة إلى المكث معها ، وإذا وقع أسوأ ما أتوقعه ففى وسعى أن أنشر إعلاناً آخر .. ثم تساءلت : كم قطعنا من الطريق حتى الآن ؟

وأنزلت النافذة ثم أطللت برأسى : كانت (ميلكوت) خلفنا ، واستدللت من تعدد أنوارها على أنها مكان على جانب كبير من الاتساع .. أوسع كثيراً من (لوتون) .. وعلى قدر ما استطعت أن أتبين وجدتنى فيما يشبه ساحة عامة ، ولكن كانت البيوت تتناثر بكثرة فى أرجاء ذلك الإقليم . وشعرت بأننى فى منطقة تختلف عن (لوود) .. منطقة أكثر منها سكاناً وأقل جمالا فى مناظرها ، وأصخب منها حركة ، وأقل روعة .

وكانت الطريق شاقة ، والليل كثير الضباب ، فترك الحوذى العنان للجواد ليسير على مهل .. وامتدت الساعة والنصف — بلا ريب — إلى ساعتين .. وأخيراً استدار فى مقعده وقال : « لست الآن بعيدة عن (ثورنفيلد) ! » .

فأطللت برأسى مرة أخرى ، ووجدتنا نمر بكنيسة .. رأيت برجها المنخفض العريض مشرئباً إلى السماء ، وسمعت جرسها يدق ربع الساعة . كما شاهدت كوكبة من الأضواء على جانب من التل ، تميز قرية أو دسكرا . وبعد حوالى عشر دقائق ، نزل السائق وفتح بوابتين مررنا خلالهما ثم سمعنا صليلهما من خلفنا . وبعد ذلك صعدنا ببطء فى طريق منحدر حتى بلغنا واجهة طويلة لمنزل ينبعث ضياء شمعة من إحدى نوافذه المسدولة الستائر ، بينما كانت بقية النوافذ مظلمة . وتوقفت العربة أمام الباب الخارجى الذى فتحته إحدى الخادمات ، فنزلت

ودخلت ، تتقدمنى الخادمة إلى بهو مربع انبثت فى أرجائه أبواب عالية . وأدخلت إلى حجرة بهرتنى فى أول الأمر بأضواء مزدوجة ، من النيران والشموع ، لا تتفق مع الظلمة التى اعتادتها عيناى طيلة أكثر من ساعتين .. فلما استطعت مع ذلك أن أتبين ما أمامى ، شاهدت منظراً أنيقاً مقبولا : حجرة مريحة صغيرة ، بها مائدة مستديرة بالقرب من موقد تشتعل فيه النار .. ومقعد بمسندين ، عالى الظهر ، وإن كان من الطراز القديم ، وقد جلست فيه (أنظف) سيدة يمكن أن يتصورها الخيال : سيدة ضئيلة الجسم ، متقدمة فى السن ، ترتدى قبعة حداد وعباءة سوداء من الحرير ، ومرولة من (الموسلين) الناصع البياض .. صورة طبق الأصل لمسز فيرفاكس كما تخيلتها من قبل ، وإن جاءت أقل بهاء وجمالا . وكانت منهمكة فى شغل الإبرة ، وقد جلست عند قدميها قطة كبيرة فى رزانة واحتشام . وقصارى القول ، لم يكن ينقصها شىء لاستكمال المثل الأوفى للراحة المنزلية . والحق أننى لم أكن أتصور مقدمة مثل هذه تطمئن مربية جديدة ، ولا عظمة كهذه تغمر كل شىء ، أو فخامة تربك وتذهل ؟.. وأخيراً دخلت ، فنهضت السيدة العجوز وتقدمت من فورها فى حنان لاستقبالى ، قائلة : « كيف حالك ياعزيزتى ؟ أخشى أن تكون الرحلة قد أتعبتك ، لأن (جون) يقود العربة ببطء شديد لا بد أنك تحسين بالبرد .. تعالى اقتربى من النار » .

قلت : « أظنك مسز فيرفاكس ؟ » .

— نعم . أنت على حق .. اجلسى .

ثم قادتنى إلى مقعدها ومضت تخلع عنى شالى ، وتفك أشرطة قبعتى

الصغيرة .. فتوسلت إليها ألا تحمل نفسها كثير عناء ، لكنها أجابتنى : « أوه .. لاعناء فى ذلك ولا تعب . أظن يديك قد خدرهما البرد .. أعدى يا (لياه) شراباً ساخناً [1] ، وشطيرة (سندويتش) أو اثنتين .. هاهى مفاتيح حجرة المؤونة » .

ثم أخرجت من جيبها عنقوداً من المفاتيح يليق بربة بيت ، سلمته للخادمة .. واستطردت تحدثنى : « والآن اقتربى من النيران . لقد جئت بمتاعك معك ، أليس كذلك ياعزيزتى ؟ » .

— أجل ياسيدتى .

— سآمر بحمله إلى غرفتك .

ثم انطلقت إلى خارج الغرفة فى جلبة وضوضاء ، فقلت أحدث نفسى : « إنها تعاملنى كما لو كنت زائرة ! وما كنت أتوقع مثل هـذا الاستقبال ، بل كنت أتوقـع فتوراً وغلظة ! .. هـذا يخالف ما سمعته عن معاملة المربيات ، ولكن .. يجدر بى ألا أبتهج بهذه السرعة ! » .

وعادت السيدة فرفعت بيديها أشغال الإبرة ، كما رفعت كتاباً أو اثنين من فوق المنضدة ، لتفسح مكاناً للصينية التى جاءت بها (لياه) إذ ذاك ، ثم قدمت لى بنفسها الشراب !.. وشعرت بالارتباك عندما وجدتنى موضع اهتمام لم ألقه من قبل — وبخاصة من مخدومتى ورئيستى — ولكنى عندما وجدتها لا تعتبر ماتفعله شيئاً ليس فى موضعه ، آثرت أن

(١) شراباً يتكون من مزيج من الخمر ، والماء ، والسكر ، وجوز الطيب ، وعصير الليمون !

أتلقى لطفها ومجاملتها فى هدوء .. ثم سألتها ، بعد أن تناولت بعض ما قدمته لى : « هل سأحظى الليلة بلقاء (مس فيرفاكس) ؟ » ؟

فقالت السيدة الطيبة وهى تقترب بأذنها من فمى : « ماذا قلت يا عزيزتى ؟ إننى ثقيلة السمع » .. فأعدت السؤال بصوت واضح ؛ وكان جوابها : « مس فيرفاكس ؟ أوه . إنك تعنين مس (فارنس) ! إن (فارنس) هو اسم تلميذتك الجديدة » .

— حقاً ؟ إذن فهى ليست ابنتك ؟

— كلا ، فأنا لا عائلة لى .

وكان فى وسعى أن أتابع تحرياتى الأولى فأسألها عن علاقتها بمس فارنس ، ولكنى أدركت أن ليس من الأدب أن أطرح كثيراً من الأسئلة .. هذا إلى أننى كنت واثقة من أننى سأسمع ما أريد ، فى الوقت المناسب !

وجلست أمامى وأخذت قطتها على ركبتها ، ثم استرسلت تقول : « أنا مغتبطة .. مغتبطة جداً بحضورك ، لأنه مما يبهج جداً أن يعيش الإنسان هنا الآن ، بل فى كل وقت ، مع رفيق يؤنسه . إن (ثورنفيلد) قصر جميل قديم ، أهمل شأنه كثيراً فى السنوات الأخيرة ولكنه ما يزال مكاناً محترماً . وأنت تعلمين أن الإنسان فى الشتاء يشعر بالوحدة شعوراً موحشاً ، حتى فى خير الأمكنة .. أقول الوحدة لأن (لياه) فتاة ظريفة بكل تأكيد ، كما أن (جون) وزوجته فى غاية الدماثة ، ولكن سترين أنهم جميعاً مجرد خدم .. ولا يمكن أن نخاطبهم على قدم المساواة ، بل يجب أن نقصيهم إلى الحد الذى لا نخشى عنده أن نفقد سلطاننا عليهم . والحق أنه فى الشتاء

الماضى — وكان شتاء جد قارس إذا كنت تذكرين .. فحتى عندما كان الثلج يكف عن الانهمار ، كانت السماء تمطر ، والرياح تهب وتعصف ! — لم يطرق هذا المنزل مخلوق ، فيما عدا القصاب وساعى البريد ، من نوفمبر حتى فبراير ! .. بحيث استبد بى الأسى والاكتئاب لجلوسى بمفردى ليلة بعد ليلة . وكانت (لياه) تقرأ لى أحياناً ، ولكنى لا أعتقد أن الفتاة المسكينة كانت مغتبطة بهذه المهمة ، بل كانت تعتبر نفسها فى سجن ! أما فى الربيع والصيف فتتحسن أحوال الإنسان وتتغير كثيراً بفضل أشعة الشمس وطول النهار .. ثم بعد ذلك ، فى بداية هذا الخريف ، قدمت الصغيرة (آديلافارنس) ومعها مربيتها .. والأطفال سرعان ما يدخلون البهجة على المنزل ! .. والآن وقد جئت أنت إلى هنا ، فسوف أكون فى غاية السرور .. » .

والواقع أن قلبى انشرح لهذه السيدة الفاضلة عندما سمعت حديثها ، فاقتربت بمقعدى منها ، وعبرت لها عن رغبتى المخلصة فى أن تجد فى رفقتى ما ترجوه من سرور .. فقالت : « ولكنى لن أبقيك الليلة إلى ساعة متأخرة ، فها هو الليل ينتصف ، كما أنك كنت فى رحلة طوال اليوم ولا بد أنك تشعرين بالتعب .. فإذا كانت قدماك قد دفئتا تماماً فسأقودك إلى مخدعك . إننى أعددت لك الحجرة الملاصقة لحجرتى . وهى غرفة صغيرة ، ولكنى أعتقد أنك سوف تفضلينها على الغرف الكبيرة الأمامية ، لأن هذه وإن كانت فى الواقع أفخم رياشاً ، إلا أنها موحشة ومنعزلة ، حتى أنى — أنا نفسى — لا أنام فيها إطلاقاً ! » .

فشكرتها على حسن اختيارها .. وكنت أشعر حقيقة بالتعب ، بعد

رحلتى الطويلة ، فأبديت استعدادى للذهاب إلى مضجعى ، وعندئذ تناولت الشمعة فتبعتها . وبدأت أولا بالتأكد من أن باب الردهة مغلق ، ثم انتزعت مفتاحه من القفل وقادتنى إلى الطابق العلوى . وكان السلم والإفريز (الدرابزين) من خشب البلوط ، بينما كان شباك السلم عالياً ومغطى بالدانتلا .. كما كان هو والدهليز الطويل المفضى إلى أبواب مخدع النوم يبدوان كما لو كانا فى كنيسة ، لا فى بيت من البيوت . وكان الدرج والدهليز يتخللهما هواء بالغ البرودة ، مما يعطى فكرة غير مبهجة عن مدى اتساعهما وعزلتهما . وأخيراً فرحت بدخول مخدعى ، وبأنه مؤثث أثاثاً حديثاً عادياً .

وعندما حيتنى مسز فيرفاكس تحية المساء ، فى حنان وإشفاق ، أغلقت بابى ثم رحت أحملق فيما حولى .. إلى أن أنمحى بعض التأثير المروع الذى تركه فى نفسى اتساع البهو وظلام الدرج الفسيح وطول الدهليز البارد ، بفضل منظر حجرتى البهيج ، ولأنى تذكرت أننى — بعد يوم من التعب الجثمانى والقلق النفسى — قد وجدت نفسى أخيراً فى مأوى آمن هادئ ! .. وزخر قلبى بالشعور بالشكر والامتنان ، فركعت بجانب الفراش وقدمت الحمد لمن يستحق الحمد ، دون أن أنسى — قبل أن أنهض — أن ألتمس منه المعونة على المضى فى طريقى ، والقدرة على أن أكون أهلا للعطف الذى أغدق علىّ قبل أن أعمل على استحقاقه . وفى تلك الليلة خلا مضجعى من الأشواك ، كما خلت غرفتى المنعزلة من المخاوف . وسرعان ما استغرقت فى النوم ، مكدودة الجسم ، راضية النفس .. فلما صحوت ، كانت الشمس فى رائعة النهار .

وبدت لى حجرتى مكاناً مشرقاً كل الإشراق ، وقد سطعت الشمس خلال الأستار المصنوعة من الشيت الأزرق الزاهى ، فكشفت بضيائها عن جدران يغطيها الورق ، وأرض يكسوها السجاد .. وبالجملة ، عن صورة لا تشبه ما فى (لوود) من ألواح عارية ومصيص ملطخ متسخ !.. وإذ ذاك سمت روحى لهذا المنظر الجميل ، وخيل إلىّ أننى أبدأ فى الحياة عهداً أجمل .. عهداً له زهوره ومسراته بقدر ما له من أشواك ومتاعب . ودبت الحياة بعنف فى أوصالى بعد أن تيقظت إلى هذا التغيير فيما يحوطنى من مناظر ، وبعد أن بعث فى نفسى الأمل هذا الحقل الجديد الذى ألفيتنى فيه — وإن لم أستطع أن أحدد بالضبط ما كنت أرجوه من المستقبل وأتوقعه ، فيما عدا أن يكون شيئاً ساراً على أية حال .. شيئاً قد لا يقع اليوم أو فى مثل هذا اليوم من الشهر القادم ، بل فى فترة مستقبلة لا سبيل إلى تحديدها !

ونهضت من فراشى فارتديت ملابسى بعناية واهتمام — وكنت مكرهة على ارتداء ملابس بسيطة ، لأن أى رداء من أرديتى لم يكن إلا بسيطاً فى صناعته — وكنت بطبيعتى كثيرة العناية بنظافتى ، ولم يكن من عادتى ألا أكترث لمظهرى أو الأثر الذى أتركه فى الآخرين .. بل كنت على العكس دائمة الحرص على أن أبدو فى أحسن رواء ، وأن أستميل من أستطيع استمالته ، مادمت أفتقر إلى الجمال ! .. ولطالما أسفت لأننى لم أكن أكثر جمالا .. بل لطالما تمنيت أن يكون لى خدان متوردان ، وأنف مستقيم ، وفم صغير ، قانى اللون .. كما تمنيت أن تكون لى قامة فارعة ، جليلة ، ممشوقة ! وشعرت أنه من نكد طالعى أن أكون غاية

فى ضآلة الجسم ، وشحوب الوجه ، وعدم اتساق الملامح ، ودمامة الخلقة .. ولكن ترى لماذا تنتهبنى هذه الأمانى ويستبد بى هذا الندم ؟ ! يصعب أن أجيب عن ذلك ، حتى لنفسى ، وإن كان لدى لذلك سبب منطقى وسبب طبيعى كذلك : فما أن مشطت شعرى وارتديت معطفى الأسود الأنيق ، وسويت صدارى الناصع البياض ، حتى رأيت من واجبى أن أظهر أمام مسز فيرفاكس بمظهر محترم ، وأن أعمل على الأقل على ألا تنفر منى تلميذتى ! .. وأخيراً فتحت النافذة ، حتى إذا وجدت كل شىء مرتباً نظيفاً فى مكانه فوق منضدة الزينة ، غادرت حجرتى .. فاجتزت الردهة الطويلة المغطاة بالسجاجيد ، وهبطت درجاً من البلاط الزلق ، لأصل إلى البهو ، حيث توقفت لحظات لأتطلع إلى بعض الصور المعلقة على الجدران (وأذكر أن إحداها كانت تمثل رجلا متجهم الأسارير يرتدى درعاً ، وسيدة معفرة الشعر بالمساحيق ، تحيط بجيدها قلادة من لؤلؤ) .. كما أخذت أتأمل مصباحاً من (البرونز) يتدلى من السقف ، وساعة كبيرة ذات إطار من خشب البلوط تعلوه نقوش عجيبة الشكل ، اسودت من طول الزمن حتى غدت فى لون الأبنوس . وبدا كل شىء لعينى فى منتهى الفخامة والأبهة ، على ضآلة نصيبى من اعتياد العظمة والأبهة . وكان باب البهو مفتوحاً ، وقد صنع نصفه من زجاج ، فاجتزت عتبته . كان فى الخارج صباح جميل من أيام الخريف ، والشمس ترسل أشعتها الصافية على المروج الداكنة والحقول الخضراء . فتقدمت إلى المرج المعشوشب ثم رفعت عينى لأتطلع إلى واجهة القصر : كان يرتفع إلى ثلاثة طوابق غير فسيحة ، ولكنها موفورة

الاتساع ، بحيث تليق كسكن لسيد يقيم فى الأرياف ، لا كقصر لنبيل من النبلاء . وكانت شرفات القصر التى تحيط بهامته تضفى عليه منظراً جميلا ، وواجهته تنتهى ببرج للحمام تتطاير منه حمائمه المجنحة فوق المروج وهى تهدل هديلها الجميل، ثم تهبط إلى مرعى كبير يفصله عنها سور غائر فى الحقول . وفى هذا المرعى رأيت صفاً من أشجار الشوك تبدو قوية عريضة ، أشبه بأشجار البلوط — ولعل من هذا المنظر اشتق المنزل لقب (القصر) الذى أطلق عليه — وعلى مسافة بعيدة ، رأيت تلالا غير شامخة الارتفاع كالجبال التى تحيط بلوود ، وليست كالحواجز الشاهقة التى تكاد تفصلها عن العالم الملىء بالحركة والحياة ولكنها ، كانت مع ذلك تلالا هادئة منعزلة تحتضن (ثورنفيلد) وتعزلها بصورة لم أكن أتوقعها على مقربة من مكان مثل (ميلكوت) يضطرب بالحياة . وبالقرب من ثورنفيلد ، كانت تقوم كنيسة المقاطعة ، ببرجها العالى القديم المطل على ربوة تقع بين المنزل والبوابات . وفيما كنت أتامل مغتبطة هذا المنظر الساجى ، وأنعم بالهواء العليل ، كانت أذناى تصغيان بابتهاج إلى هديل الحمائم ، وعيناى تتصفحان مدخل البهو الواسع الموحش . وعندما أخذت أتساءل كيف تعيش سيدة بمفردها فى مثل هذا المكان الكبير ، ظهرت مسز فيرفاكس فى مدخل الباب تقول : « ماذا ؟ أتخرجين مبكرة هكذا ؟ أراك ممن يستيقظون فى ساعة مبكرة ! » .

فاتجهت نحوها ، لتستقبلنى بقبلة رقيقة ، ثم صافحتنى قائلة : « كيف وجدت ثورنفيلد ؟ » ، فقلت إننى أحببتها كثيراً جداً .. فقالت : « نعم ، إنها مكان جميل ، ولكنى أخشى أن تدركها الفوضى ما لم يستقر رأى

مستر (روشستر) على المجىء والإقامة هنا إقامة دائمة — أو على الأقل ما لم يكثر من التردد عليها بين حين وآخر — لأن المنازل الكبيرة والحقول الجميلة تحتاج إلى وجود صاحبها فيها » .. فصحت متعجبة : « مستر روشستر ؟ من هو ؟ » .. فأجابت فى هدوء : « صاحب ثورنفيلد ؟ أما كنت تعلمين أن اسمه روشستر ؟ ! » .

ولم أكن أعلم بالطبع ، لأننى لم أسمع عنه من قبل . ولكن السيدة العجوز كانت على ما يظهر ترى فى وجوده حقيقة يعرفها العالم أجمع ، ويجب أن يعرفها كل إنسان بغريزته ! .. واسترسلت أقول : « كنت أظنك مالكة (ثورنفيلد) ؟ » .

— (ثورنفيلد) ملكى أنا ؟ باركك الله ياطفلتى ! يالها من فكرة ! ملكى أنا ؟ أنا مجرد مدبرة للمنزل .. مديرته . والواقع أننى أمت بصلة بعيدة من القرابة إلى آل روشستر من ناحية والدتى ، أو على الأقل كان زوجى قريباً لهم . كان قسيساً مسئولا عن قرية (هاى) الصغيرة الواقعة على ذلك التل ، وكانت تلك الكنيسة القريبة من هنا ملكاً له . وكانت أم مستر روشستر الحالى من أسرة فيرفاكس وابنة عم لزوجى ، ولكنى لا أحفل قط بهذه العلاقة ولا تهمنى فى الحقيقة فى شىء ، لأننى أعتبر نفسى مجرد مدبرة منزل عادية ولا أرجو شيئاً أكثر من أن يعاملنى رب الأسرة على الدوام معاملة طيبة .

— والبنت الصغيرة ، (تلميذتى) ؟

— إنها تحت (وصاية) مستر روشستر . وقد كلفنى أن أبحث لها



عن معلمة لأنه يعتزم أن ينشئها هنا ، فى هذه المقاطعة على ما أعتقده ها هى آتية مع (دادتها) (كما تسمى مربيتها) .

وعندئذ وضح اللغز ! .. فلم تكن هذه الأرملة الرقيقة الرحيمة سيدة عظيمة ، وإنما أجيرة مثلى ! ولم ينتقص هذا من حبى لها ، بل على العكس ، اشتد بى السرور عن ذى قبل ، لأن المساواة بينها وبينى كانت حقيقية وليست مجرد تواضع من جانبها ، وهذا أفضل بكثير ، لأن موقفى منها غدا أكثر حرية وانطلاقاً . وفيما كنت أفكر فى هذا (الاكتشاف) ، قدمت بنت صغيرة تتبعها مربيتها ، وهى تجرى فوق المرج ، فرحت أتأملها دون أن يبدو عليها فى أول الأمر أنها فطنت لوجودى : كانت طفلة فى كل شيء .. ولعلها كانت فى السابعة أو الثامنة من عمرها .. نحيفة البناء ، شاحبة ، صغيرة الأسارير ، ذات شعر طويل موفور يتدلى حتى خصرها . وقالت مسز فيرفاكس تحييها : « صباح الخير يامس آديلا . تعالى وكلمى السيدة التى ستتولى تعليمك وتجعل منك يوماً ما امرأة بارعة » .

فاقتربت الصبية ثم قالت بالفرنسية وهى تشير ناحيتى : « أهذه هى المعلمة ؟ » .

فأجابتها مربيتها بالفرنسية كذلك : « نعم ، بلا شك » .

ودهشت لسماع الحوار بالفرنسية ، فسألت : « هل هما أجنبيتان؟ » .

— إن المربية أجنبية ، كما أن (آديلا) ولدت فى القارة [1] . وأغلب

(١) يطلق الإنجليز على كل ما وراء بحر المانش من بلاد أوربا ، لفظ (القارة) .

الظن أنها لم تغادرها إلا منذ ستة شهور . ولما جاءت إلى هنا لأول مرة لم تكن تعرف الإنجليزية ، أما الآن فهى تحاول التحدث بها قليلا . وأنا لا أفهم منها شيئاً لأنها تخلط كلامها كثيراً بالفرنسية ، ولكنك سوف تتبينين ما تعنيه جيداً .

ولحسن حظى كانت سيدة فرنسية قد علمتنى اللغة الفرنسية وأغرتنى بأن أتحدث على الدوام مع (مدام بييرو) بالفرنسية ماسنحت الفرصة ، هذا فضلا عن أننى حرصت فى السنوات السبع الأخيرة على أن أحفظ مقطوعة فرنسية فى كل يوم عن ظهر قلب ، وأن أهتم اهتماماً بالغاً بلهجتى وبمحاولة تقليد معلمتى فى النطق ، إلى أن حصلت على قسط كبير من إتقان هذه اللغة يعصمنى من أن أرتبك أمام الآنسة آديلا ، التى تقدمت فصافحتنى عندما علمت أننى معلمتها . وفيما كنت أتقدمها إلى حجرة الطعام لتناول الفطور وجهت إليها بعض العبارات بنفس لغتها ، فأجابتنى فى أول الأمر باقتضاب ، ولكن بعد أن جلسنا حول المائدة وجعلت فصافحتنى حوالى عشر دقائق ، بدأت فجأة تثرثر فى طلاقة ، ثم صاحت بالفرنسية : « آه . إنك تتكلمين لغتى مثل ما يفعل مستر (روشستر) ، وفى وسعى أن أتحدث معك كما أتحدث إليه . وكذلك (صوفى) سوف تبتهج لأنها لا تجد أحداً هنا يفهمها . إن مدام فيرفاكس لا تتكلم غير الإنجليزية ، ولكن صوفى — مربيتى — جاءت معى بطريق البحر على سفينة كبيرة لها مدخنة كان يندفع منها دخان .. أى دخان ؟ وقد أصابنى دوار البحر ، كما أصاب صوفى . بل وأصاب مستر (روشستر) نفسه ، فرقد على أريكة فى حجرة جميلة تسمى (الصالون) ، بينما نمت وصوفى

على سريرين صغيرين فى مكان آخر . وكدت أقع من فراشى الذى كان يشبه الرف ، وأنت يا آنسة .. ما اسمك ؟

— اير .. جين اير .

— اير ؟ أوه .. لا أستطيع النطق به . حسناً .. لقد توقفت سفينتنا فى الصباح ، وقبل أن ينتشر ضياء النهار تماماً ، فى مدينة كبيرة .. مدينة ضخمة كل دورها حالكة ينبعث منها الدخان جميعاً ، ولا تشبه إطلاقاً تلك المدينة البديعة النظيفة التى جئت منها . وقد حملنى مستر روشستر على ذراعيه فوق لوح يمتد إلى الشاطىء ثم تبعتنا صوفى فاستقللنا كلنا عربة حملتنا إلى منزل جميل كبير ، أكبر من هذا وأظرف ويدعى (فندقاً) حيث مكثنا حوالى أسبوع . وقد اعتدت أنا وصوفى أن نتمشى يومياً فى مكان فسيح أخضر ملىء بالأشجار يدعى (المتنزه) ، وفيه أطفال عديدون سواى وبركة بها طيور جميلة أطعمتها من فتات الخبز .

وهنا سألتنى مسز فيرفاكس مشدوهة : « أتفهمينها وهى تنطلق بكل هذه السرعة ؟ » . والواقع أننى فهمت حديثها جيداً لأننى اعتدت لسان (مدام بييرو) الذرب السيال . وأردفت السيدة الطيبة تقول : « بودى أن تطرحى عليها سؤالا أو اثنين عن والديها ، ترى هل تذكرهما ؟ » .. فسألتها : « مع من يا أديلا كنت تعيشين عندما كنت فى تلك المدينة الجميلة النظيفة التى حدثتنا عنها ؟ » .

— عشت منذ زمن بعيد مع (ماما) ، ولكنها مضت إلى العذراء . وقد اعتادت (ماما) أن تعلمنى الرقص والغناء وترتيل الأشعار . وكان عدد كبير من علية السادة والسيدات يزورون ماما ، فكنت أرقص

أمامهم وأجلس على ركبهم وأغنى لهم .. كم أحببت ذلك ، فهل تدعيننى أسمعك غنائى الآن ؟

وكانت قد فرغت من تناول إفطارها ، فسمحت لها بأن تعرض علىّ عينة من مواهبها ، فنزلت عن مقعدها وجاءت فجلست على ركبتى ثم عقدت يديها فى احتشام على حجرها وردت خصلات شعرها إلى الخلف بهزة من رأسها ، ثم رفعت عينيها إلى السقف وجعلت تغنى إحدى أغنيات الأوبرا عن آلام سيدة هجرها حبيبها . وبعد أن أقامت مناحة على خيانته ، استنجدت بكبريائها وطلبت إلى خادمتها أن تزينها بأسطع مجوهراتها وأغلى ثيابها ، ثم اعتزمت أن تأتى هذا الخائن فى تلك الليلة بالذات فى حفلة راقصة كى تثبت له — بمظهرها المرح — أنها لم تتأثر بهجرانه !

بدا الموضوع غريباً فى اختياره لغناء طفلة صغيرة ، ولكنى أعتقد أن الغرض من ذلك الاستعراض كان مجرد سماع عبارات الحب والغيرة تتعثر بها لثغة الطفولة دون أن تتذوق لها طعماً .. أو هكذا خيل إلىّ على الأقل !

غنت أديلا فى محافظة تامة على اللحن ، وبسذاجة تتفق وسنها . وما أن فرغت من ذلك حتى وثبت عن ركبتى قائلة : « والآن يا آنسة سأتلو عليك بعض الشعر » .. ثم تهيأت لذلك وأخذت تسمعنى بعض أشعار من « جماعة الجرذان » و قصص (لافونتين) الخرافية .. ثم أخذت تلقى المقطوعات بلهجة خطابية ، وهى تراعى باهتمام صحة النطق ، وتطنيب الألفاظ ، ومرونة الصوت ، وملاءمة الحركات .. مما لا يتفق بحال مع



ولكن كان ثمة صوان للكتب ترك مفتوحا ويحوى كل ما قد أحتاج اليه من مواد أولية ، وعدة مجلدات خفيفة فى الأدب والشعر ...

صغر سنها ، ويقطع بأنها تدربت على ذلك بعناية . فسألتها : « أهى والدتك التى علمتك هذه المقطوعات ؟ » .

— نعم . وكانت (ماما) تقول لى بالفرنسية : « ماذا لديك بعد ذلك ؟ » .. ثم تجعلنى أرفع يدى هكذا لتذكرنى برفع عقيرتى . والآن هل أرقص لك ؟

— كلا ، هذا يكفى . ولكن ، بعد أن ذهبت أمك إلى العذراء المقدسة — كما قلت — مع من كنت تعيشين ؟

— مع (مدام فردريك) وزوجها . وقد عنيت بأمرى ، ولكنها لا تمت إلىّ بأية قرابة . وأغلب الظن أنها فقيرة ، لأنها لا تملك بيتاً جميلا مثل بيت (ماما) . ولم تطل إقامتى هنالك ، فقد سألنى مستر روشستر هل أرغب فى الذهاب والعيش معه فى إنجلترا .. فقلت « نعم » ، لأننى عرفت مستر روشستر قبل أن أعرف مدام فردريك ، ولأنه كان على الدوام رحيماً بى ، يمنحنى ثياباً ولعباً جميلة .. ولكن هأنتذى ترين أنه لم يبر بوعده ، لأنه جاء بى إلى إنجلترا ثم عاد مرة أخرى ولم أعد أراه على الإطلاق !

وبعد الفطور ، ارتددت وآديلا إلى حجرة المكتبة التى يبدو أن مستر روشستر أمر بتخصيصها لدروسنا ، بينما كان معظم الكتب موصداً عليه خلف أبواب زجاجية . ولكن كان ثمة صوان للكتب ترك مفتوحاً ويحوى كل ما قد أحتاج إليه من مواد أولية ، وعدة مجلدات خفيفة فى الأدب والشعر والسير والرحلات ، وبضع روايات ... إلخ . وأظنه اعتبر ذلك كل ما قد تحتاج إليه معلمة لمطالعتها

الخاصة . والواقع أننى قنعت بهذه المكتبة كل القناعة فى ذلك الحين – سيما حين كنت أقارنها بالمنتخبات القليلة التى استطعت أن ألتقطها فى (لوود) من هنا وهناك – فقد بدت لى كافية لتوفير حصاد واف من أسباب التسلية والمعرفة . وكان فى الحجرة كذلك بيانو كبير – بادى الجدة ، ممتاز النغم – ثم حمالة للرسم ، وكرتان أرضيتان .

وألفيت تلميذتى لينة العريكة ، ذات قابلية للعلم ، ولكنها لم تكن تطيق الخضوع لنظام فى حياتها ، إذ لم تألف أى عمل منظم ، من أى نوع !.. ورأيت أن ليس من الفطنة أن أضيق عليها الخناق كثيراً فى أول الأمر . وبعد أن تحدثت إليها كثيراً وساعدتها على حفظ بعض الدروس حتى انتصف النهار ، سمحت لها بالعودة إلى مربيتها ، ثم استقر رأيى على أن أرسم لها بعض صور تخطيطية إلى أن يأتى وقت الغداء ، وفيما كنت أرقى الدرج إلى الطابق العلوى لأجىء بمحفظة أوراقى وأقلامى الرصاص ، نادتنى مسز فيرفاكس قائلة : « أظنك انتهيت الآن من ساعات الدراسة الصباحية » ، وكانت تجلس فى حجرة ذات أبواب لولبية مفتوحة على مصاريعها ، فدخلت إليها عندما خاطبتنى لأجد الحجرة واسعة فاخرة ، مفروشة بمقاعد وستائر أرجوانية وسجاد تركى ، وقد غطت جدرانها ألواح من شجر الجوز ، وبها نافذة واسعة مصنفرة الزجاج ، وسقف شاهق بديع النقوش . وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض (زهريات) من البلور الأرجوانى البديع قد صفت على صوان الأوانى – (البوفيه) – فلم أتمالك أن صحت وأنا أتلفت فيما حولى : « يا لها من حجرة جميلة ! » – ذلك أنى

لم أر من قبل حجرة لها نصف هذه المهابة ! – فقالت مسز فيرفاكس : نعم ، هذه حجرة الطعام ، وقد فتحت نافذتها من فورى ليدخل بعض الهواء وضياء الشمس ، لأن الرطوبة تتلف كل ما بالحجرة التى قل أن يأوى إليها إنسان . وهناك ترين حجرة الاستقبال ، التى تبدو كالقبو ! » .

ثم أشارت إلى قوس واسع يشبه النافذة ، ومغطى مثلها بستارة مطوية من وسطها على هيئة أنشوطة ، فهبطت إلى ذلك القبو درجتين عريضتين ، ونظرت خلاله فلمحت مكاناً بدا لعينى الغريرتين شديد التألق ، ولم يكن سوى حجرة للاستقبال نسقت على صورة جاءت آية فى الجمال . وبداخلها كان مخدع تكسوه الأبسطة البيضاء ، وتشاهد فيه أكاليل من الزهور المتألقة ، ويغطى كلا الحجرة والمخدع الداخلى سقف من أشجار الكرم الناصعة البياض .. بينما كانت أدوات الزينة التى تعلو الموقد من زجاج بوهيمى متلألىء ، فى حمرة الياقوت ! وقلت : « بأى نظام تحافظين على هاتين الحجرتين يا مسز فيرفاكس ، فلا غبار ، ولا ملاءات تغطى الأثاث ؟.. لولا هذا الهواء البارد لحسب الإنسان أنهما لا تستعملان يومياً ! » .

– كيف يا مس إير .. إن زيارات مستر روشستر نادرة ، ولكنها تجىء فجائية وعلى غير انتظار !.. ولما كنت أعلم أنه يمتعض إذا شاهد شيئاً غير منظم أو يحتاج إلى ترتيب عاجل ، فقد آثرت أن أجعل الحجرتين مرتبتين على الدوام ، استعداداً لمقدمه .

– هل مستر روشستر رجل مدقق يصعب إرضاؤه ؟

— ليس إلى هذا الحد ، ولكن له ذوق السيد النبيل ، وعاداته ، ولذلك يحب أن يرى كل شيء متسقاً مع الذوق وهذه العادات .

— هل تحبينه ؟ وهل هو محبوب بوجه عام ؟

— أوه ، نعم . إن أفراد الأسرة يلقون الاحترام هنا دائماً . ومعظم الأراضي في هذه الناحية — على مدى ما يصل إليه بصرك — كانت فيما مضى ملكاً لهم !

— دعينا من الأراضي ، فهي خارجة عن موضوعنا ، وإنما أنا أسألك : هل تحبينه ؟ وهل هو محبوب لشخصه ؟

— ليس لدى ما يحملني على أن أشعر نحوه شعوراً آخر ، وأعتقد أن مستأجري أراضيه يعتبرونه مالكاً عادلا متحرراً ، وإن لم تطل إقامته بينهم .

— أليست له تصرفات شاذة ؟ وما هي بالاختصار أخلاقه ؟

— أوه ! إن أخلاقه لا غبار عليها فيما أعتقد ، ولكنه قد يكون أصبح على شيء من الشذوذ بعد أن قام برحلات عديدة وشاهد كثيراً من أرجاء العالم . وفي وسعي أن أقرر أنه رجل أريب ، وإن لم يطل حديثي معه يوماً من الأيام .

— وما هو موضع شذوذه ؟

— لا أدري ، ولا يسهل وصف ذلك .. وإن كنت تحسينه عندما تتحدثين إليه ، فلا تدرين جيداً أهو يمزح أو يجد ، أهو مسرور أو على النقيض ! وقصارى القول أنه لا يتسنى لك أن تفهميه جيداً ..

أو على الأقل أني أنا نفسي لا أفهمه ، ولكن ماذا يهمني من ذلك ما دام سيداً على جانب كبير من الطيبة ؟!

كان هذا كل ما ظفرت به من مسز فيرفاكس عن مخدومها ومخدومي ، فإن هناك أناساً ليست في رأسهم أية فكرة عن رسم صورة تخطيطية للأخلاق ، أو عن ملاحظة ووصف النقاط البارزة ، سواء في الأشخاص أو الأشياء . ويبدو أن تلك السيدة الطيبة كانت من هذا الصنف ، لأن تحرياتي حيرتها ، وإن كانت لم تخرجها عن سجيتها .. إذ كان مستر روشستر في عينيها مستر روشستر فحسب : سيداً ومالك أراض ، ولا شيء أكثر من ذلك !.. فلم تشأ أن تتحرى أو تبحث إلى أبعد من ذلك ، ولذلك كانت دهشتها واضحة عندما رغبت إليها في أن أظفر بتعريف أكثر تحديداً لشخصيته !

وعندما غادرنا حجرة الطعام ، اقترحت عليَّ أن تفرجني على بقية المنزل ، فتبعتها إلى الغرف العليا والسفلى وقد تولاني العجب أينما ذهبت ، من فرط ما كان كل شيء جد مرتب وجميل : كانت الحجرات الأمامية واسعة أكثر من المألوف ، أما حجرات الطابق الثالث فإنها على الرغم من ظلمتها وانخفاض سقوفها كانت ممتعة بما يشيع فيها من جو أثرى ، ولطالما نقل أثاث الطابق الأرضي إلى هذه الحجرات كلما تغير طرازه وتبدلت (الموضة) .. ومن ثم رأيت على الضوء الخافت المتسرب من نوافذها الضيقة أسرة ترجع في قدمها إلى مائة سنة .. وصناديق من خشب البلوط والجوز رسمت نقوشها العجيبة على صورة أغصان النخيل ورؤوس (الشاروبيم) ، فبدت أشبه بأنماط

سفينة عبرانية !.. وصفوفاً من الكراسى الوقورة ، بظهرها العالى الضيق .. ومقاعد خفيضة ، أعرق فى القدم ، وقد علتها آثار تطريز أوشك أن يمحى ، لأنه من صنع أصابع ووريث الثرى منذ جيلين !.. كل هذه المخلفات الأثرية خلعت على الطابق الثالث بقصر (ثورنفيلد) منظر بيت يرجع إلى الماضى السحيق ، أشبه (بمحراب) للذكريات ! ، ولقد أحببت فى هذه المخلفات سكونها ، وقتامتها ، وغرابتها ، ولكنى لم أطمع بأية حال فى أن أستريح ليلة واحدة على سرير من هذه الأسرة الواسعة الثقيلة التى أغلقت على بعضها أبواب من خشب البلوط ، وأسدلت على بعضها الآخر ستائر إنجليزية قديمة طرزت عليها زهور عجيبة ، وطيور أعجب ، ومخلوقات آدمية أعجب وأعجب ! والواقع أنها كانت كلها تبدو عجيبة فى ضياء القمر الشاحب .

وسألت محدثتى : « هل ينام الخدم فى هذه الحجرات ؟ » .

— كلا .. إنهم يشغلون صفاً من الحجرات الصغيرة الواقعة فى ظهر القصر ، ولا ينام هنا أحد قط .. إذ يقال إنه لو كان فى قصر (ثورنفيلد) شبح ، لاختار مسكنه فى هذا الطابق !

— هذا ما أعتقده . أليس لديكم أشباح هنا ؟

فأجابتنى المرأة باسمة : « لم أسمع بواحد منها ! »

— ولا على سبيل التمشى مع التقاليد ، أو مجاراة الأساطير وقصص الأشباح ؟

— لا أظن ، ومع ذلك يقال إن أسرة روشستر كانت فى الماضى

يغلب على أفرادها العنف على الهدوء ، ولعل ذلك سر هدوئهم الآن فى قبورهم !

فغمغمت قائلة : « نعم ، إنهم لا شك يستغرقون فى نوم هادئ ، بعد حياة من النشاط المحموم .

وإذ وجدتها تبتعد ، سألتها : « إلى أين تذهبين الآن يا مسز فيرفاكس ؟ »

— إلى السطح العلوى . ألا تأتين وترين المنظر من هناك ؟

فتبعتها فى هدوء ، ورحنا نرقى درجاً ضيقاً جداً إلى الطابق الأخير ، ومنه صعدنا سلماً من الخشب ثم نفذنا من باب بالسقف إلى السطح .. وإذ ذاك أصبحنا فى مستوى مستعمرة الغربان ، وأمكننى أن أرى أعشاشها .. ثم اتكأت على الشرفات ، أتطلع إلى أبعد ما تحتى ، فرأيت الحقول أشبه بخريطة ، وشاهدت المرج المخملى المشرق يحيط بأسفل القصر . وبدا لى الحقل فى اتساع أحد المتنزهات ، وقد رصعته أخشابه القديمة ، كما بدت الغابة الداكنة الذابلة وقد تخللها طريق كث النباتات أمعن فى الخضرة — بطحلبه — من الأشجار بأوراقها الجافة . وسبح فى شمس الشتاء كل من الكنيسة والطريق والتلال الساكنة . أما الأفق فكانت تتاخمه سماء مماثلة ، لازوردية مرصعة ببياض لؤلؤى . وخلا المنظر من سمات غير عادية ، ولكن كل ما فيه كان شائقاً . ولما استدرت وعدت من فجوة السقف ، كدت لا أتبين طريقى فوق السلم الخشبى ، إذ بدا لى الطابق النهائى فى سواد القبو بالنسبة لقوس السماء الزرقاء الذى كنت أتطلع إليه وإلى منظر المروج والمراعى والتلال

الخضراء التى تضيئها الشمس ويتوسطها القصر ، والتى كنت منذ قليل أرنو إليها منشرحة الصدر .

وتريثت مسز فيرفاكس خلفى قليلا ، لتغلق فجوة السقف ، فأمكننى أن أتحسس طريقى حتى اهتديت إلى المخرج من الطابق النهائى ، ثم تقدمت لأهبط سلم السطح الضيق . وتمهلت فى ذلك الممشى الطويل الذى يفصل بين الحجرات الأمامية والحجرات الخلفية بالطابق الثالث إذ كان ضيقاً خفيضاً ، معتماً ، وليس به سوى نافذة واحدة صغيرة فى الطرف البعيد .. بحيث كان يشبه ، بصفى الأبواب الصغيرة المغلقة التى تحف به ، دهليزاً فى قلعة صاحب اللحية الزرقاء !

وبينا كنت أخطو فى رفق ، صفع أذنى آخر صوت كنت أتوقع أن أسمعه فى مثل هذه المنطقة الساكنة : ضحكة عجيبة واضحة ، متكلفة كئيبة !.. فتوقفت عن السير ، وعندئذ انقطع الصوت — للحظة واحدة فقط — ثم عاد مرة أخرى ، أقوى وأعلى مما كان فى المرة الأولى !.. ومر الصدى فى جلجلة صاخبة ، كأنما هو يتردد فى كل حجرة على انفراد — وإن لم يصدر إلا من حجرة واحدة — وكان بوسعى أن أشير إلى الباب الذى انبعث من خلفه !.. وناديت بصوت عال : « مسز فيرفاكس ! » ، وذلك بمجرد أن سمعتها تهبط الدرج الكبير .. ثم قلت أسألها : « هل سمعت هذه الضحكة العالية ؟ ضحكة من هى ؟ »

— إنها على الأرجح ضحكة إحدى الخادمات .. لعلها (جريس بول) .

— هل سمعتها ؟

— نعم ، بوضوح وجلاء — وكثيراً ما أسمعها — فهى تخيط فى إحدى هذه الغرف ، وأحياناً تكون معها (لياه) ، فإذا اجتمعتا معاً ارتفعت جلبتهما .

وتكررت الضحكة ، بنغمها الخافت المتقطع ، وأعقبتها همهمة عجيبة .. فصاحت مسز فيرفاكس : « جريس ! » :

والواقع أننى لم أكن أتوقع أن تجيبها (جريس) ، لأن الضحكة كانت (رهيبة) ، غير طبيعية ، تخالف كل ما سمعته فى حياتى من ضحكات ! ولكننا كنا إذ ذاك فى رائعة النهار ، ولم يصحب القهقهة العجيبة ظهور شبح من الأشباح .. ومع ذلك فلولا أن الظرف لم يكن يسمح بالهلع لاستبد بى رعب عجيب ، ولكن الحادث ما لبث أن أرانى أننى كنت حمقاء عندما تملكنى الإحساس بمجرد الدهش والعجب فقد فتح الباب القريب منى وخرجت منه خادمة : امرأة بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، ربعة القامة ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير .. أقرب إلى أن تكون شبحاً مخيفاً لا يمكن أن ترى العين أو تتخيل مثيلا له !

وقالت مسز فيرفاكس : « يا لها من ضجة شديدة جداً يا جريس ! تذكرى الأوامر والتعليمات » .

فانحنت جريس فى احترام وهدوء ، ثم دخلت .. بينما مضت الأرملة تقول : « هذه امرأة جئنا بها لتخيط وتساعد (لياه) فى واجباتها المنزلية ، ولا اعتراض عليها إلا فى بعض الأمور ، بيد أنها

تقوم بعملها جيداً :: ولهذه المناسبة : كيف كانت حالك مع تلميذتك الجديدة هذا الصباح ؟ »

وبذلك تحولت دفة الحديث إلى (آديلا) ، واستمرت كذلك حتى بلغنا المنطقة المضيئة بالطابق الأرضى ، فأقبلت آديلا تجرى لتقابلنا فى الردهة ، وهى تصيح بالفرنسية : « لقد أعد الطعام يا سيداتى .. » :: ثم أردفت تقول : « وأنا جائعة جداً ! » .

وقد وجدنا الغداء معداً فى انتظارنا ، فى حجرة مسز فيرفاكس ::

* * *

الفصل الثانى عشر *

● لم يسفر طول مقامى وتعرفى على قصر (ثورنفيلد) وأهله ، عما يناقض البوادر التى أوحت إلىّ — فى البداية الهادئة لعهدى هناك — بأننى مقدمة على عمل مريح .. فقد وجدت فى مسز فيرفاكس ما كان مظهرها ينبئ عنه من أنها امرأة وادعة طيبة القلب ، على جانب كاف من التعليم ، وقسط لا بأس به من الذكاء :. كما وجدت فى تلميذتى طفلة نشيطة مرحة ، دللت وعوملت فى كثير من التساهل واللين ، ومن ثم كانت فى بعض الأحيان عنيدة صلبة الرأى .. ولكن لما كانت شئونها قد وكلت كلها إلىّ ، دون أن يعرقل الخطط التى رسمتها لإصلاحها أى تدخل غير حكيم ، من أية جهة ، فإنها سرعان ما نسيت نزواتها التافهة وأصبحت طيعة قابلة للتعليم . ولم تكن على جانب من المواهب والميزات الخلقية ، ونضج الإحساس والذوق ، يمكن أن يرفعها — ولو بقدر ضئيل — فوق مستوى الطفولة العادية ، ولكنها كذلك لم تكن ذات عيب أو رذيلة تهبط بها عن هذا المستوى : وقد تقدمت تقدماً محسوساً فى دراستها وأظهرت نحوى حباً متوثباً ، وإن كان من المحتمل أنه لم يكن عميقاً إلى حد بعيد . واستطاعت بسذاجتها وثرثرتها المرحة ومحاولاتها إرضائى أن تجعلنى أنا الأخرى أتعلق بها إلى الحد الذى جعل كلا منا راضية بمعاشرة الأخرى .

وهنا أقول — بين قوسين — أن هذا الأسلوب فى وصف علاقتنا قد يبدو فاتراً إذا ما صدر عن أشخاص يتطرفون فى آرائهم عن طبيعة

الأطفال الملائكية ، ويرون واجباً على أولئك الذين يوكلون بتعليم الأطفال ، أن يكنوا لهم حباً يصل إلى مرتبة العبادة .. ولكنى لا أكتب لأتملق أنانية الآباء ، أو لأردد عبارات الرياء أو أظاهر الدجل ، وإنما أقول الصدق وحده عندما أقرر أن ضميرى قد شغل بالاهتمام بسعادة (آديل) وتقدمها ، وإن قلبى كان يحبها لذاتها الصغيرة ، حباً هادئاً .. تماماً كما كنت أكن لمسز فيرفاكس شعوراً بالعرفان لكرمها ، واغتباطاً بعشرتها يتفق مع ما كانت تبديه لى من احترام رزين ، ويتلاءم مع حظها المعتدل من الذكاء والشخصية .

وليلمنى من يشاء ، إذ أضيف إلى هذا أننى كنت إذا ما خرجت بين آن وآخر — وحيدة — للنزهة فى الحقول ، أو لأسير إلى أبواب السياج الخارجى فأطل على الطريق العامة .. أو إذا ما صعدت سلالم طبقات المبنى الثلاث — مخلفة آديل تلعب مع مربيتها ، ومسز فيرفاكس فى (البدروم) تصنع الفالوذج — حتى إذا بلغت السطح سرحت البصر عبر الحقول والتلال ، وعلى طول الأفق المعتم .. ليلمنى من يشاء إذا قلت إننى كنت — إذ ذاك — أتوق إلى قوة إبصار تتجاوز هذه الحدود ، وتقوى على أن تصل إلى العالم المصطخب ، والمدن والأقاليم التى تطفر بالحياة ، والتى طالما سمعت عنها ، دون أن تقع عليها عيناى ! .. ولكم كنت أصبو إلى مزيد من التجارب العملية — فوق ما كان لدى — وإلى مزيد من مخالطة بنى جنسى ، والتعرف على أخلاقهم المتباينة ، بقدر يفوق ما كان يتاح لى فى ذلك المكان ! .. لقد كنت أقدر نواحى الخير فى نفس مسز فيرفاكس ، ونواحى الخير فى نفس آديل ، ولكنى كنت

موقنة بوجود ألوان أخرى زاهية من الخير والفضائل .. وكنت أرغب دائماً فى مشاهدة ما أومن بوجوده !

فمن يلومنى على ذلك ؟ .. كثيرون ، ولا ريب .. لسوف أتهم بعدم القناعة ، ولكن ما حيلتى وقد فطرت على القلق .. وكان هذا القلق يحتدم أحياناً فيورثنى الألم . ولا أجد خلاصاً منه إلا فى أن أتمشى جيئة وذهاباً فى ردهة الطابق الثالث ، حيث تداخلنى الطمأنينة والسلام وسط سكون المكان وعزلته ، وحيث أترك عينى تمتلئان بما كان ينبعث أمامهما من رؤى مشرقة — ما كان أكثر عددها وأشد تألقها ! — وحيث أدع قلبى ينساب مع الوجيب النشوان الذى كان يفعمه بالحياة ، فى الوقت الذى يضنيه فيه ! .. وكان الأفضل من ذلك كله أن أفتح أذنى سريرتى ، لأصيخ السمع لقصة لا تنتهى قط .. قصة كان ينسجها خيالى ويرويها باستمرار وبلا انقطاع ، ويبعث فيها الحركة المثيرة بما كان يضمنها من أحداث ، ومن حياة ، ومن نار ، ومن إحساس .. ومن كل شىء أشتهيه ولا أجده فى حياتى الواقعية :

ومن العبث القول بأن على البشر أن يقنعوا بالطمأنينة والسكينة . إذ لابد لهم من العمل والحركة ، وعليهم أن يبتدعوهما ويخلقوهما ، إذا عز عليهم أن يجدوهما ! لقد كتب على الملايين أن يعيشوا فى ركود أشد جموداً مما كنت أعيش فيه ، وكم من ملايين يثورون فى صمت على حظهم من الحياة .. ولا يدرى امرؤ كم من ثورة — غير الثورات السياسية — تختمر فى نفوس البشر على الأرض ! .. والمفروض فى النساء أن يكن فى الغالب جد هادئات وادعات ، ولكنهن يشعرن تماماً كما يشعر الرجال ،

ويحتجن إلى تدريب لمواهبهن ، وإلى ميدان لجهودهن ، بقدر ما يحتاج إخوانهم الرجال .. وهن كذلك يعانين من الكبت الشديد ، والركود التام ، تماماً كما يعانى الرجال ، ولذلك فمن ضيق العقل لدى أبناء جلدتهن المحظوظين — أى الرجال — أن يقولوا بأن عليهن أن يقبعن فى دورهن لصنع الطعـام ، ورتق الجوارب ، والعزف على البيانو ، وتطريز الحقائب .. وأن ينحوا عليهن باللائمة ، ويضحكوا منهن إذا حاولن البحث عن عمل آخر أو الإلمام بجديد غير ما قضى به العرف لجنسهن !

وكثيراً ما كنت — فى خلواتى هذه — أسمع ضحكة (جريس بول) .. نفس الضحكة المجلجلة .. ونفس الـ (ها .. ها !) الخافتة ، البطيئة ، التى جفلت لها عندما تناهت إلى أذنى فى أول مرة . كذلك كنت أسمع غمغماتها الشاذة التى تفوق ضحكتها غرابة ! .. وكم من أيام أخلدت فيها صاحبة الضحكة إلى الصمت ، ولكنها كانت لاتكف — فى أيام غيرها — عن الضحك والدمدمة .. وكنت أراها فى بعض الأحيـان وهى تغادر غرفتها ، وفى يدها حوض أو صحن أو صينية ، فتهبط إلى المطبخ .. لتعود من فورها وهى تحمل فى العادة وعاء مليئاً بالطعام .. آه ، ألا اغفر لى أيها القارئ العاطفى المزاج ، فلست أروى سوى الحقيقة المجردة . ولقد كان ظهور (جريس بول) يخفف دائماً من وطأة الفضول الذى تثيره تصرفاتها الصوتية الشاذة ، إذ كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة ، وليس فيها — فى الواقع — ما يسترعى الانتباه . وكثيراً ما حاولت أن أستدرجها إلى محادثتى ، فكانت تبدو زاهدة فى الكلام ، وتجيب بكلمات مقتضبة تقطع على المرء أى أمل فى هذا الصدد .. أما بقية من كان بالدار

من خدم إلى جانب جريس — أى الحوذى — (جون) وزوجته ، و (ليا) التى تقوم بتنظيف الدار ، وصوفى المربية الفرنسية — فكانوا قوماً طيبين ليس فيهم ما يسترعى الاهتمام . وقد اعتدت أن أتحدث إلى (صوفى) بالفرنسية ، فألقى عليها أحياناً بعض الأسئلة عن وطنها الريفى ، ولكنها لم تكن من الصنف الذى يميل إلى الوصف والرواية ، ولذلك كانت أجوبتها تافهة مضطربة قليلة ، تصد ولا تشجع .

* * *

● وانقضى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر ، وفى عصر أحد أيام يناير ، طلبت منى مسز فيرفاكس أن أمنح (آديل) عطلة ، لأنها كانت تشكو من البرد . وعندما عقبت (آديل) على ذلك الرجاء ، بتحمس ذكرنى بما كان للأجازات العارضة من قيمة لدى فى طفولتى ، وافقت على ذلك ، مؤثرة إظهار المرونة فى مثل هذه الأمور . وكان اليوم جميلا هادئاً ، برغم اشتداد البرد ، وكنت قد سئمت الجلوس فى سكون بحجرة المكتبة طوال ذلك الصباح . وإذ كانت مسز فيرفاكس قد فرغت لتوّها من كتابة خطاب ، ثم تركته فى ارتقاب من يلقيه فى صندوق البريد ، فقد ارتديت قبعتى ومعطفى ، وتطوعت بحمل ذلك الخطاب إلى قرية (هاى) .. وكانت مسافة الميلين — بيننا وبينها — مجالا لنزهة بديعة على الأقدام ، فى أصيل اليوم الشتوى . ومن ثم اطمأننت إلى أن (آديل) جلست مرتاحة على مقعدها الصغير بجانب الموقد فى حجرة مسز فيرفاكس ، وأعطيتها خير دماها الشمعية — التى كنت أحتفظ بها دائماً فى ورق مفضض بداخل أحد الأدراج — لتلعب بها ، كما أعطيتها كتاب

قصص كى تنوع من أسباب تسليتها . وبعد أن أجبت بقبلة عن قولها :
« عودى بسرعة ياعزيزتى الطيبة .. يا آنسة جينيت العزيزة » ، غادرت
الدار .. وكانت الأرض يابسة ، والهواء ساكناً ، والطريق موحشاً ،
فأسرعت الخطو حتى دفئت ، ثم أخذت أسير الهوينى كى أستمتع
بنزهتى ، وأحلل أنواع الغبطة التى خالجت نفسى فى ذلك الزمان وذلك
المكان .. وكانت الساعة الثالثة ، وقد أخذ جرس الكنيسة يدق فى اللحظة
التى مررت فيها تحته .. وكان سحر تلك الساعة يكمن فى غسقها الوافد ،
وفى شمسها الباهتة الضياء ، والتى كانت تنحدر وئيداً . وما لبثت أن
أصبحت على بعد ميل من (ثورنفيلد) ، فى طريق شهيرة فى الصيف
بورودها البرية ، وفى الشتاء بثمار الجوز والعليق .. على أن خير مفاتنها
الشتوية هو ما يغشاها من عزلة تامة ، ومن سكون يشمل أشجارها المجردة
من الأوراق ، فإذا هبت النسائم فلا صوت ولا همهمة ولا حفيف ..
وعلى الجانبين ، إلى مسافة بعيدة ، تمتد حقول خلت من ماشية ترعى ..
حتى الطيور التى ربما هبطت مصادفة على السياج ، كانت تبدو أشبه
بأوراق حمراء فاتها أن تتساقط على الأرض !

وكانت هذه الطريق الضيقة تميل صاعدة سفح التل حتى تصل إلى
قرية (هاى) . فلما بلغت منتصفها ، جلست على قارعة درب يفضى
إلى الحقل . ثم لففت معطفى حولى ، ودسست يدى فى فرائه فلم أشعر
ببرد ، برغم الجليد الشديد الذى كانت تشهد به صفحة من الثلج تغطى
الجسر . كما تغطى غديراً صغيراً متجمداً كانت مياهه تفيض بسرعة
منذ أيام . وفى جلستى تلك ، تسنى لى أن أطل على (ثورنفيلد) ، وأن

أشرف على غاباتها .. حتى إذا غاصت الشمس بين الأشجار ، يممت
ناحية الشرق ، حيث تربع القمر فوق قمة تل يعلو مجلسى .. وكان يبدو
باهتاً ، ولكنه أخذ يزداد تألقاً فى كل لحظة .. وكانت قرية (هاى)
ما تزال على مسافة ميل ، ولكنى استطعت — وسط السكون الساجى —
أن أسمع بوضوح دبيب الحياة الخافت فى حناياها ، كما تناهى إلى أذنى
كذلك تدفق التيارات . وإن كنت لم أدر تماماً فى أى وديان أو وهاد
كانت تندفع .. على أنه كانت ثمة تلال عديدة وراء (هاى) ، ولابد
أن ثمة جداول كانت تتخللها !..

وفجأة بددت ذلك السكون وتلك الهمسات الرقيقة ضجة عنيفة
انبعثت من بعيد جداً ، ولكنها كانت غاية فى الوضوح : وقع حوافر
قوية ، وقعقعة معدنية حجبت أفكارى . كما تحجب صور الصخور
الضخمة الصماء ، أو أشجار البلوط الكبيرة الوارفة — إذا رسمت فى
مقدمة لوحة بخطوط ثقيلة سوداء — ما يكون وراءها من تلال لازوردية ،
ومن أفق ساطع بالضياء ، ومن سحب متمازجة ، تختلط عندها درجات
الألوان .. وكانت الضوضاء عند الجسر ، إذ كان ثمة جواد يقترب ،
ولكن الطريق الكثيرة المنعرجات حجبته عن عينى .. غير أنه كان يدنو ،
فهممت بأن أغادر مكانى ، ولكنى وجدت الطريق ضيقة فآثرت أن
أثبت فى موضعى حتى يمر بى . وكنت فى تلك الأيام شابة تقبع فى ذاكرتها
تلك القصص التى سمعتها فى طفولتها ... فلما نضجت . صارت هذه
القصص إذا ما تحركت من رقادها ، أضفى عليها الشباب اليافع قوة وحيوية
فوق ما كانت الطفولة تقوى على إسباغه عليها .. ومن ثم فبينما كان

الجواد يقترب ، وفيما كنت أترقب ظهوره خلال الغسق . تذكرت بعض قصص (بيسى) عن روح تدعى (جيتراش) كانت تظهر فى شمال إنجلترا على صورة جواد وبغل وكلب ضخم ، لترتاد الطرق المنعزلة الموحشة ، وتهبط أحياناً أمام المسافرين الذين فاجأهم الليل فى الطريق ، مثل ما كان هذا الجواد مقبلا على فى تلك الآونة .

وازداد الجواد اقتراباً ، ولكنه لم يكن قد بلغ بعد نطاق أبصارى .. ثم سمعت بجانب وقع السنابك حفيفاً بين الحشائش .. وإذا بين جذوع أشجار البندق القريبة كلب ضخم ، كان اختلاط اللونين الأبيض والأسود فى جسمه يبرز شكله وسط الأشجار . كان يشبه تماماً إحدى الصور التى تظهر فيها روح (جيتراش) ، كما كانت تصفها بيسى .. فهو مخلوق يشبه الأسد ، طويل الشعر ، ضخم الرأس .. على أنه مر بى فى هدوء ، فلم يتريث ليتطلع إلىّ بعينين مخيفتين تندلع منهما النار ، كما توقعت !.. ثم تبعه الحصان .. جواد مرتفع ، يعلو ظهره راكب . وبدد الرجل — ذلك المخلوق الآدمى — سحر الخرافة فى الحال ، لأنه لم يرد فى الأسطورة أن شيئاً علا ظهر (جيتراش) إطلاقاً ، بل كان يهيم وحده . ومع أن العفاريت ربما ركبت رمم الوحوش الضارية — كما كان يخيل لى — إلا أنها يندر أن تشتهى التستر فى شكل آدمى عادى . وإذن فليس هذا روح (جيتراش) ، وإنما هو مجرد مسافر يختصر طريقه إلى (ميلكوت) بالانطلاق فى هذه الناحية .. على أنه لم يكد يمر بى ويمضى فى سيره بضع خطوات ، حتى اضطررت للالتفات ، على صوت انزلاق ، وصيحة تردد : « يالله ! .. ما العمل الآن » . ثم استرعى انتباهى صوت كبوة ،

فقد سقط الجواد براكبه ، متزلقين على صفحة الجليد الذى كان يكسو الجسر . وعاد الكلب يتواثب ، فلما رأى سيده فى مأزق ، وسمع الجواد يئن ويتوجع ، راح ينبح حتى رددت تلال المساء نباحه الذى كان من الضخامة بقدر حجمه . ثم راح يتشمم الجسمين الساجيين ، وهرع نحوى . فقد كان ذلك كل ما يستطيعه — إذ لم يجد بالقرب منه من ينشد مساعدته ومعونته سواى — فأطعته ، وسرت إلى الرجل الذى كان يحاول إذ ذاك أن يتخلص من جواده ، باذلا فى ذلك جهوداً جبارة نمت عن أنه لم يصب بكثير أذى . ومع ذلك فقد سألته : « هل أصابك أذى ياسيدى ؟ » .. ولعله كان لحظتئذ يسب ويلعن ، ولكنى لست واثقة .. كان — على أية حال — يتفوه بعبارات منعته من الرد علىّ فى الحال .. فعدت أسأله : « هل أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ؟ » .. فأجاب وهو ينهض من عثرته أولا على ركبتيه ثم على قدميه : « بل قفى جانباً ! » .. ففعلت . وتلت ذلك من جانب الجواد عملية من اللهث ، وركل الأرض ، يصحبها نباح ما يجرى .. وانتهى الحادث بخير ، فقد هدأ الجواد ونهض . كما سكت الكلب ، عندما نهره سيده قائلا : « صه يابايلوت » . ثم انحنى الرجل يتحسس قدمه وساقه ليطمئن إلى سلامتهما . ولاح أن شيئاً آلمه ، لأنه توقف عند مكانى الذى كنت قد زايلته ، ثم جلس فيه . وكنت راغبة فى أن أكون ذات نفع ، ولو من قبيل المجاملة على الأقل ، فاقتربت منه مرة أخرى وقلت : « إذا كنت قد أصبت بأذى وفى حاجة إلى عون يا سيدى ، ففى وسعى أن أجيئك بمن تشاء ، سواء من (ثورنفيلد) أو من (هاى) » .

— شكراً .. سأتغلب على الألم . إن عظامى سليمة ، ولكنى أصبت بالتواء فى قدمى .

ثم وقف مرة أخرى ، وجرب قدمه ، ولكن النتيجة انتزعت منه آهة ، برغمه ! .. وكان بعض ضياء النهار ما يزال يتسكع ، والقمر يشرق بضوء شاحب ، فأمكننى أن أرى الرجل بوضوح . كان يرتدى فوق جسمه معطفاً للركوب ذا ياقة من الفراء ومشابك من النحاس ، أما بقية التفاصيل فلم تكن ظاهرة بجلاء ، ولكنى تبينت طول قامته وعرض منكبيه ووجهه الأسمر ، بقسماته الجادة وحاجبيه الغزيرين . وكانت عيناه وحاجباه المتشابكان تنم إذ ذاك عن حنق وتجهم .. وكان قد جاوز سن الصبا ، ولكنه لم يبلغ أوسط العمر ، فلم يساورنى خوف منه ، وإنما غشينى بعض الخفر والحياء . ولو كان سيداً شاباً جميل المحيا بادى الجرأة، لما جسرت على الوقوف وسؤاله برغم إرادته ، وعرض خدماتى عليه دون أن يطلبها ! وإن كنت لم أر شاباً جميلا ، تقريباً .. ولا تحدثت إلى شاب جميل فى حياتى إطلاقاً .. وكنت أشعر بتوقير واحترام بالغ للجمال والرشاقة ، والشهامة والفتنة — دون ما تجربة عملية — ولكن لو أننى وجدت هذه الخصال مجسمة فى رجل ، لأدركت بغريزتى أن ليس لهذه الأشياء — ولايمكن أن يكون لها — تجاوب مع شىء فى شخصى ، ولأعرضت عنها وهربت منها كما أهرب من النار والبرق أو أى شىء آخر براق ولكنه منفر كريه ! .. وحتى هذا الرجل الغريب ، لو أنه ابتسم فى وجهى ومازحنى عندما وجهت إليه الحديث ، أو لو أنه أبى تطوعى لخدمته فى مرح مشفوع بالشكر ، لواصلت سيرى دون أن أجد

بى رغبة فى سؤاله مرة أخرى . ولكن عبوسه وخشونته طمأنانى . وعندما لوح لى بيده أن أمضى ، لزمت مكانى وقلت : « لايمكن أن أفكر فى تركك يا سيدى فى مثل هذه الساعة المتأخرة ، وفى مثل هذه الطريق المنعزلة ، حتى أراك قادراً على امتطاء جوادك » .

فلما سمع ذلك تأملنى — ولم يكن قد وجه نظراته ناحيتى من قبل — ثم قال : « أظن الأجدر بك أن تكونى فى منزلك ، إذا كان لك منزل فى هذا الجوار ! .. من أين جئت ؟ » .

— من مكان قريب جداً . ولا أخشى الخروج فى ساعة متأخرة مادام القمر مشرقاً . وإذا شئت ، ذهبت من أجلك إلى (هاى) على عجل . فالواقع أننى ذاهبة إلى هناك لألقى خطاباً فى صندوق البريد .

— أتقيمين قريباً جداً .. أتعنين فى هذا المنزل الذى تعلوه الشرفات ؟

وأشار إلى (ثورنفيلد هول) ، الذى كان القمر يلقى عليه ضياء خافتاً أظهره للعين فى وضوح شاحب بين الأشجار ، ولكنه بدا — إذا قورن بسماء الغرب المعتمة — وضاء جلياً .. وأجبت : « نعم ياسيدى » .

— منزل من هذا ؟

— منزل مستر روشستر .

— أتعرفين مستر روشستر ؟

— كلا .. لم أره من قبل .

— إذن فهو لا يقيم هناك ؟

— كلا ..

— هل تستطيعين أن تخبرينى أين هو ؟

— لا أستطيع .

— أنت بالطبع لست خادمة فى القصر .. أنت ..

ثم توقف وتأمل زيى ، الذى كان كالعادة غاية فى البساطة : معطفاً أسود من صوف المارينو ، وقبعة صغيرة من جلد السمور — لا يليق أحدهما بوصيفة — وتبدت عليه الحيرة فى أمرى ، فقلت أعاونه : « أنا المعلمة ؟ » .

— آه ، المعلمة .. يالله ، كيف نسيت !؟.. المعلمة !

وعاد يتفحص ثوبى ، ثم نهض من مكانه بعد دقيقتين — وقد نطقت أساريره بالألم وهو يحاول النهوض — وقال : « لا أستطيع أن أبعث بك لتأتينى بمن يساعدنى ، ولكن فى وسعك إذا تفضلت أن تعاوننى قليلا بنفسك » .

— أية خدمة أؤديها لسيدى ؟

— ألديك مظلة أستطيع أن أتوكأ عليها ؟

— كلا .

— حاولى أن تمسكى بعنان جوادى وتأتينى به .. هل أنت خائفة ؟

وكان خليقاً بى أن أخاف أن ألمس جواداً وأنا وحدى ، أما وقد طلب منى ذلك ، فقد اضطررت إلى أن أطيع .. فخلعت فراء يدى ووضعتهما على حجر ناصية الدرب ، ثم ذهبت إلى الجواد العالى ، وحاولت أن أمسك بالعنان . ولكن الجواد كان خفيف الحركات فلم

يدعنى أقترب من رأسه . وعبثاً بذلت الجهد بعد الجهد ، والخوف من قدميه اللتين تضربان فى الأرض ، يكاد يقتلنى ! .. وانتظر الرجل ، وراقبنى قليلا ، وأخيراً ضحك وقال : « أرى أن الجبل لن يجىء إلى الإنسان ، ولذلك فكل ما تستطيعينه هو أن تساعدى الإنسان على الذهاب إلى الجبل ! .. أرجوك أن تأتى إلىّ » .

وذهبت إليه ، فاستطرد يقول : « معذرة ، فإن الضرورة تحتم علىّ أن أستعين بك » .. ثم وضع يداً ثقيلة على كتفى واعتمد عليها متخففاً وراح يعرج فى مشيته إلى الجواد .. حتى إذا تمكن من مسك العنان والتحكم فيه ، وثب إلى السرج وهو يزوى وجهه لذلك الجهد الذى لوى قدمه المخلوعة . وأخيراً ، بعد أن أطلق شفته السفلى من عضة قوية متألمة ، قال :

« الآن ناولينى سوطى . إنه هنالك تحت السياج » فبحثت عنه ووجدته به ، فقال : « أشكرك . والآن هيا أسرعى بالخطاب إلى (هاى) ، ثم عودى بأسرع ما تستطيعين ! » .. وبلمسة من كعبه المهموز ، وثب الجواد إلى الإمام ، ثم إلى الخلف ، قبل أن ينطلق كالسهم .. واندفع الكلب فى أعقابه .. ثم اختفى الثلاثة ، « أشبه بالمروج فى البيداء .. تعصف بها الرياح الهوجاء ! » .

* * *

● وعندئذ التقطت فراء يدى وسرت فى طريقى .. وقد مر بى الحادث كغيره من الأحداث العادية ، لايحمل فى أطوائه أهمية ، أو قصة ، أو مصلحة ذات بال ، وإن كان قد أدخل تغييراً على ساعة من حياتى الرتيبة التى تسير على منوال واحد : فهأنذا قد سئلت المعونة ولم أبخل

بها ، وبذلك أتيح لى الشعور بالاغتباط لأننى قمت بعمل ما ، ربما كان تافهاً وقصير الأمد ، إلا أنه كان إيجابياً بعد أن تولانى الملل والسأم من حياة سلبية كلها ! .. كما كان هذا الوجه الجديد أشبه بصورة جديدة أضيفت إلى قاعة الذكريات فى رأسى .. صورة تختلف عن كل الصور المعلقة هنالك ، لسببين : أولها أنها صورة رجل ، وثانيهما أنها كانت غامضة ، قوية ، متجهمة ! .. وقد لازمتنى هذه الصورة عندما دخلت (هاى) ، وأودعت الخطاب مكتب البريد ، كما تمثلتها وأنا أسير بسرعة عند سفح التل فى طريق عودتى إلى المنزل . وعندما بلغت الحجر القائم عند ناصية الدرب توقفت قليلا أتطلع حولى منصتة ، يخامرنى خاطر بأن حوافر جواد لن تلبث أن تطرق أرض الجسر المعدنية مرة أخرى . وأن راكباً يرتدى معطفاً قد يظهر من جديد مع كلبه الذى يشبه (جتراش) . ولكنى لم أر أمامى سوى السياج والصفصاف المقلم الأطراف ، بأعناقهما العالية ، وكأنما يهمسان إلى القمر .. ولم أسمع سوى حفيف الريح المزمجرة بين الأشجار على مسافة بعيدة حول (ثورنفيلد) . وعندما صوبت نظرى إلى ناحية هذه الزمجرة عبر واجهة القصر ، شاهدت نوراً مضيئاً فى إحدى النوافذ ، فانتبهت إلى أننى قد تأخرت ، وأسرعت الخطى .

لم تكن بى رغبة فى العودة إلى (ثورنفيلد) ، لأن اجتياز عتبته كان بمثابة العودة إلى حياة الركود . أما اجتياز القاعدة الساكنة والدرج المظلم والرجوع إلى حجرتى الصغيرة المنعزلة ، ثم لقاء مسز فيرفاكس الهادئة ، وقضاء أمسيات الشتاء الطويل فى رفقتها — ورفقتها فقط — فقد كان كفيلا بأن يقضى كل القضاء على الانفعال البسيط الذى أيقظته فى نفسى



ثم وضع يدا ثقيلة على كتفى واعتمد عليها متخففا ...

تلك النزهة ، وبأن يعيدنى إلى قيود الزى الرسمى — كمعلمة فى دار لها تقاليدها — وإلى الكيان الساكن .. كيان له من مزايا الأمن والراحة ما غدوت عاجزة عن تقدير قيمته . كان الأجدر بى — إذ ذاك — أن تطوح بى عواصف حياة قلقة غير مستقرة ، لتعلمنى التجاريب القاسية كيف أتلهف على هدوء أتململ منه الآن ! .. نعم ، إن ذلك كان خليقاً بأن يتيح لى عين الفائدة التى يلقاها رجل سئم الجلوس الهادئ فى مقعد جد مريح ، إذا ما قدر له أن يقوم بنزهة طويلة على قدميه ! .. وكما أن الرغبة فى الحراك طبيعية فى مثل ظروف ذلك الرجل ، فإنها كانت طبيعية فى ظروفى إذ ذاك !

وتلكأت عند الأبواب الخارجية ، ثم تلكأت فوق المروج ، ورحت أذرع الرصيف جيئة وذهاباً . وكان مصراعا الباب الزجاجى مغلقين ، فلم يتسن لى مشاهدة ما كان فى الداخل . وخيل إلىّ أن عينى وروحى قد انصرفت عن المنزل المظلم — وعن الفراغ المعتم بين جدرانه ، وقد بدا هذا الفراغ مقسماً إلى حجرات عديمة الضياء — لتتطلع إلى السماء الممتدة أمامى ، بحراً أزرق مبرأ من شوائب السحب ، ومن فوقها يسير القمر فى رزانة ووقار ، وكأن مداره يشرئب بعنقه وهو يجتاز قمم التلال التى جاء من ورائها ليبلغ أوج المجد . وعندما شاهدت النجوم المرتجفة تتبع طريق القمر ، ارتعدت نياط قلبى بلورها ، وتأججت الدماء فى شرايينى !

على أن بعض التوافه لا تلبث أن تعيدنا إلى الأرض .. فقد دقت الساعة فى القاعة ، فكان ذلك كافياً لأن يصرفنى عن القمر والنجوم ،

ففتحت باباً جانبياً دلفت منه إلى الداخل .. ولم يكن البهو قد أضىء بعد إلا بمصباح برونزى مدلى من السقف ، ولكن وهجاً دافئاً كان يغمر البهو وبعض درجات السلم ، منبعثاً من حجرة المائدة الكبيرة التى كان مصراعا بابها مفتوحين ، تظهر بينهما نيران الموقد البهيجة ، والمفروشات والرياش ، فى إشراق بديع . وتبينت فى الداخل جماعة جلست بالقرب من الموقد ، ولكنى لم أكد ألمحها وأفطن إلى خليط من الأصوات المبتهجة — تميزت من بينها صوت (آديل) — حتى أغلق الباب .

وبادرت إلى حجرة مسز فيرفاكس ، حيث وجدت ناراً موقدة ، ولكنى لم أر أثراً لشمعة ، أو لمسز فيرفاكس ، بل كان يجلس على السجادة ويتفرس فى الوهج ، كلب كبير طويل الشعر ، أشبه بجتراش الذى صادفته فى الطريق !.. كان يشبهه لدرجة أننى تقدمت وناديته : (بايلوت) ، فنهض واقترب ، يتشممنى . فربت عليه ، وإذا به يبصبص بذيله الكبير ، ولكنه بدا مخلوقاً مرعباً لا يصح الانفراد به . ولم أدر من أين جاء ، فقرعت الجرس ، لأننى كنت فى حاجة إلى شمعة ، وفى حاجة كذلك إلى معرفة قصة هذا الزائر . ودخلت (لياه) ، فسألتها :

— أى كلب هذا ؟

— لقد جاء مع سيدى .

— مع من ؟

— مع سيدى ، مستر روشستر ، إذ وصل منذ قليل .

— حقاً ! وهل مسز فيرفاكس معه ؟



— نعم .. ومس آديل . إنهم بحجرة الطعام ، وقد ذهب جون لاستدعاء جراح ، لأن السيد وقع له حادث ، كبا جواده فالتوى كاحله .

— هل سقط الجواد فى طريق (هاى) ؟

— نعم ، انزلقت أقدامه فوق بعض الجليد أثناء هبوطه التل .

— آه . آتينى بشمعة من فضلك يا (لياه) .

وجاءت (لياه) بالشمعة : وأقبلت فى أثرها مسز فيرفاكس ، فروت لى نفس الأخبار ، مضيفة إلى ذلك أن الجراح قد وصل ، وأنه كان إذ ذاك مع مستر روشستر .. ثم أسرعت إلى الخارج لتأمر بإعداد الشاى ، فصعدت لأخلع ملابسى .

* * *

• خاتمة •

وبذلك ينتهى الجزء الأول من القصة .. ويليه الجزء الثانى ، وفيه تدخل القصة فى مرحلتها العنيفة المثيرة ، بل تبدأ القصة الحقيقية — بعد أن استخدمت المؤلفة هذا الجزء الأول ليكون بمثابة (مقدمة) طويلة لأحداث المأساة الرئيسية — وهكذا نرى فى الجزء الثانى كيف يتطور هذا اللقاء الأول بين (جين إير) وبين (سيدها) — روشستر — حتى يقع حادث غامض فى مخدع السيد ، يفتح أمام بصيرة (جين) الباب الذى تنفذ منه إلى حل ما استعصى على ذهنها من (ألغاز) قصر (ثورنفيلد هول) ، والغوامض التى تكتنف حياة صاحبه وقاطنيه !.. كما تقف منه على سر تلك الضحكة الغامضة الغريبة التى كانت تتردد فى جنبات القصر ، فى سكون الليل !.. وفى غضون ذلك ، تنسج المأساة الخفية التى كان يعيش فيها (روشستر) ، خيوطاً تربط بينه وبين (جين) ، بروابط شديدة التعقيد !

اقرأ التفصيلات الشائقة المثيرة لهذه الأحداث الرئيسية للقصة ، فى الجزء الثانى منها .



صدر من هذه السلسلة

تحت الطبع

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ ــ ١٦٣ ــ ٠٨٠ ــ ٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة





مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شىء تقريبًا : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت! . . وهكذا اقترن اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « آن برونتى» من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) .

أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهن بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب ـ وهو مرض السل أو التدرن الرئوى ـ فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ ـ ١٨٥٥) ، وماتت به «إميلى» فى سن الثلاثين (١٨١٨ ـ ١٨٤٨) . . ثم ماتت به «آن» فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ ـ ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع اسرة «برونتى» لاتقف عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجو القاتم الذى تتسم به رواياتهن جميعًا . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بانجلترا . . وزوجته ، ثم أطفالهما الستة . وكانوا خمس بنات وولد ، هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، وشارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيرًا «آن» .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «آن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للصغار الخمسة الأخرين !

وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية ـ هى المدرسة الرهيبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «لووود» .

حلمى مراد